الباب الأول : المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه الذي أخرجنا ــ بهذا الدين القويم ــ من ظلمات الجهل والوهم ، إلى أنوار المعرفة والعلم ، والصلاة والسلام على سيد الخلق ، وحبيب الحق ، الذي أخرجنا ــ بسنته المطهرة ــ من وحول الشهوات إلى جنات القربات .

لقد خلق اللّه الإنسان في أحسن تقويم ، وكرمه أعظم تكريم ، سخر له الكون تسخير تعريف وتكريم ، ووهبه نعمة العقل ، ليتعرف به على خالقه العظيم ، وجعل له فطرة سليمة تدله على خطئه الجسيم ، وأودع فيه الشهوات ليرقى بها صابراً أو شاكراً إلى رب الأرض والسماوات ، وجعل له الشرع الحنيف ميزاناً دقيقاً ، فأحل له من خلاله الطيبات ، وحرم عليه الخبائث ، ومنحه حرية الإرادة ، ليثمن عمله ، كل ذلك ... ليعرف ربه فيعبده ، فيسعد بعبادته ، في الدنيا والآخرة

لهذا لا يَسْلَم الإنسان ولا يسعد ــ وهما مطلبان ثابتان للإنسان في كل زمان ومكان ــ إلا إذا تطابقت حركته اليومية في حياته الدنيا ، مع الهدف الحقيقي الذي خُلق من أجله ، إذاً تعدُّ معرفة هذا الهدف ، والتحرك نحوه ، شرطين أساسيين لبلوغ هذين المطلبين الثابتين .

فإن لم يبحث الإنسان عن الهدف الحقيقي الذي خُلق من أجله ، أو توهّم هدفاً آخر لم يُخلق له ، أو لم تأت حركته اليومية مطابقة للهدف الصحيح ، كان القلق والاضطراب ، وكان الضلال والشقاء ، وتحققت خسارة كبيرة أبدية .

وجُعل في كيان الإنسان قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح اللّه ، فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة المقربين ، وإن سمت شهوته على عقله كان أسفل السافلين وخلق فيه حاجات دنيا لا يقوم إلا بها ، وخلق فيه حاجات عليا ، لا يسعد إلا بتلبيتها ، ومن أبرز هذه الحاجات العليا " العلم " ، الذي هو القيمة المرجحة بين العباد ، قال تعالى :

" هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ "

(سورة الزمر : آية " 9 ") .

وجعل منحة العلم أعظم النعم ، قال تعالى :

" وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا "

(سورة النساء : آية " 113 ") .



وانطلاقاً من حديث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم :

" **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ؛ صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له** " .

فقد تمّ بعون الله وتوفيقه تأليف كتاب جديد هو : " **تأملات في الإسلام** " ، حيث تنوعت موضوعاته بين : العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، ومكارم الأخلاق ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الكرام ، وفيه أيضاً موضوعات أصولية ، وتاريخية وموضوعات أدبية ،وقضايامعاصرة وقد حرصت على أن يكون في الموضوع الواحد ؛ ركن عقدي فلسفي ، وركن من النقل الصحيح ؛ كتاب وسنة مع الشرح الأصولي ، وركن من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسير صحابته الكرام ، والجوانب المشرقة من التاريخ الإسلامي ، وركن علمي يؤكد أن النقل

الصحيح يتوافق مع العقل الصريح ، وأن الذي خلق الأكوان ، وخلق الإنسان هو الذي أنزل على عبده الفرقان ، ليكون منهجاً للإنسان ، بحيث إذا طبقه لا يضلُّ عقله ، ولا تشقى نفسه ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت .

وقد بينت في موضوع " **العبادة** " أن العبادة علة وجودنا ، وسرّ سعادتنا في الدنيا ، وثمن جنة ربنا في الآخرة . إنها غاية الخضوع لأمره ، وغاية محبته ، فمن أطاعه ، ولم يحبه ، لا يكون عابداً له ، ومن أحبّه ، ولم يخضع له ، لا يكون عابداً له . فلابد لهذه الطاعة الطوعية من معرفة يقينية تسبقها ، كما أنه لابد لهذه الطاعة الطوعية من سعادة حقيقية تفضي إليها تلك السعادة التي خُلق الإنسان من أجلها .

وبينت في موضوع " **الفطرة** " أن في القلب شعثاً ، لا يلمّه إلا الإقبال على الله ، وفي القلب وحشة ، لا يزيلها إلا الأنس بالله ، وفيه حزن ، لا يُذهبه إلا السرور بمعرفة الله ، وفيه قلق ، لا يُسكنه إلا الاجتماع عليه ، والفرار إليه ، وفي القلب نيران حسرات ، لا يطفئها إلا الرضا بأمره ، ونهيه ، وقضائه ، وقدره ، والصبر على ذلك إلى يوم لقائه ، وفي القلب فاقة لا تسدها إلا محبته ، والإنابة إليه ، ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له .

وأكدت في موضوع " **الوسطية** " أن الإسلام وسط بين المادية المقيتة ، والروحية الحالمة بين الواقعية المرة ، والمثالية التخيلية ، بين الفردية الطاغية ، والجماعية الساحقة ، بين الثبات الرتيب ، والتغير المضطرب ، بين الحاجات المُلحة ، والقيم البعيدة ، بين العقلانية الباردة والعاطفية المتَّقدة ، بين نوازع الجسد ، ومتطلبات الروح .

وفي موضوع " **فلسفة المال في الإسلام** " بينت أن الإنسان حريص على رزقه ؛ كما هو حريص على حياته ، ولا يقلقه إلا زوال النعمة عنه ، أو زواله عن النعمة ، فكيف يدفع المرء عن نفسه القلق



من أجل الرزق ؟ وكيف يمتنع الرجل عن ارتكاب المعاصي من أجل الرزق ؟ وكيف يحترز الإنسان عن أن يقف موقف مذلة من أجل الرزق ؟.

وأكدت في موضوع " **التوحيد** " أنه يملأ نفس صاحبه أمناً وطمأنينة ، فلا تستبد بها المخاوف ، التي تتسلط على أهل الشرك ، فقد سدّ الموحد منافذ الخوف ، التي يفتحها الناس على أنفسهم ؛ الخوف على الرزق ، والخوف على الأجل ، والخوف على النفس ، والخوف على الأهل والأولاد ، والخوف من الإنس ، والخوف من الجن ، والخوف من الموت والخوف ممّا بعد الموت .

وفي موضوع " **تأملات في سورة العصر** " وضحت أن الإيمان هو اتصال هذا الكائن الإنساني ، الصغير ، الضعيف ، الفاني ، المحدود ، بالأصل المطلق الأزلي الباقي ، الذي صدر عنه هذا الوجود ؛ وعندئذٍ ينطلق هذا الإنسان من حدود ذاته الصغيرة ، إلى راحبة الكون الكبير ، ومن حدود قوته الهزلية ، إلى عظمة الطاقات الكونية المخبوءة ، ومن حدود عمره القصير ، إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله ، هذا الاتصال فضلاً عن أنه يمنح الإنسان القوة ، والامتداد ، والانطلاق ، فإنه يمنحه السعادة الحقيقية التي يلهث وراءها الإنسان .

وفي موضوع " **ذكر الله** " عددت أنواع الذكر ... فمن الذكر : أن تذكر الله في آياته الكونية ، ومن الذكر أن تذكره في آياته القرآنية ، ومن الذكر أن تذكره في نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة ، أن تذكره في أمره ونهيه ، أن تذكره لعباده معرفاً به ، وأن تذكره في قلبك مسبحاً ، وأن تذكره في لسانك حامدا ، وأن تذكره ذكراً كثيرا ، ليطمئن قلبك ، ولينجلي همك
ولينشرح صدرك ، وليتسع رزقك ، ولينصرك الله على عدوك .

وفي موضوع " **يوم عرفة** " بينت أنه : إذا أطاع المرء مخلوقاً ، كائناً من كان وعصى خالقه ، فهو ما قال : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما أطاع الأقوى في تصوره . وإذا غش المرء الناس ، ليجني المال الوفير ، فهو ما قال : الله أكبر ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما رأى أنَّ هذا المال أكبر عنده من طاعة الله ورسوله . وإذا لم يُقم المرء الإسلام في بيته ، إرضاء لأهله ، ولأولاده ، فهو ما قال : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو ردَّدها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما رأى أن إرضاء أهله أكبر عنده من إرضاء ربه

وفي موضوع " **مقام إبراهيم** " بينت أن الله جل جلاله ، حينما يخاطب خلقه ، لا يخاطبهم بالتكليف ، افعلوا ولا تفعلوا ، إنما يدعوهم إلى الإيمان به ، فمن آمن به يكلفه ، لذلك تجد كل تكليف مسبوقاً في القرآن الكريم بـــ (يا أيها الذين آمنوا) ، لأن الإنسان ، حينما يدخل مع الله في عقدٍ إيماني ، فقد آمن إيماناً قطعياً أن لله الكمال المطلق ، فإذا تلقيت الأمر الإيماني ولم تفهمه ، ونفذته فإنك ستجد



الراحة في قلبك ، والصفاء في نفسك ، وحينما تقبل على تنفيذ أمر الله ، لثقتك بعلمه ، وحكمته ، ورحمته ، يكشف لك الحكمة منه ، فتعود بثمرتين : ثواب العابد ، وفهم العالم .

وفي موضوع " **الصيام** " حاولت أن أبين أن الله تعالى لم يصطف زماناً كرمضان من بقية الشهور ، ليكون شهر الطاعة ، والقرب فحسب ، بل أراده شهراً ، يتدرب فيه الإنسان على الطاعة ، حتى يذوق حلاوة القرب ، وعندها تنسحب هذه الطاعة ، وذاك القرب ، على كل شهور ا لعام ، وحينما يصطفي الله مكاناً ، كبيته الحرام ، ويدعو المؤمنين إليه ، ليذوقوا حلاوة القرب فيه ، يريد أن ينسحب هذا القرب على كل الأمكنة ، لأن الله مع المؤمن في كل

مكان ، وحينما يصطفي الله إنساناً كسيد الأنام فيكشف له الحقائق ، إنما يصطفيه ، ليكشف من خلاله الحقائق لكل الناس .

وحينا وصلت إلى " **الجانب الاجتماعي** " في الإسلام ، بينت أن الإسلام جعل الدافع الاجتماعي في المسلم ينبعث من عبادة الله ، وطلب مرضاته ، من طريق خدمة عباده ، لا من طريق تلبية حاجاته المادية والمعنوية ، وجعل الإسلام النشاط الاجتماعي للمسلم يسري في قنوات نظيفة ، حددها الشرع الحكيم ، ضماناً لسلامة الفرد ، وضماناً لسلامة المجتمع ، من الفساد والانحلال ، وجعل كثيراً من الفضائل الخلقية ، والأعمال الجليلة ، لا تتحقق إلا من طريق العمل الجماعي ، وجعل الفردية ، والانعزالية ، سبباً لكثير من الرذائل الخلقية والأعمال الخسيسة ، أما حينما يفسد المجتمع ، وتنهار فيه القيم ، وتداس فيه المبادئ ، بأقدام المصالح ، عندئذ يأمر الإسلام بجفوة هذا المجتمع واعتزاله

وفي موضوع " **التعاون** " قدمت صورة للمؤمن الذي رباه الإسلام على التعاون المثمر فهو إنسان متميز ، يرى ما لا يراه الآخرون ، ويشعر بما لا يشعرون ، يتمتع بوعي عميق ، وإدراك دقيق ، له قلب كبير ، وعزم متين ، وإرادة صلبة ، هدفه أكبر من حاجاته ، ورسالته أسمى من رغباته ، يملك نفسه ولا تملكه ، يقود هواه ولا ينقاد له ، تحكمه القيم ويحتكم إليها من دون أن يسخرها لمصالحه ، أو يسخر منها ، سما حتى اشرأبت إليه الأعناق ، وصفا حتى مالت إليه القلوب .

أما موضوع " **الحلال والحرام** " ، فهو قوام الإسلام ، ودليل الإيمان ، وميزان الصدق عند الواحد الديان ، فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل إلا على مقتضى الأمر والنهي ، ولا التزام بأمر آمر ، ولا نهي ناهٍ ، إلا عن حب ، والحب دون اتباع كذب ونفاق ، ومن هنا كانت خطورة موضوع الحلال والحرام في الإسلام .

و " **محبة الله** " هي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وهي الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات ، وهي النور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات ، وهي الشفاء الذي من عدمه حلت به الأسقام ، وهي اللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام ، والحب دون اتباع كذب ونفاق .



وعن " **إنسانية** " هذا الدين الحنيف ، ذكرت أنه قبل أن تسمع أذن الدنيا ، عن حقوق الإنسان ، لاثني عشر قرناً ، أو تزيد ، ويوم كان العالم كله ، لا ينظر إلى الإنسان ، إلا من جهة ما عليه من الواجبات ، يُطالب بأدائها ، وإلا كان عليه من العقاب ما لا يطيق ، جاء الإسلام ليقرر جهرة ، أن للإنسان حقوقاً ، ينبغي أن تُرعى ، كما أن عليه واجبات ، يجب أن تؤدى ، وكما أنه يُسأل عما عليه ، يجب أن يعطى ما له ، فكل واجب يقابله حق ، كما أن كل حق يقابله واجب .

ومن هذه الحقوق التي أعلنها الإسلام جهرة ، قبل خمسة عشر قرناً ، حق الحياة ، وحق الكرامة ، الإنسانية ، وحق التفكير ، وحق التدين ، وحق الاعتقاد ، وحق التعبير ، وحق التعلم ، وحق التملك ، وحق الكفاية ، وحق الأمن من الخوف .

وفي موضوع " **حقيقة المعجزة** " أكدت أنه من رحمة الله بنا أيضا ، أن تلازم الأسباب مع النتائج يضفي على الكون طابع الثبات ، ويمهد الطريق لاكتشاف القوانين ، ويعطي الأشياء خصائصها الثابتة ، ليسهل التعامل معها ، ولو لم تكن الأسباب متلازمة مع النتائج ، ولو لم تكن النتائج بقدر الأسباب ، لأخذ الكون طابع الفوضى ، والعبثية ، ولتاه الإنسان في سبل المعرفة ، ولم ينتفع بعقله ، لكن مَنِ اعتقد أن الأسباب وحدها تخلق النتائج ، ثم اعتمد على الأسباب وحدها ، فقد أشرك ، لذلك يتفضل الله على هذا الإنسان ، الذي وقع في الشرك الخفي فيؤدبه بتع طيل فاعلية الأسباب ، التي اعتمد عليها ، فيفاجأ بنتائج غير متوقعة ، ومن ترك الأخذ بالأسباب ، متوكلاً في زعمه على الله ، فقد عصى ، لأنه لم يعبأ بهذا النظام الذي ينتظم

الكون كله، ولأنه طمع ، بغير حق ، أن يخرق الله له هذه السنن .

وحرصت في موضوع " **الهجرة** " على أن أبين أن الظروف التي أحاطت بالنبي صلى الله عليه وســـــــــلم ، والأحداث التي واجهها، هي ظروفٌ وأحداثٌ ، خُلقت وقُدرت بعنايةٍ تامة ، وبحكمةٍ بالغة ، ليقف النبي صلى الله عليه وسلم منها الموقف التشريعي الكامل الذي ينبغي أن يقفه الإنسان ، ليؤكد إنسانيته ، وليحقق غاية وجوده ، إن هذه الظروف ، وتلك الأحداث ، من شأنها أنها تكرر ، بسبب أن طبيعة النفس واحده .

ومن خلال موضوع " **رحمة النبي** " الكريم وضحت أن في تاريخ البشرية كلها ، بروادها بصفوتها ، بقادتها ، لا نكاد نعرف حياةً ، نقلت إلينا أنباؤها ، وحفظت لنا وقائعها ، في وضوح كامل ، وتفصيل عميم شامل ، كما حفظت ، وكما نقلت إلينا ، حياة محمد بن عبد الله رسول الله رب العالمين ، ورحمته المهداة إلى الناس أجمعين ، فكل كلمة قالها ، وكل خطوة خطاها ، وكل بسمة تألقت على محيّاه ، وكل دمعة تحدرت من مآقيه ، وكل نفس تردد في صدره ، و كل مسعىً سار لتحقيق أمره ،



كل مشاهد حياته ، حتى ما كان منها من خاصة أمره ، وأسرار بيته ، وأهله ؛ كل ذلك نقل إلينا بحروف كبار ، موثقاً بأصدق ما عرف التاريخ الإنساني من وسائل .
وفي " **الجانب الانساني في شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلّم** " ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم في نظر المنصفين من خصومة ، الإنسان الأول ، من بين المئة الأوائل في تاريخ البشرية كلها ، من حيث قوة التأثير ، ومن حيث نوع التأثير ، ومن حيث امتداد أمد التأثير ، ومن حيث اتساع رقعة التأثير .
وبينت في موضوع " **الإيدز** " أنه لحكمة بالغة بالغة جُعلت علاقة المعصية بنتائجها علاقةً علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، ففي كل معصية بذور نتائجها ، وهذا ما يليق بالتشريع الإلهي ، تشريع الخبير ، الذي هو في حقيقته تعليمات الصانع ، لكن هذه النتائج الوبيلة للمعاصي ، ليست هي كل النتائج ، بل بعضها ، فالعاصي ــ فضلاً عن أنه يخسر الدنيا ــ يخسر الآخرة ، والعاصي ــ فضلاً عن أنه يعذب في الدنيا ــ يعذب في الآخرة ، لكن عذاب الدنيا ليس بشيء ، إذا قيس بعذاب الآخرة .
وفي موضوع " **الدخان** " ذكرت قصة رجل وسيم جداً ، تتخذه شركات التسويق وسيلة للإعلان عن الدخان ، يرتدي ثياب رعاة البقر، و يضع قبعةً على رأسه ، ويدعوك إلى التدخين مات في سن الشباب ، بسبب التدخين ، قال وهو على فراش الموت : كنت أكذب عليكم الدخان قتلني ، لذلك لا ينبغي أن نكون ضحية الكذب ، ولا ضحية إعلان رخيص ، ولا ضحية شركة ، تبحث عن الربح ، ولا تعبأ بصحة الآخرين .
وفي موضوع " **القدس** " ، ذكرت أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، انطلقوا ينشرون هذه الرسالة السماوية في الآفاق ، متخذين لهذه الأهداف النبيلة وسائل نبيلة من جنسها ، فهذه وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، لأسامة بن زيد ، قائد الجيش الإسلامي، قال له : " لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ، ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم بالصوامع ، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له ... اندفعوا بسم الله" .
وفي موضوع " **المقالة** " بينت أن مهمة الكاتب ليست في إضعاف النفوس ، بل في تحريك الرؤوس ، كل كاتب لا يثير في الناس رأياً ، أو فكراً ، أو مغزى يدفعهم إلى التطور أو النهوض ، أو السمو ، على أنفسهم ، ولا يحرك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة ، ولا يقرُّ فيهم غير الاطمئنان الرخيص ، ولا يوحي إليهم إلا بالإحساس المبتذل ، ولا يمنحهم غير الراحة الفارغة ، ولا يغمرهم إلا في التسلية ، والملذات السخيفة ، التي لا تكوِّن فيهم شخصية
ولا تثقف فيهم ذهناً ، ولا تربي فيهم رأياً ، لهو كاتب يقضي على نمو الشعب ، وتطور المجتمع



وفي موضوع " **البطولات** " ذكرت أن جيوش الغزو الفرنجي الثالثة ، يقودها سبعة وعشرون ملكاً وأميراً ، يتقدمهم ريكاردوس ملك انكلترا ، وقد قال لصلاح الدين قبل التحام الجيوش : " إني أنا ريكاردوس ، والقوة عندنا هي كل شيء ، وسأريك البرهان " ثم دعا بقضيب من حديد ثم سل سيفه وأهوى عليه ، فاخترطه نصفين . فضحك صلاح الدين وقال لريكاردوس : " ليست الحرب صلابة سيف ، وقوة ساعد ، وإنما هي مضاء حدٍّ وسداد يد ثم قذف بمنديل من الحرير الرقيق الشفاف إلى أعلى ، ثم تلقاه بسيفه فشطره وقال
لريكاردوس : بمثل هذا السيف سنلقاكم غداً " .

ولا بد من التنويه بالمنهج العلمي الذي اعتمدته في هذا الكتاب ؛ فانطلاقاً من أن الدين في حقيقته نقل عن الله ورسوله ، وأن أخطر ما في النقل صحته ، لذلك حرصت على اختيار النصوص الصحيحة ، وتخريج النصوص الواردة في بعض أصول الكتاب .

وبما أن العلم ــ في الأصل ــ حكم ، مقطوع بصحته ، يطابق الواق ع ، وعليه دليل ؛ فلو لم يكن الحكم مقطوعاً بصحته ، كان الوهم والشك والظن ، ولو لم يطابق الواقع كان جهلاً ، لأن حقيقة العلم هو الوصف المطابق للواقع ، ولو لم يؤيده الدليل ــ ولو كان الحكم صحيحاً ــ كان تقليداً ، فانطلاقاً من هذا ... أؤكد أن الحق ما جاء به ال نقل ، ومن البدهي أن يقبله العقل الصريح ، وأن ترتاح له الفطرة السليمة ، وأن يؤكده الواقع الموضوعي .

فالنص الصحيح أولاً والحكم مأخوذ منه ومبني عليه ثانياً ، أما إذا عكسنا الأمر ؛ فجئنا بالرأي أولاً ، ثم بحثنا عن نص يؤيده ، فقبلنا من النصوص ما يؤيده ، ورفضنا ما لا يؤيده ، وقعنا في ضلالات أهل الرأي ، قال تعالى :

" إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء "

(سورة الأنعام : آية " 159 ")

ويمكن أن نلخص منهج البحث الإسلامي بالقاعدة : " إن كنت ناقلاً فالصحة ، أو مدعياً فالدليل " .

وبما أن النبي معصوم بمفرده ، وأمته معصومة بمجموعها ، وأن كلّ طالب علم تفوق في جانب ، وتفوق غيره في جانب آخر ؛ فلا بد في العلم من الأخذ والعطاء ، لذلك اعتمدت في بعض الموضوعات وهي قليلة ، وفي بعض أجزائها ، على كتب قيمة ، أشرت إليها في قائمة المصادر والمراجع وذكرت أسماء مؤلفيها .

وبما أن الكمال لله وحده ، وبما أن كلّ إنسان ، يؤخذ منه ويرد عليه ، إلا صاحب القبة الخضراء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإني أنتظر من الإخوة القراء ــ كما عودوني في كتاب النظرات ــ تنفيذاً لوصية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه " حينما قال : " أحب الناس إلي من رفع إلي



عيوبي " ، أن يتفضلوا بإبداء ملحوظاتهم حول مضامين الكتاب وأدلتها ، ونصوصه واستنباطاتها ، وقصصه التاريخية ودلالاتها ، وموضوعاته العلمية وارتباطاتها ؛ لآخذ بها في الطبعات القادمة إن شاء الله تعالى . فالكتاب لا يزيد عن تأملات في الإسلام فإن أصبت فمن توفيق الله وفضله ، وإن لم أصب فمن تقصيري وضعف حيلتي .

فالحق فوق الجميع ، والمضامين فوق العناوين ، والحقيقة فوق الأشخاص فالمؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ، ويروى أن إماماً لقي غلاماً وأمامه حفرة ، فقال له : إياك ياغلام أن تسقط فقال له الغلام : بل إياك يا إمام أن تسقط ؛ إني إن سقطت سقطت وحدي ، وإنك إن سقطت سقط معك العالم ، لذلك ما من أحد أصغر من أن يَنقد ، وما من أحد أكبر من أن يُنقد .

ولا بد من أن أنوه أيضاً بفضل بعض الإخوة الذين أجلّهم وأحبّهم ، والذين شاركوا في تصميم البرامج التي أفرغت فيها أصول الكتاب ، والذين نفذوها وطوروها ، والذين نقحوا النصوص ودققوها ، والذين راجعوا الأحاديث الشريفة وخرجوها ، والذين أخرجوا الكتاب وطبعوه ، وأخص بالشكر دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع ، على حرصها أن يقترب الكتاب من درجة الكمال .

ولا يسعني إلا أن أدعو فأقول : جزى الله عنا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ما هو أهله ، وجزى عنا أصحابه الكرام ما هم أهله ، وجزى عنا والدينا ، وأساتذتنا ، ومشايخنا ومن علمنا ، ومن له حق علينا ماهم أهله .

أعوذ بك يارب ... أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني ، وأعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ، ألتمس به أحداً سواك ، وأعوذ بك من فتنة القول ، كما أعوذ بك من فتنة العمل وأعوذ بك أن أتكلف ما لا أحسن ، كما أعوذ بك من العجب فيما أحسن .

محمد راتب النابلسي

أستاذ محاضر في كلية التربية بجامعة دمشق

خطيب جامع الشيخ عبد الغني النابلسي

مدرس ديني في مساجد دمشق



الباب الثاني: العقائد



1 - العبادة
2 - الفطرة
3 - الوسطية
4 - فلسفة المال في الإسلام
5 - التوحيد
6 - سورة العصر



1 - العبادة

تعريف العبادة :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، موضوع الخطبة اليوم العبادة في الإسلام ؛ حقيقتها ، وغايتها ، وخصائصها .

العبادة علة وجودنا وسر سعادتنا في الدنيا وثمن جنة ربنا في الآخرة قال تعالى :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات)

إنها غاية الخضوع لأمر الله ، وغاية محبته فمن أطاعه ولم يحبه لا يكون عابداً له ، ومن أحبه ولم يخضع له لا يكون عابداً له .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقـــال شنيعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعتـــه إن المحب لمـــن يحب مطيـــعُ

* * *

في العبادات جانب سلوكي ، إنه الطاعة الطوعية والانقياد التام إلى الأمر التكليفي فعلاً وتركاً ، وفي العبادة جانب نفسي ، هو الحب الغامر للمنعم الذي أنعم ، أنعم بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والإرشاد .

لا بد لهذه الطاعة الطوعية من معرفة يقينية تسبقها ، كما أنه لا بد لهذه الطاعة الطوعية من سعادة حقيقية تفضي إليها ، تلك السعادة التي خلق الإنسان من أجلها قال تعالى :

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ

(سورة هود)



أهداف العبادة الكبرى وغاياتها :

السؤال المهم ، لماذا فرض الله علينا عبادته وطاعته وهو الغني عنا ؟ إنه تبارك اسمه لا تنفعه عبادة من عبده ، ولا يضره إعراض من صد عنه ، ولا يزيد في ملكه حمد الحامدين ، ولا ينقصه جحود الجاحدين ، هو الغني ونحن الفقراء إليه ، هو الودود الكريم والبر الرحيم ، لا يأمرنا إلا بما فيه خيرنا وصلاحنا .

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، إذا انتقلنا من تعريف العبادة إلى غاياتها العظيمة ، وأهدافها النبيلة نجد :

1ـ العبادة غذاء النفس :

أولاً : العبادة غذاء النفس ، فكما أن الجسم غذاؤه الطعام والشراب فالنفس التي بين جنبيك غذاؤها العبادة ، فليس الإنسان هو الغلاف المادي الذي نحسه ونراه ، ولكن حقيقة الإنسان هو ذلك الجوهر النفيس الذي صار به سيد المخلوقات ، هذا الجوهر الذي يحيى ويسعد بذكر الله والإقبال عليه ، ويهلك ويشقى بالغفلة والبعد عنه ، قال تعالى :

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾

(سورة الشمس)

أيها الأخوة الكرام ، إن القلب الإنساني دائم الشعور بالحاجة إلى الله ، وهو شعور أصيل لا يملأ فراغه شيء في الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود ، وهذا هو جوهر العبادة.

2ـ العبودية الحقة لله سبيل إلى الحرية الحقيقية :

ثانياً : العبودية الحقة لله سبيل إلى الحرية الحقيقية ، إن العبودية الخالصة لله جل جلاله هي عين الحرية ، وسبيل السيادة الحقيقية ، فهي وحدها تعتق القلب من رق المخلوقين، وتحرره من الذل والخضوع لكل ما سوى الله من أنواع الآلة والطواغيت التي تستعبد الناس وتسترقهم أشد ما يكون الاسترقاق والاستعباد ، ذلك أن في قلب الإنسان حاجة ذاتية إلى رب، إلى إله ، إلى معبود يتعلق به ، ويسعى إليه ، ويعمل على رضاه ، ويلتجئ إليه ، ويلوذ بحماه، لأن الإنسان خلق ضعيفاً ، ليفتقر في ضعفه فيسعد في افتقاره ، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته ، فشقي في استغنائه ، فإذا لم يكن هذا المعبود هو الله الواحد الأحد تخبط في عبادة آلهة شتى وأرباب أخر



مما يرى ومما لا يرى ، ممن يعقل ومما لا يعقل ، مما هو موجود وما ليس بموجود إلا في الوهم والخيال ، يقول أحد العلماء : كل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره ، يسترقه ويذله ، ولن ينجو القلب من استعباد المخلوقين واسترقاقهم إلا أن يكون الله خالق السماوات والأرض ورب العالمين هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا يكره إلا ما يبغضه ويحرمه ، ولا يوالي إلا من يواليه ، ولا يعادي إلا من يعاديه ، ولا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله ، ولا يعطي إلا لله ، ولا يمنع إلا لله ، وكلما قوي إخلاصه لله كملت عبوديته له ، واستغناؤه عن خلقه ، وبكمال عبوديته لله تكمل براءته من الكبر والشرك .

3ـ العبادة ابتلاء إلهي :

ثالثاً : من أهداف العبادَة العبادة ابتلاء إلهي ، فالحياة الدنيا التي نحياها طالت أو قصرت ليست هي الغاية ، ولا إليها المنتهى ، إنها حياة دنيا فانية ، جعلها الله إعداداً لحياة عليا باقية ، وشاءت حكمة الله جل جلاله أن يركب في الإنسان عناصر مزدوجة ، بعضها يسمو به ، وبعضها يهوي به ، ففيه العقل والإرادة ، وفيه الغريزة والشهوة ، والحظوظ التي منحه الله إياها كالمال ، والجمال ، والقوة ، والذكاء حيادية ، يمكن أن يجعلها الإنسان سلماً يرقى بها ، ويمكن أن يجعلها دركاتٍ يهوي بها ، تسعده أو تشقيه ، تكون سبباً لدخوله الجنة أو سبباً لدخوله النار ، لقد أودعت فيه ، ومنح نعمة العقل والإرادة ، ثم رُسِم له منهجٌ من عند خالقه كُلف أن يسير عليه ، وأن يطبق تفاصيله ، فإما أن يُحَكِّم عقله ، ويستعمل إرادته ، فيطبق منهج ربه ، فيسعد في الدنيا والآخرة ، وإما أن يحكم غريزته ، ويستجيب لشهوته ، فيعرض عن منهج ربه ، فيشقى في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾

(سورة الكهف)

وقال :

إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا

(سورة الإنسان)



4ـ العبادة حق الله على عباده :

رابعاً : العبادة حق الله على عباده ، روى البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل قال:
((كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً)) .

[رواه البخاري عن معاذ بن جبل]

وقد ورد في الأثر القدسي :

((إني والأنسَ والجنَّ في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي)) .

[رواه البيهقي والحكيم والترمذي عن أبي الدرداء]

ليس بمستَنكَرٍ أن يكون لله علينا حق عبادته وحده ، بل المستنكر أن يكون غير هذا ، المستنكر أن نعبد ما دون الله ، أو من دون الله فنؤدي الحق لغير أهله ، إننا لم نكن شيئاً مذكوراً ، خرجنا من ظلمة العدم إلى نور الوجود ، ثم كنا نوعاً مكرماً من الخليقة ، خُلقنا في أحسن تقويم ، وصورنا في أحسن صورة ، علمنا البيان ، أوتينا العقل والإرادة ، سخرت الكائنات لخدمتنا ، فالعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أنواع النعم ، كنعمة الحياة والرزق والهداية ، وأقل القليل من العبادة أكبر من أن يستحقه أي مخلوق كائناً من كان ، لذلك لا يستحق العباد ة إلا الله ، العبادة حق الله على عباده .

5ـ العبادة طلب للجنة ونجاة من النار :

خامساً : العبادة طلب للجنة ونجاة من النار ، لا يضير العابد ولا يقلل من قيمة عبادته أن تكون عبادته طلباً لثوابه ، وخوفاً من عقابه ، طلباً لجنته ، وهرباً من ناره ، لقد وصف الله تعالى صفوته من خلقه ، وصف الأنبياء والرسل والصديقين والصالحين بأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ولو لم يكن هذا مطلوباً لما وصف الله الجنة للعباد ، وزينها لهم ، وأخبرهم عن تفاصيل لا تصل إليها عقولهم منها ، ولما وصف لهم النار وخوفهم منها ، وأخبرهم عن تفاصيل لا تصل إليه عقولهم منها ، والحقيقة أن الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار ، والفواكه ، والثمار ، والطعام ، والشراب ، والحور العين ، والأنهار ، والقصور ، بل هي اسم لدار النعيم المطلق الكامل ، ومن أعظم نعيم الجنة النظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه ، وقرة العين بالقرب منه



وبرضوانه ، فأيسر اليسير من رضوانه ، والنظر إلى وجهه الكريم أكبر من الجنان وما فيها ، قال تعالى :

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾

(سورة القيامة)

وقال :

وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ

(سورة التوبة)

هذا ما ورد في القرآن الكريم .

6ـ عبادة المؤمن لربه نوع من الأخلاق :

سادساً : عبادة المؤمن لربه نوع من الأخلاق ، لأنها من باب الوفاء لله عز وجل والشكر لنعمه ، والاعتراف بالجميل والتوقير لمن هو أهل للتوقير والتعظيم ، وكلها من مكارم الأخلاق عند الفضلاء من الناس ، لذلك نجد القرآن الكريم يعقب على أوصاف المؤمنين القانتين المطيعين بقوله :

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

(سورة البقرة) .

وقال :

أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾

(سورة الحجرات)

وقال :

وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾

(سورة النجم)



لأن أعلى مراتب الصدق أن يكون الإنسان صادقاً مع الله ، شاكراً لأنعمه ، وفياً له بخدمة خلقه ، أخلاق المؤمن لون من عبادته لربه ، أخلاقه أخلاق ربانية ، باعثها الإيمان بالله ، وحاديها الرجاء في جنته ، وغرضها رضوان الله ومثوبته ، فهو يصدق الحديث ، ويؤدي الأمانة ، ويفي بالعهد ، وينجز الوعد ، ويغيث اللهفان ، ويعين الضعيف ، ويرحم الصغير ، ويوقر الكبير ، ويصبر في البأساء والضراء وحين البأس .

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾

(سورة الإنسان)

أخلاق المؤمن عبادة من زاوية أخرى ، وهو أن مقياسه في الفضيلة والرذيلة هو أمر الله ونهيه ، فالضمير وحده ليس بمعصوم ، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال ، والعقل وحده ليس بمأمون ، لأنه محدود بالبيئة والظروف ومتأثر بالأهواء والنزعات ، والعرف وحده لا ثبات له ولا عموم ، لأنه يتغير من جيل إلى جيل ، وفي الجيل الواحد ، ومن بلد إلى بلد ، وفي البلد الواحد ، من إقليم إلى إقليم ، لذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون ، الذي لا يضل ولا ينسى ، ولا يتأثر ولا يجور ، ذلك هو حكم الله ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

7ـ العبادة هي السبب الوحيد لمكارم الأخلاق التي لا تنبع من المصالح ولا تتأثر بها :

سابعاً : العبادة هي الأداة الوحيدة لتربية الضمير ، أو هي السبب الوحيد لمكارم الأخلاق الأصيلة التي لا تنبع من المصالح ولا تتأثر بها ، فالله جل جلاله أهل الخير والحق والجمال ، والإنسان من خلال عبادته واتصاله بربه يشتق من مكارم الأخلاق ما يتناسب مع حجم استقامته ، وعمله الصالح ، وإخلاصه ، وصدقه ، فأشد البشر اتصالاً بربه أعلاهم خلقاً:

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)

أعلاهم خلقاً ومنزلةً .

فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(سورة الحجر)



لذلك ممكن أن يقوم الإنسان فلا يُجعل لعبادته وزنٌ في تقويمه وتقديره ، وهذا ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم وتنبأ به حينما قال :

((يأتي على الناس زمان يقال للرجل فيه ما أظرفه ما أعقله ما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة من إيمان)) .

[رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه]

صورة تفصيلية للشخصية المؤمنة :

إننا نقرأ القرآن الكريم فنجد صورةً تفصيلية للشخصية المؤمنة :

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾
ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾

(سورة المؤمنون)

انظر أيها الأخ الكريم كيف جعل الله أول أوصاف المؤمنين الخشوع في الصلاة ، وآخر أوصافهم المحافظة عليها ، وصفهم بفعل الزكاة ، وهي عبادة مع الفضائل الخلقية الأخرى ، إعراضهم عن اللغو ، عفتهم ، حفظهم للأمانة ، رعايتهم للعهد .



خصائص العبادة وشروطها :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، بعد أن انتهينا من أهداف العبادة الكبرى وغاياتها ننتقل إلى خصائصها وشروطها .

1ــ لا يُعبد إلا الله وحده :

أولاً : لا يعبد إلا الله وحده ، إن توحيد الله وعبادته هي مضمون الرسالات السماوية كلها ، قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

بل إن سر الإسلام على سعة تعاليمه يتجلى في دستوره الخالد ، الذي هو القرآن الكريم ، وسر هذا الدستور يتركز في فاتحته أم القرآن الكريم ، والسبع المثاني ، وسر هذه الفاتحة يتلخص في هذه الكريمة :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفاتحة)

أي لا نعبد أحداً غيرك ، ولا نستعين بكائنٍ سواك ، فالعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم ، لذلك يعد الشرك هواناً لا يليق بكرامة الإنسان ، وأي هوان يصيب الإنسان حينما يعبد ما سخر له ، من حجر ، ومدر ، وشمس ، وقمر ، وجن ، وبشر ، كيف يسجد الإنسان لها وهي له مسخرة وفي مصلحته وخدمته مذللة ؟ كيف يسجد لها وقد سجد له الملائكة بأمر الله تحية له واحتفاءً به ؟ وقد سد الإسلام كل ذريعة تفضي إلى الشرك فقد روى أحمد والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم :

((**ما شاء الله وشئت فقال عليه الصلاة والسلام : أجعلتني لله نداً قل ما شاء الله وحده**)).

[أحمد والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما]



وروى الطبراني أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم : ((**قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله جل جلاله**)) .

[رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث]

2ــ لا وسطاء بين الله وخلقه :

ثانياً : لا وسطاء بين الله وخلقه ، بالمعاني المستنبطة من الممارسات الخاطئة اعتقاد المسلم في الله يقوم على حقيقتين : أنه تعالى فوق عباده علواً ، وقهراً ، وسلطاناً ، وتصرفاً ، لا يشبهه شيء ، ولا يحكم عليه شيء ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، والخلق جميعاً عبيد في قبضته ، لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، وهو مع عظمته وعلو شأنه قريب من خلقه ، بل هو معهم أينما كانوا ، في جلوتهم ، وفي خلوتهم ، يسمع ، ويرى ، ويرعى ، ويهدي ، ويعطي من سأله ، ويجيب من دعاه ، هو تعالى قريب في علوه ، عليٌّ في دنوه ، قد جمع الله تعالى بين العظمة والعلو ، وبين القرب والدنو في آية واحدة ، قال تعالى :

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

(سورة سبأ)

والله أجل وأعلى من أن يكون له وسطاء بينه وبين خلقه ، يعلمونه من أمر الناس ما لم يكن يعلم ، ويوجهون إرادته إلى ما لم يكن يريد ، وهو سبحانه وتعالى أكرم وأجل من أن يدع رحمته وجنته بأيدي أناس يوزعونها بالأسهم والقراريط ، فله وحده الخلق والأمر ، وله وحده الملك ، وله وحده العقوبة والعفو ، وهو على كل شيء قدير .

3ــ العبادة المقبولة عند الله تعالى تصاحبها النية الصادقة ويسري فيها روح الإخلاص :

ثالثاً : العبادة المقبولة عند الله تعالى ليست هي الشبع الخالي من الروح ، إنما تصاحبها النية الصادقة ، ويسري فيها روح الإخلاص سريان العصارة في الشجرة النضرة ، فتؤتي في الن فس أكلها ، وتثمر في الخلق والسلوك ثمرتها ، روى الطبراني بإسناد صحيح عن أحد الصحابة قال :



كان فينا رجل خطب امرأةً يقال لها أم قيس ، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر إلى المدينة ، فهاجر إلى المدينة وتزوجها ، فكنا نسميه مهاجر أم قيس ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَ ا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**)) .

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب]

قال الحافظ في الفتح : " قد تواتر النقل عند الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث ، فليس في أخبار النبي صلى الله عليه وسلم شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدةً من هذا الحديث " ، واتفق الشافعي وابن حنبل وأبو داود والترمذي على أنه ثلث الإسلام ، وقال الشافعي : "يدخل هذا الحديث في ستين باباً من أبواب العلم" .

اللهم إنا نعوذ بك أن نقول قولاً فيه رضاك نلتمس به أحداً سواك .

4ـ لا بد أن تكون عبادة الله بالصورة التي شرعها الله وبالطريقة التي ارتضاها :

رابعاً : لا يكفي أن يقصد المسلم بعبادته وجه الله وحده وألاّ يتجه إلى أحد غيره ، بل لا بد أ ن تكون عبادة الله بالصورة التي شرعها الله وبالطريقة التي ارتضاها ، قال تعالى :

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

(سورة الكهف)

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : "اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً " .

قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، قال : أخلصه وأصوبه ، قيل : يا أبا علي ما أخلصه وما أصوبه ؟ قال : " إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لا يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لا يقبل " ، والخالص ما ابتغي به وجه الله ، والصو اب ما وافق السنة ، وجماع الدين أصلان ؛ ألاّ نعبد إلا الله ، وألاّ نعبده إلا بما شرع .



فقد ورد في الصحيحين :

((من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد ، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) .

[متفق عليه من حديث عائشة]

الله وحده هو المشرع ، والنبي وحده هو المبلغ ونحن المتبعون ، وفي الإتباع الخير كله ، قال تعالى :

فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(سورة طه)

في أول خطبة خطبها سيدنا الصديق رضي الله عنه قال : " إنما أنا متبع ولست بمبتدع " .

الابتداع في الدين :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، إن الابتداع في الدين هو الكوة التي تسلل منها الشيطان إلى عامة المتدينين ، أفسد عليهم دينهم وحياتهم ، وخرب عليهم عقائدهم وعباداتهم ، وفتح عليهم أبواباً من الفساد لم يستطيعوا بعد ذلك إغلاقها ، فعن طريق الابتداع زحف الشرك ودخلت الوثنية على أمم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وعبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، قائلين : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وعن طريق الابتداع جاء الغلو في الدين ، والتنطع فيه ، ودخل الحرج ، والعنت ، والأغلال على أتباعه ، واخترع النا س ألواناً شتى من العبادات ، كلها عنت وإرهاق ، وعن طريق الابتداع حرم الغلاة ما أحل الله من الزينة والطيبات ، وأهملوا الدنيا باسم الدين ، وخربوا العمران بدعوى الإيمان ، وعذبوا الأجساد بدعوى تصفية الأرواح ، وعن طريق الابتداع في الدين حدثت التحريفات الهائلة والانحرافات الشنيعة ، وقع فيها رجال ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، إن مجال الابتداع والابتكار ليس هو الدين ، الدين توقيف من الله يجب أن يبقى مصوناً منزهاً عن عبث العابثين ، وتحريف ا لغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أما مجال الابتداع الحقيقي ، والابتكار ، والتحديث ، والتجديد فهو الدنيا وشؤونها، وما أحوج المسلمين إلى تطوير دنياهم ، وتنويع سبل رزقهم ، وتنمية دخولهم ، واستغلال ثرواتهم التي أودعها الله في أرضهم ، وتصنيعها بأيديهم ، ما أحوجهم إلى أن يأكلوا مما يزرعون ، وأن يلبسوا



مما ينسجون ، وأن يستخدموا من الآلات ما كان من اختراع عقولهم وصنع أيديهم ليتحرروا من تحكم الآخرين بهم .

مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ببلدة من رعاياه فوجد فيها أن الفعاليات المعيشية ليست بأيدي أبناء هذه البلدة ، فوبخهم ، وعنفهم ، وقال لهم : كيف بكم وقد أصبحتم عبيداً عندهم . لقد أدرك هذا الخليفة الراشد ببعد نظره أن المنتج هو القوي ، وأن المستهلك هو الضعيف ، وأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف ، وقد أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد ابن مسعود وكانت خشنة من العمل ، رفعها أمام أصحابه وقال :

((**إن هذه اليد يحبها الله ورسوله**)) .

[ورد في الأثر]

* * *

مخالفة تعليمات الصانع :

أيها الأخوة الكرام حضوراً ومستمعين ، الجهة الصانعة هي وحدها ينبغي أن تتبع تعليماتها في استعمال الآلة وصيانتها ، وفي تحسين مردودها ، لأنها الخبيرة بما تصنع ، ولا ينبئك مثل خبير ، والعبادة في جوهرها انقياد طوعي ، واتباعٍ تفصيلي لمنهج الله خالق الناس، ورب الناس ، وإله الناس ، وهذا المنهج منهج الله عز وجل مرتبط أشد الارتباط بسنن الخلق، وقوانين الكون ، فالعلاقة بين الأمر الإلهي ونتائجه ، وبين النهي ونتائجه علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، من بنود هذا المنهج أن الله جل جلاله حرم تحريماً مطلقاً تناول لحم الميتة والدم ، فلما أُطعِم البقرُ في بلاد أخرى الدماءَ ولحومَ الجيفِ مسحوقةً ومجففة أصيبت بمرض خطير في دماغها اسمه الاعتلال الدماغي الإسفنجي ، من أبرز أعراضه عدم التحكم العصبي ، والسلوك العدواني ، لذلك سمي هذا المرض اختصاراً بجنون البقر ، والأخطر من هذا أن هناك احتمالاً كبيراً انطلق من حالات عدة يعكف الباحثون على دراستها بغية التحقق من انتقال المرض من البقر إلى البشر عن طريق تناول اللحوم المصابة ، ودهونها ، وشحومها ، ومسحوق عظامها ، ومنتجاتها ، وألبانها ، وأحشائها ، ومخلفاتها ، والأعلاف المصنوعة منها ، ومواد التجميل المحضرة من دهونها ، ومن أبرز أعراض هذا المرض في



بني البشر قلق ، واكتئاب ، وفقدان للذاكرة ، وفقْد التناسق العضلي ، وفقد التوازن الحركي ، والعمى ، وفقد النطق ، ثم الوفاة بعد عام من ظهور الأعراض .

العوامل المسببة لمرض جنون البقر :

العوامل المسببة للمرض بالغة الصغر لم تعرف حتى الآن ، ذات دور حضانة طويل ، يمتد إلى عدة سنوات ، وليس له مظهر التهابي مناعي ، هذه المسببات تتحمل حرارة تصل إلى مئة وعشرين درجة مئوية لمدة ساعة كاملة ، هم في تلك البلاد مضطرون لإحراق أحد عشر مليون بقرة قيمتها ثلاث وثلاثون ملياراً من عملتهم .

لقد صممت البقرة لتأكل علفاً نباتياً ، فلما أطعموها ما حرم الله تناوله ميتة ودماً أصيبت بالجنون ، وما جنون البقر إلا من جنون البشر ، حيث خالفوا تعليمات الصانع ، قال تعالى ــ دققوا في هذه الآية ــ :

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

(سورة يس)

إنهم يغيرون خلق الله ، والأولى أن يتبعوا العليم الخبير ، قال تعالى :

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

اتخذ ــ ولله الحمد ــ بلدنا الطيب احتياطات بالغة لتمنع وصول هذه المشكلة إلينا.



2 - الفطرة

الله عز وجل زكى نبينا محمد في القرآن الكريم في عدة آيات :

يا سيدي يا رسول الله ، نحن في ذكرى مولدك نقول لقد زكى الله عقلك ، فقال :

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾

(سورة النجم) .

وزكى لسانك فقال :

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾

(سورة النجم) .

وزكى شرعك فقال :

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

(سورة النجم) .

وزكى جليسك فقال :

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾

(سورة النجم) .

وزكى فؤادك فقال :

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾

(سورة النجم) .



وزكى بصرك فقال :

مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾

(سورة النجم) .

وزكاك كلك فقال :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم) .

النفس الإنسانية منذ تكوينها أُلهمت في فطرتها إدراك طريق فجورها وطريق تقواها :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، موضوع خطبة اليوم الفطرة التي فطر الناس عليها .

لقد أودع الله في مدارك الأفكار ، وفي مشاعر الوجدان ما تدرك به فضائل الأخلاق ورذائلها ، وهذا ما يجعل الناس يشعرون بقبح العمل القبيح ، وينفرون منه ، ويشعرون بحسن العمل الحسن ، ويرتاحون إليه ، وبذلك يمدحون فاعل الخير ويذمون فاعل الشر ، لقد أرشدت النصوص الإسلامية إلى وجود الحس الأخلاقي في الضمائر الإنسانية ، وأحالت المسلم المؤمن إلى استفتاء قلبه في الحكم على أي سلوك قد تميل النفس إليه ، قال تعالى :

﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

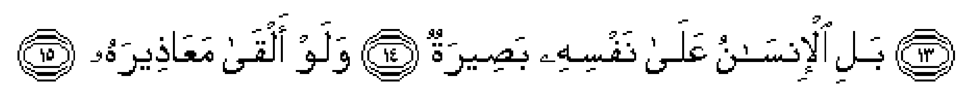
(سورة الشمس) .

فالنفس الإنسانية منذ تكوينها وتسويتها أُلهمت في فطرتها إدراك طريق فجورها ، وطريق تقواها ، وهذا هو الحس الفطري الذي تدرك به الخير من الشر .

الإنسان لديه بصيرة يستطيع أن يحاسب بها نفسه محاسبةً أخلاقيةً على أعماله ومقاصده ، ولو حاول في الجدل اللساني الدفاع عن نفسه وإلقاء معاذيره على غيره ،



قال تعالى :



(سورة القيامة) .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

((البرُ حـــسن الخـــلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس))

[مسلم عن النواس بن سمعان]

هذا الحديث يدل على أن في النفس الإنسانية حساً خلقياً بالإثم ، لذلك يكره فاعل الإثم أن يطلعَ عليه الناس ، لأنه يعلم أنهم يشعرون بمثل ما يشعر ، وذلك بحسٍ أخلاقي موجودٍ في أعماق النفس ، هذا الحس هو ما أسماه الباحثون الأخلاقيون بالضمير ، روى الإمام أحمد والدارمي بإسنادٍ حسن عن وابصة بن معبد قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

((جِئتَ تسأل عن البر ؟ قلت : نعم ، قال عليه الصلاة والسلام : استفت قلبك ، البر ما طمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك)) .

[أحمد عن وابصة بن معبد] .

في هذا الحديث الشريف أيها الأخوة الكرام تبيانٌ واضحُ للحس الأخلاقي ، وليس هناك ما يمنع بالضمير الأخلاقي ، هذا الضمير إذا كان نقياً صافياً سليماً من العلل والأمراض فإنه يستطيع أن يحس بفضائل الأخلاق ومحاسن السلوك ، وأن يحس برذائل الأخلاق ومساوئ السلوك ، وأن يميز بين الصنفين .

الطمأنينة علامة البر والتردد والاضطراب وخوف إطلاع الناس علامة الإثم :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، البر المفسر في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه حسن الخلق ، يفعله الإنسان السوي ، وهو مطمئن القلب ، مطمئن النفس ، أما الإثم فإن الإنسان السوي لا يقدم عليه إلا وفي نفسه قلق منه ، وفي صدره تردد واضطراب ، فالطمأنينة علامة البر ، والتردد والاضطراب وخوف إطلاع الناس علامة الإثم، ولكن قد يختلط الأمر في بعض الأعمال على العقل والضمير ، ويلتبس عليهما وجه الحق ، فيكونان حينئذ في حاجة إلى



هداية وتبصير ، وقد تطغى الأهواء والشهوات أو العادات والتقاليد ، أو يؤثر فيهما الموجهون المضللون أو الشياطين الموسوسون من الجن والإنس ، وطريقة المسلم في هذه الحالة هي اتقاء الشبهات ، فإذا كان اتقاء الشبهات في جانب الترك لأن الأمر مشتبه بين الحلال والحرام كان الأفضل للمسلم أن يترك العمل المشتبه فيه خشية الوقوع في الحرام ، وإذا كان اتقاء الشبهات في جانب الفعل لأن الأمر مشتبه بين الحلال والواجب كان الأفضل للمسلم أن يأتي بالعمل المشتبه فيه خشية الوقوع في ترك الواجب ، والدليل على هذه الطريقة التي ينبغي للمسلم أن يتبعها ما رواه البخاري ومسلم من عدة طرق عن النعمان بن البشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

((**إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب**)) .

[متفق عليه عن النعمان بن البشير] .

الشبهات :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، هذا الحديث الشريف الصحيح من أحاديث الأصول الجوامع ، وفيه كليات عظيمة تتصل بأمهات السلوك ، وفيه تقسيم ثلاثي للأحكام الشرعية ، فالقسم الأول هو الحلال الصرف البين الواضح الذي لم تخالطه شبهة ، ولا يختلف فيه الناس ، ولا تتأثم منه النفوس ولا تتحرج ، والقسم الثاني الحرام الصرف البين الواضح لا يختلف فيه عقلاء الناس وأصحاء البصيرة ، ولا يفعله فاعل إلا وفي نفسه حرج ، وشعور بالإثم ، وخوف من سوء المصير ، والقسم الثالث المشتبهات ، وسميت بذلك لأن لها شبهاً بالحلال يزيد وينقص ، وشبهاً بالحرام يزيد وينقص ، هي تلتبس وتختلط على كثير من الناس ، ولكن لا على كل الناس بل العلماء المحققون ، وقد جاءت كلمة الشبهات جمعاً لأنها كثيرة جداً بالنسبة إلى الحلال والحرام ، وجاءت جمعاً لأنها متفاوتة في قربها من الحلال ، وقربها من الحرام ، والأسلم للمسلم الصادق في استسلامه إلى ربه أن يدع هذه الشبهات استبراءً لدينه عند الله ، وعرضه عند الناس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :



((دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك)) .

[الترمذي عن الحسن بن علي] .

وعن عطية بن عروة السعدي ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس)) .

[رواه الترمذي عن عطية بن عروة السعدي] .

أخوتي المؤمنين ، لما كان الإنسان مزوداً في أصل كيانه بعقل إذا أعمله متفكراً في خلق السماوات والأرض أوصله إلى الإيمان بالله خالقاً ، ومربياً ، ومسيراً ، وموجوداً ، وواحداً ، وكاملاً .

ولما كان الإنسان مزوداً في أصل فطرته بحسٍ أخلاقي كافٍ لإدراك الخير والشر، والحق والباطل من دون معلم ، ولا موجه ، ولا كتاب منير ، إنه مزود بعقل يدله على الله ، ومزود بفطرة تدله على خطئه ، لذلك بما أنه مزود في أصل كيانه بعقل ، وفي أصل فطرته بضمير كافيين لمعرفة عظمة الله ، ولمعرفة حال نفسه ، يُقال له يوم القيامة عندما يُسلم كتاب عمله في الحياة الدنيا :



(سورة الإسراء) .

أي إنك ستحاسب نفسك لأنك تملك ميزانين ، ميزان العقل وميزان الفطرة .

قواعد هادية للبصيرة الأخلاقية :

فضلاً عن الحس الأخلاقي الذي أودعه الله في الإنسان إدراكاً وشعوراً ، هنالك قواعد هادية للبصيرة الأخلاقية ، نبه عليها النبي صلى الله عليه وسلم ، من هذه القواعد عامل الناس كما تحب منهم أن يعاملوك ، وقد جاء هذا المعنى في حديث طويل رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر وفيه يقول عليه الصلاة والسلام :

((من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتَأتِه مَنِيَتُهُ وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يُؤتى إليه)) .

[مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما]



كلما اشتبه على الإنسان أمر السلوك ، عليه أن يضع نفسه مكان الطرف الآخر ويفترض أن الأمر كان معكوساً ، فالأمر الذي يستحسنه لنفسه من الآخرين مما لا معصية فيه هو الأمر الذي ينبغي أن يفعله معهم ، لذلك على المؤمن أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يكره له ما يكره لنفسه ، روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال :

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)).

[البخاري عن أنس رضي الله عنه] .

ومن هنا يندفع المسلم إلى أن يكون صادقاً مع أخيه لأنه يحب أن يصدقه الناس إذا حدثوه ، ويكره أن يكذبه ، ويندفع المؤمن إلى أن يكون أميناً على مال أخيه وعرضه وشرفه ، لأنه يحب أن يعامله الناس بأمانة على ماله وعرضه وشرفه ، ويكره أن يخونوه بشيء من ذلك ، ويندفع المؤمن إلى مساعدة أخيه ومعاونته في مال ، أو علم ، أو جاه ، أو خدمة ، أو نصيحة ، أو دعوة صالحة ، أو شفاعة حسنة ، لأنه يحب لنفسه مثل ذلك من أخوانه ، ويندفع المؤمن إلى دعوة أخيه إلى الإيمان الصادق والعمل الصالح ، لأنه أحب هذا لنفسه ، وهكذا تجد المسلم مدفوعاً إلى الصبر ، والعفو ، والصفح ، والمسامحة محاولاً جهده ستر العيوب ، وعدم نشرها بين الناس ، بل يبادر إلى نصحهم سراً ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، إنه يفعل ذلك ، لأنه يحب أن يعامل هكذا .

الإيمان أساس الفضائل :

ما الهدف من التزام مكارم الأخلاق التي ترتاح إليها الفطرة ، والتي أمر بها الإسلام أو رغب بفعلها ؟ وما الهدف من اجتناب نقائص الأخلاق والتي تنكرها الفطرة ، والتي نهى عنها الإسلام أو رغب في تركها ؟

الهدف من هذا وذاك هو الفوز بسلامة القلب وسعادته ، ونيل الجزاء المعجل في الدنيا ، والنجاة من العقاب المعجل فيها ، ثم الفوز العظيم بالسعادة المطلقة الأبدية في الآخرة .

لذات الجسد وآلامه أهون اللذات ، والآلام قيمة في حياة الإنسان ، ولكنها تدخل ضمن الوحدات الجزئية التي تمنح الإنسان قسطاً من السعادة ، لكنها كرذاذ سريع الجفاف ، لا يملأ ساحة النفس والقلب والفكر ، وتأتي فوق لذات الجسد لذات النفس الدنيوية وآلامه ، وهي أعمق ، وأشمل ، وأطول ، ثم تأتي فوق لذات النفس الدنيوية سعادة النفس الأخروية ، وهي تتغلغل إلى أعمق أعماق الإنسان ، وتتسع حتى تشمل كل حياته ، وكل نشاطاته ، وكل حركاته وسكناته ، وهي أبدية لا تزول أبداً ، لها بداية مع بداية الإيمان ، وليس لها نهاية ، وهي متنامية دائماً .



قد تطغى لذة النفس على ألم الجسد فلا يشعر الإنسان بألم الجسد ، وقد تطغى سعادة النفس الأخروية على ألم النفس الدنيوي فلا يشعر الإنسان بهذا الألم ، وقد تطغى آلام النفس على لذات الجسد فلا تكون لهذه اللذات أية قيمة .

أيها الأخوة المؤمنون ، مجمل القول أن الإنسان إذا لزم مكارم الأخلاق التي ترتاح إليها الفطرة ، والتي يطمئن إليها القلب يحقق الغاية من وجوده ، ومن سلامة وجوده ، ومن كمال وجوده ، ومن استمرار وجوده ، ذلك لأن في القلب شعثاً لا يلمه إلا الإقبال على الله ، وفي القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله ، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفة الله، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه ، وفي القلب نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه ، وقضائه وقدره ، والصبر على ذلك إلى يوم لقائه ، وفي القلب فاقة لا يسدها إلا محبته ، والإنابة إليه ، ودوام ذكره ، والإخلاص له .

مجمل القول أن الإيمان أساس الفضائل ، ولجام الرذائل ، وقوام الضمائر ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً ، وأن أكملهم إيماناً أحسنهم خلقاً ، وأن من أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً ، وأن خير ما أعطي الإنسان خلق حسن ، وأنه ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وأن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، بل إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الجنة ، والخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل .

محنة المذنب مع نفسه :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، إليكم قصة صحابي جليل ، هو كعب بن مالك ، تخلف عن غزوة تبوك من دون عذر ، كيف كانت محنته مع نفسه ؟ وكيف كان موقفه من رسول الله ؟ ثم كيف انتهت محنته إلى منحة إلهية ؟ وكيف انتهت شدته إلى شدة إلى الله ورسوله ؟ هذه القصة متوافقة مع موضوع الخطبة توافقاً دقيقاً ، خرّج البخاري ومسلم حديث الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك ، فقد نزل فيهم قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ، فقد روى الإمام مسلم عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة قط إلا غزوة تبوك ، ولم أكن حين تخلفت عنه أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت ، لقد غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً ـ أي صحارى ـ واستقبل عدواً كثيراً ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسل م لا يجمعهم كتاب حافظ ، لقد غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار ، وانتشرت



الظلال ، وأنا إليها أميل ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ، ولم أقض شيئاً ، وأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم غدوت ، ورجعت ، ولم أقض شيئاً ، فلم يزل كذلك يتمادى بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل ، وأدركهم ، فيا ليتني فعلت ، ثم لم يقدر لي ذلك ، فطفقت إذا خرج الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو يحزنني أني لا أرى لي أسوة في الناس إلا رجلاً منافقاً ، أو عاجزاً ضعيفاً ، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال عليه الصلاة والسلام وهو جالس في القوم : ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه ، فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغني أن رسول الله قد توجه قافلاً من تبوك حضرني حزني ، فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بما أخرج من سخطه غداً ، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل لي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطل ، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه ، وصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، وصلى فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً ، فقبل عليه الصلاة والسلام منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل إلى الله تعالى سرائرهم ، حتى جئت فلما سلمت تبسم عليه الصلاة والسلام تبسم المغضب ، ثم قال : تعال ، تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك يا كعب ؟ ألم تكن قد ابتعت ظَهراً ــ أي ناقة ــ فقلت : يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر تقبله ، ولقد أُعطيت جدلاً ــ أي فصاحةً وقوةً إقناع ــ ولكنني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه ــ تغضب علي فيه ــ إني لأرجو فيه عقبى الله عز وجل ، والله يا رسول الله ما كان لي عذر أبداً ، ووالله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال عليه الصلاة والسلام ــ قبل من بضعة وثمانين أعذارهم ، واستغفر لهم ، وبايعهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ــ قال عليه الصلاة والسلام بعد قول كعب بن مالك الصادق : أما هذا فقد صدق ــ يعني هؤلاء الذين اعتذروا لم يكونوا صادقين ــ أما هذا فقد صدق ، فقم



حتى يقضيَ الله فيك ، فقمت فقال لي رجال من بني سلمة : والله ما علمنا أنك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لو اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد والله مازالوا يؤنبونني حتى هممت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذبَ نفسي .

قصة المخلفين ورد ذكرها في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الأكارم ، للقصة تتمة مثيرة ، ارجعوا إذا شئتم كتب السيرة ، أو اسألوا أهل الذكر لتتابعوا ماذا حدث بعد ذلك ، لكن الفصل الأخير من هذه القصة ذكره القرآن في سورة التوبة ، قال تعالى :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧)

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٨) ﴾

(سورة التوبة) .

كعب بن مالك أحد هؤلاء الثلاثة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم .

أيها السادة المستمعون أيتها السيدات المستمعات ، نظراً لضيق الوقت أدع لكم أن تربطوا بين أحداث القصة وبين موضوع الخطبة ، وأذكركم بقوله تعالى :

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) ﴾

(سورة القيامة) .



أذكركم بقول النبي صلى الله عليه وسلم :

((**إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة**)) .

[متفق عليه عن عبد الله رضي الله عنه] .

3- الوسطية

الوسطية من أبرز خصائص هذا الدين الحنيف :

من خصائص هذا الدين الحنيف أنه رباني المنهج ، رباني الغاية ، رباني الوجهة، وأن هذا الدين الحنيف إنســاني الطابع ، يشمل كل مكان وكل زمان ، ويصلح لكل مكان وكل زمان ، وأن هذا الدين الحنيف واقعــي ، بمعنى أنه لا يقبل الواقع السيئ ، لكنه يطوره بأدوات واقعية ، وأن هذا الدين الحنيف واضح لا يزيغ عنه إلا ضال ، وأنه يجمع بشكل معجز بين الثبات والتطور ، ومن أبرز خصائص هذا الدين الحنيف الوسطية أو التوازن ، وهو موضوع الخطبة اليوم ، وسيكون تناول هذا الموضوع إن شاء الله تعالى من زاوية معاني الوسطية في الإسلام ، ومن زاوية مظاهرها في العقيدة ، والمنهج، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، والنظم .

الإسلام وسط بين المادية المقيتة والروحية الحالمة :

أيها الأخوة المؤمنون في كل مكان ، من أبرز خصائص هذا الدين القويم الوسطية أو التوازن ، ونعني بالوسطية التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين ، حيث لا ينفرد أحدهما في التأثير ، ويطرد الطرف الآخر ، حيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ، ويطغى على الطرف الآخر ، ويحيف عليه ، فلا إفراط ، ولا تفريط ، ولا غلو ، ولا تقصير ، ولا طغيان ، ولا إخسار ، ولا شطط ، ولا وكس ، بل كلٌ يأخذ حقه بالقسطاس المستقيم ، فالإسلام أيها الأخوة وسط بين المادية المقيتة والروحية الحالمة ، بين الواقعية المرة والمثالية التخيلية ، بين الفردية الطاغية والجماعية الساحقة ، بين الثبات الرتيب والتغير المضطرب ، بين الحاجات الملحة والقيم البعيدة ، بين العقلانية الباردة والعاطفية المتقدة ، بين نوازع الجسد ومتطلبات الروح .



أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، والوسطية في الإسلام تنطلق من قوله تعالى :

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ

(سورة البقرة)

الوسطية شعار مميز للأمة الإسلامية :

يا أيها الأخوة الأكارم ، من حكمة الله تعالى أنه اختار الوسطية أو التوازن شعاراً مميزاً لهذه الأمة ، التي هي آخر الأمم ، ولهذه الرسالة التي ختمت بها الرسالات ، إذ بعث بها خاتم أنبيائه رسولاً للناس جميعاً ، ورحمة للعالمين قاطبةً ، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الوسطية في قوله تعالى :

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ

(سورة البقرة)

فسرها بالعدل ، والعدل هو توسط بين طرفين متنازعين دون ميل أو تحيز لطرف أو لجهة ، والعدل إعطاء كل ذي حقّ حقه دون بخس أو جور ، قال المفسرون في قوله تعالى :

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾

(سورة القلم)

أوسطهم أي أعدلهم ، فأعدل بقاع الشيء وسطه ، ووسط الدائرة مركزها ، ثم استُعير الوسط للخصال البشرية المحمودة ، لأنها وسط بين الخصال المذمومة ، فالشجاعة مثلاً وسط بين الجبن وبين التهور .



الوسطية في الإسلام تعني الخيرية والفضل والتميز في الأمور المادية و المعنوية :

ويا أخوة الإيمان حضوراً ومستمعين ، الوسطية تعني أيضاً استقامة المنهج ، والبعد عن الميل والانحراف ، فالصراط المستقيم هو كما قال أحد المفسرين : الطريق السوي، الواقع وسط الطَّرف المنحرفة عن القصد ، فإذا فرضنا خطوطاً كثيرةً واصلة بين نقطتين متقابلتين ، فالخط ا لمستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية أو المنكسرة ، هو وسطها، وأقصرها إلى الهدف ، والمسلم أيها الأخوة يسأل ربه أن يهديه إلى الصراط المستقيم كل يوم ما لا يقلُّ عن سبع عشرة مرة ، وذلك حينما يقرأ الفاتحة :

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

(سورة الفاتحة)

فالمغضوب عليهم هم الذين أفرطوا ، والضالون هم الذين فرطوا ، المغضوب عليهم هم الذين عرفوا وانحرفوا ، والضالون هم الذين جهلوا فانحرفوا .

والوسطية في الإسلام تعني الخيرية ، والفضل ، والتميز في الأمور المادية و المعنوية ، فأفضل حبات العقد في واسطته ، ورئيس القوم في الوسط والأتباع من حوله ، وفي الأمور المعنوية نجد التوسط خير من التطرف ، ومن حكم العرب : خير الأمور الوسط، وقال أحد الحكماء : الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ الوسط هاهنا الخيار والأجود ، كما يقال : قريش أوسط العرب نسباً ، أي خيرها ، وكان عليه الصلاة والسلام وسطاً في قومه ، أي أشرفهم نسباً ، والصلاة الوسطى أفضل الصلوات .

في الإسلام جانب فكري ، وجانب نفسي ، وجانب سلوكي ، فحينما ينمو جانب من هذه الجوانب نمواً زائداً عن حدّه الطبيعي ، ويكون هذا عادة على حساب الجوانب الأخرى عندئذ يكون التطرف ، أما حينما تنمو الجوانب الثلاثة نمواً طبيعياً متوازناً حيث لا يطغى جانب على جانب عندئذ يكون التفوق ، فنحن نتطلع إلى التفوق لا إلى التطرف .



الوسطية تمثل الأمان والبعد عن الخطر :

أيها الأخوة المؤمنون : الوسطية أيضاً تمثل الأمان والبعد عن الخطر ، فالأطراف عادة تتعرض للخطر والفساد بخلاف الوسط ، فهو محمي محروس بما حوله، والتوسط أمن واستقرار ، والتطرف غلو وانحراف وفساد ، والوسطية تمثل القوة ، فالوسط هو مركز القوة ، أشعة الشمس لا تكون أقوى تأثيراً ــ إضاءة وحرارة ــ إلا وهي في وسط النهار وفي وسط قبة السماء ، ولا يكون الإنسان في أقوى حالاته إلا في شبابه وهو وسط بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة ، والوسطية تمثل نقطة الوحدة ومركز التلاقي ، فعلى حين تتعدد الأطراف تعدداً قد لا يتناهى يبقى الوسط واحداً يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده ، فهو المنتصف وهو المركز ، مركز الدائرة في وسطها ، فيمكن الآيبة من المحيط أن تلتقي عنده ، والفكرة الوسطى يمكن للأفكار المتطرفة أن تلتقي بها في نقطة ما ، إذاً فالتوسط والاعتدال هو طريف الوحدة الفكرية ومركزها ، ولهذا أيها الأخوة تثير الأفكار المتطرفة من الفرقة والخلاف في أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة التي وفق الكتاب والسنة .

مظاهر الوسطية :

1 ــ الإسلام وسط بين اعتقاد الخرافيين واعتقاد الماديين :

هذا عن معان الوسطية في الإسلام فماذا عن مظاهر هذه الوسطية ؟ في العقيدة الإسلام وسط بين اعتقاد الخرافيين الذين يصدقون كل شيء ، ويؤمنون بكل برهان ، وبين الماديين الذين ينكرون كل شيء وراء الحس ، ولا يصغون إلى صوت الفطرة ، ولا إلى نداء العقل ، ولا إلى صراخ المعجزة ، فالإسلام الحق يدعو إلى الإيمان ، والاعتقاد بما قام عليه الدليل القطعي ، والبرهان اليقيني ، ويعد اليقين الحسي ، واليقين الاستدلالي ، واليقين الإخ باري مسالك يقينية للتلقي ، ويرفض كل ما وراء ذلك من الأوهام ،قال تعالى :

وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾

(سورة البقرة)

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ

(سورة المؤمنون)



2ـ الإسلام وسط بين الذين يعدون الكون هو الوجود الحق وبين الذين يعدونه وهماً :

الإسلام وسط بين الذين يعدون الكون هو الوجود الحق ، وما عداه مما لا تراه العين خرافة ، ووهم ، وبين الذين يعدون الكون وهماً لا حقيقة له ، وسراباً يحسبه الظمآن ماء، فالإسلام يعد الكون حقيقة ، ولكنه يعبر من هذه الحقيقة إلى حقيقة أكبر منها ، يعبر من الكون إلى المكون ، ومن الخلق إلى الخالق ، ومن النظام إلى المنظم ، ومن الصور إلى المصور ، ومن التسيير إلى المسير ، ومن التربيـــة إلى المربي ، فالكون حقيقة ينقلنا إلى حقيقة أكبر ، وهي أن لهذا الكون خالقاً ، ومربياً ، ومسيراً ، موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً .

3 ـ الإسلام وسط في نظرته إلى الأنبيـــاء :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، الإسلام وسط في نظرته إلى الأنبيـــاء ، فهم بشر مثلنا يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، ولكثير منهم أزواج ، وذرية ، ولكنهم قمم في معرفة ربهم ، وطاعتهم له ، وإخلاصهم إليه ، اصطفاهم ، وطهرهم، وعصمهم ، وامتن عليهم بالوحي ، وأيدهم بالمعجزات ، هذه نظرة الإسلام إلى الأنبياء .

4 ـ الإسلام وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وبين الذين لا يؤمنون إلا عن طريق الإلهام :

والإسلام وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده أداة لمعرفة حقائق الوجود ، وبين الذين لا يؤمنون إلا عن طريق الإلهام ، أو الأوهام ، ولا يعترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات ، إن الإسلام يقرر أن الدين في الأصل وحي ونقل ، وبما أن أخطر ما في النقل صحته فللعقل مهمتان حيال النقل ، مهمة إثبات صحة النقل ، ومهمة فهم النقل تمهيداً لتطبيقه ، فبالعقل تصل إلى الإيمان بالله يقيناً ، وبالعقل تؤمن بكتابه يقيناً عن طريق إعجازه ، وبالعقل تؤمن برسوله يقيناً عن طريق الكتاب ، وهنا ينتهي دور العقل في البحث ليبدأ دوره في التلقي إثباتاً وفهماً ، فالحقائق التي عجز العقل عن إدراكها لافتقارها إلى آثار تدل عليها يتلقاها العقل عن الوحي دون أن يكون حكماً عليها ، وهذه وسطية الإسلام في منهج التلقي .

5 ـ الإسلام وسط في العبادات التي فرضها أي بين إلغائها وبين الانقطاع لها :

والإسلام وسط في العبادات التي فرضها ، فهو في العبادات الشعائرية بين إلغائها وبين الانقطاع لها ، فالعبادات الشعائرية في الإسلام محدودة ومعقولة ومعللة بمصالح الخلق ، وهي فضلاً عن هذا فهي مرتبطة بالعبادات التعاملية فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لا يعد مصلياً ، ومن لم يدع قول الزور والعمل به لا يعد صائماً ،



ومن حجّ بمال حرام يقال له عند التلبية إذا قال : لبيك اللهم لبيك ، يقال له : لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك ، والإنفاق مع الفسق غير متقبل لقوله تعالى :

قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ



(سورة التوبة) .

وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط ، والخلط هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وترك درهم من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام ، ومن لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عبادته وعمله ، فالإسلام عبادة وعمل ، عبادة متقبلة أساسها عمل صالح ، وعمل صالح ينطلق من عبادة صحيحة .

6 ــ الإسلام وسط بين أن تدير خدك الأيسر لمن ضربك على خدك الأيمن وبين أن تكيل له:

وفي المعاملات الإسلام وسط بين أن تدير خدك الأيسر لمن ضربك على خدك الأيمن، وبين أن تكيل له الصاع عشرة أصوع ، قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

(سورة الشورى)

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ

(سورة الشورى)

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

(سورة النحل)

أخوة الإيمان في كل مكان ، يتضح من هذه الآيات الكريمة أن على المسيء أن يدفع ثمن إساءته ملزماً ، وأن لصاحب الحق أن يعفو عنه مختاراً ، فالعدل قسري ، والعفو والإحسان طوعي .



7 ــ الإسلام وسط بين غلاة المثاليين وبين غلاة الواقعيين :

وفي الأخلاق ، الإسلام وسط بين غلاة المثاليين الذين تصوروا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك ليس غير ، فرسموا له مستوى لم يستطع أن يصل إليه ، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوا أن الإنسان حيوان أو كالحيوان يعيش لشهوة ، ولكن الإسلام ينطلق من أن الإنسان ركب من عقل وشهوة ، فإن قاده عقله إلى معرفة ربه ، وضبط شهوته وفق منهج خالقه سما وسما حتى تجاوز في سموه الملائكة المقربين ، وإن عطل عقله ، أو أساء استخدامه فنسي سرّ وجوده ، وجهل منهج ربه ، وتحكمت به شهواته ونزواته سقط حتى صار أدنى من الحيوان .

8 ــ الإسلام وسط في نظرته إلى الحياة الدنيا :

والإسلام وسط في نظرته إلى الحياة الدنيا ، فهو بين الذين عدّوا الحياة الدنيا هي كل شيء ، وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين ، فعبدوا شهواتهم ومصالحهم المادية ، وبين الذين عدّوا وجودهم في الدنيا شراً فانسحبوا من الحياة ، وحرموا أنفسهم من زينتها المشروعة ، لقد عدّ الإسلام الحياتين الدنيا والآخرة متكاملتين ، فالأولى مطية للثانية ، وقد ورد في الحديث الشريف :

((**ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، حتى يصيب منهما جميعاً**))

[الديلمي وابن عساكر عن أنس]

9 ــ الإسلام وسط بين الروحية و المادية :

أيها الأخوة المؤمنون حضوراً ومستمعين ، والإسلام يحقق توازناً بين الروحية والمادية ، وهو وسط بينهما ، بين الدين والدنيا ، بين القيم والحاجات ، بين الغريزة والعقل ، بين الشهوة وبين المبدأ ، الإنسان كما أراده الله عز وجل ليس الذي ينقطع عن العالم ، وينسحب من الحياة ، ويتفرغ للعبادة ، ويتبتل فلا يعمل ، ويتقشف فلا يتمتع ، ويتبتل فلا يتزوج ، ويتعبد فلا يفتر ، ليله قائم ، ونهاره صائم ، يده من الدنيا صفر ، وحظه من الحياة خبز الشعير ، ولبس المرقع ، ليس هذا هو الإنسان الذي أراده الله ، كما أنه ليس كصاحب الجنتين يفخر على صاحبه منتفخاً بثروته ، مختالاً بجنته قائلاً : أنا أكثر منك مالاً ، وأعز نفراً ، قال تعالى :

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾

(سورة الكهف)

فأرسل الله على جنته حسباناً من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً ، وأصبح ماؤها غوراً ، وليس كقارون الذي آتاه الله من الكنوز ما إن فاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، فبغى على قومه ،



واغتر بماله ، وعزا الفضل إلى نفسه ، وقال : إنما أوتيته على علم عندي ، فخسف الله به وبداره الأرض ، الإنسان الحق ليس هذا ولا ذاك .

الإنسان في نظر الإسلام مخلوق مزدوج الطبيعة :

الإنسان في نظر الإسلام مخلوق مزدوج الطبيعة ، يقوم كيانه على قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، قال تعالى:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾

(سورة ص)

الإنسان بعنصره الطيني المادي قادر على أن يسعى في الأرض ، وعلى أن يعمرها ، على أن يكتشف ما أودع الله فيها من كنوز ونعم ، وعلى أن يسخر قواها لمنفعته، والنهوض بمهمته ، وهو بعنصره الروحي مهيأ للتحليق في أفق أعلى ، والتطلع إلى عالم أرقى ، والسعي إلى حياة هي خير وأبقى ، وبهذا يسخر المسلم المادة ، ولا تسخره ، ويستخدم ما على الأرض من ثروات وخيرات دون أن تستخدمه ، ودون أن تستعبده ،

وهذا ما يؤكده البيان الإلهي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

(سورة المائدة)

قال تعالى :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾



(سورة الملك)

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الجمعة)

النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرص على الوسطية والتوازن بين الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة الأكارم حضوراً ومستمعين ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على الوسطية والتوازن بين الدنيا والآخرة ، وكان يتمثل الدعاء القرآني :

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾

(سورة البقرة)

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول :

((**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمــــــري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر**)) .

[مسلم عن أبي هريرة]

كان صلى الله عليه وسلم يأكل من طيبات الحياة الدنيا ، ولم يحرمها على نفسه ، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه ، ولا محور تفكيره ، وكان من دعائه :

((**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**)) .

وكان صلى الله عليه وسلم حينما يرى من بعض أصحابه إفراطاً في التعبد ، والصيام ، والقيام على حساب الجسم والأهل والعمل يقول له :

((**إنَّ لربِّكَ عليك حقًا ، وإنَّ لِنَفسكَ عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقّا ، فأعْطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ** ›)) .

[البخاري عن سلمان]



وكان عليه الصلاة والسلام يقول :

((أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء هذه سنتي فمن رغب عن سنتي فليس من أمتي)) .

[البخاري عن عائشة]

وكان عليه الصلاة والسلام يحذر أصحابه من أن تفتنهم الدنيا فيقول :

((والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكـــم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)) .

[ابن ماجه عن الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ]

الإسلام تتوازن فيه حرية الفرد ومصلحة الجماعة وتتكافأ فيه الحقوق والواجبات :

أيها الأخوة الكرام ، هنا محل الإشارة إلى أن برّ الوالدين من خلال الأحاديث النبوية العديدة يعدل الجهاد في سبيل الله ، وأن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله ، وأن حسن تربية الأولاد ، ولاسيما البنات منهم طريق إلى الجنة ، وهو العمل الذي لا ينقطع عند موت صاحبه ، بل إن العمل الذي يرتزق منه المسلم إذا كان في الأصل مشروعاً ، وسلك فيه الطرق والأساليب المشروعة ، وأراد منه المسلم كفاية نفسه ، وأهله، وخدمة المسلمين ، ولم يشغله عن فرض ديني ، أو واجب ، أو طاعة ، أو طلب علم ، أصبح عمل المسلم أو حرفته نوعاً من أنواع العبادة يتقرب بها إلى الله تعالى .

فبالإسلام تلتقي الفردية والجماعية في صورة متزنة رائعة ، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة ، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات ، وتتوزع فيها المغانم والتبعات بالقسطاس المستقيم ، إن المشرع في الإسلام هو خالق الإنسان ، فمن المستحيل أن يشرع الخالق الحكيم من الأحكام والنظم ما يعطل فطرة الإنسان ، أو يصادمها ، وقد خلق الله الإنسان على طبيعة مزدوجة فردية واجتماعية في آن واحد ، فالفردية جزء أصيل في كيان الإنسان ، ولهذا يحب الإنسان وجوده ، وسلامة وجوده ، وكمال وجوده ، واستمرار وجوده ، ومع ذلك نرى فيه نزعة فطرية إلى الاجتماع بغيره ، لذلك تضطرب نفسه ، ويختل توازنه لو عزل نفسه عن المجتمع ، أو عزل مقهوراً بالحبس الانفرادي ، والنظام الأكمل لهذا الإنسان هو الذي يرعى فيه هذين الجانبين الفردية والجماعية ، فلا يطغى أحدهما على الآخر ، لذلك فلا عجب أن يكون الإسلام ، وهو دين الفطرة نظاماً وسطاً عدلاً ، فلا يجور على الفرد لحساب المجتمع ، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد ، ولا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له ، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تلقى عليه ، وإنما يكلفه من الواجبات في حدود وسعه من دون حرج.



الإسلام يحفظ للإنسان كرامته و يصون له إنسانيته :

والإسلام بوسطيته يقرر للإنسان من الحقوق ما يكافئ واجباته ، ويلبي حاجاته ، ويحفظ له كرامته ، ويصون له إنسانيته ، لهذا ومراعاة للجانب الفردي في الإنسان قرر الإسلام حرمة الدم ، فحفظ للفرد حق الحياة ، وأعلن القرآن أنه :

مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ
فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا

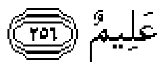
(سورة المائدة)

لذلك أوجبت الشريعة القصاص في القتل ، وأكدت أن في القصاص حياةً للفرد والمجتمع .

الإسلام يحفظ للإنسان :

1 ـ حرية الاعتقاد :

قرر الإسلام حرية الاعتقاد ، فلا يجوز أن يكره الإنسان على ترك دينه ، واعتناق دين آخر ، قال تعالى :

إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ
وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ 

(سورة البقرة)



2 ــ حرمة العِرض :

وقرر الإسلام حرمة العرض ، أي سمعة الإنسان ، فصان للفرد حق الكرامة فلا يجوز أن يهان في حضرته ، ولا أن يؤذى في غيبته ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

(سورة الحجرات)

﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ

(سورة الحجرات)

3 ــ حرمة المال :

وأكد الإسلام حرمة المال ، فصان للفرد حق التملك ، فلا يجوز أخذ ماله إلا بطيب نفس منه ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ

(سورة النساء)



4 ــ حرمة البيت :

وأكد الإسلام حرمة البيت ، فصان بذلك للفرد حق الاستقلال الشخصي ، فلا يجوز لأحد أن يقتحم عليه بيته بغير إذنه ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧

(سورة النور)

5 ــ حرية النقد البنّاء المخلص :

وأكد الإسلام حرية النقد البناء المخلص ، قال تعلى :

وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤

(سورة آل عمران)

6 ــ المسؤولية الفردية التي هي ثمرة التكليف وحرية الكسب :

وأكد الإسلام المسؤولية الفردية التي هي ثمرة التكليف ، وحرية الكسب ، وحتمية الجزاء ، قال تعالى :

كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨

(سورة المدثر)

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ

(سورة الهقرة)



وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(سورة فاطر)

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾

(سورة الحجر)

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

(سورة البقرة)

حقّ الجماعة أولى بالتقديم في المجتمع الإسلامي :

أيها الأخوة الكرام ، ثم إن الإسلام مراعاة للجانب الاجتماعي للإنسان ، فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئ حقوقه عليه ، وقيد هذه الحقوق والحريات والفردية بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة ، وألاّ يكون فيها مضرة للغير ، وليس للفرد في مجتمع المسلمين أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ، ويضرها ، كما أن حق الفرد إذا تعارض مع حقوق الجماعة ، فإن حق الجماعة أولى بالتقديم.

* * *



الوسطية في الآفاق :

أيها الأخوة المؤمنون حضوراً ومستمعين ، بما أن هذا الدين بأصليه القرآن والسنة أمر الله التكليفي ، وبما أن هذا الكون بسماواته وأرضه أمر الله التكويني ، وبما أن الله واحد في خلقه ، واحد في أمره ، فلا بد أن نرى الوسطية والتوازن في خلقه ، كما نراها في أمره ، فأين هي الوسطية في خلقه ؟

من ملامح الوسطية أو التوازن في الكون أن الكواكب والنجوم والمجرات كلها تتحرك في مسارات مغلقة حول بعضها ، وقد لخص القرآن الكريم هذه الحقيقة بشكل معجز ، قال تعالى :



(سورة الطارق)

أي أن كل متحرك في السماء ، أي في الكون يرجع بعد حين إلى مكان انطلاقه النسبي ، وينشأ من حركة كل نجم حول نجم آخر قوة نابذة تكافئ قوة جذب النجم المركزي ، فلولا هذه القوة النابذة الناشئة عن الحركة المغلقة لعملت قوى التجاذب وحدها ، فجمعت الكون كله في كتلة واحدة ، قوى التجاذب تتوازن مع قوى النبذ ، فالكون على حاله الراهن ، بما أن مسار الأرض حول الشمس بيضوي الشكل فحينما تقترب الأرض من الشمس تزداد سرعتها لئلا تنجذب إلى الشمس ، لتنشأ قوة نابذة جديدة تكافئ القوة الجاذبة الجديدة ، وحينما تبتعد الأرض عن الشمس تتباطأ سرعتها لئلا تتفلت من جاذبيتها ، أرأيتم إلى هذا التوازن بين قوى الجذب وقوى النبذ ؟ ولو أن الأرض ازدادت ، أو تباطأت سرعتها فجأة لانهدم كل ما عليها ، ولكن تسارعها بطيء ، وكذلك تباطؤها ، وهذا يدل على علم الله ، وعلى حكمة الله ، وعلى رحمة الله ، وعلى لطف الله .

الوسطية في الأنفس :

أيها الأخوة الكرام ، هذه الوسطية أو التوازن في الآفاق ، فماذا عن الوسطية أو التوازن في الأنفس ؟ من الثابت أيها الأخوة أن دم الإنسان إذا زادت ميوعته نزف كله من جرح صغير ، وعندها يموت ، ولو زادت لزوجته عن الحد المعقول تجمد في العروق كالوحل في الطرقات ، فإذا وصلت خثرة منه إلى القلب أو الدماغ قضى الإنسان نحبه ، لذلك يفرز الجسم هرموناً يميع



الدم وهرموناً آخر يجلطه ، ومن التوازن الدقيق بين إفراز الهرمونين يحافظ الدم على مستوى من السيولة تسمح له بالحركة عبر الأوعية الدقيقة ، ويحافظ الدم على مستوى من اللزوجة تمنع نزيفه من أدق الجروح .

أرأيتم إلى هذا التوازن بين هرمون التميع وهرمون التجلط ؟

ومن الثابت أيضاً أن الغدة النخامية (ملكة الغدد الصماء) ، وأن من مفرزاتها ما يحث الغدة الدرقية المسؤولة عن الاستقلاب (أي تحويل الغذاء إلى طاقة) ، وأن من مفرزات الغدة الدرقية ما يثبط الغدة النخامية ، وأنه من خلال التأثير المتبادل بين الغدتين يستقيم التوا زن بين حاجة الإنسان إلى الغذاء ، وحاجته إلى الطاقة ، أرأيتم إلى هذا التأثير المتبادل بين الغدتين ؟ وكيف أن كل إفراز غدة يثبط أو ينشط الغدة الثانية .

4- فلسفة المال في الإسلام

حرص الإنسان على رزقه كحرصه على حياته :

يقول الله في الحديث القدسي :

((يا عبادي كلكـــــم ضال إلا من هديته فاستهدوني أُهْدِكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أَطعَمْتُه فاستطعموني أُطْعِمْكم ، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أَكْسِكم ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركـــــم وإنسكم وجنكم وقفوا على صعيد واحد وسألني كلُ واحد منكم مسألته وأعطيت كل سائل مسألته ، ما نقص ذلك في ملكي، إن هـــي أعمالكم أحصيها عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)) .

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، قال :

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تمـــوت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله عبادَ الله ، وأجملوا في الطلب واستجملوا مهنكم ولا يحملنكـــم استبطاء شيء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن الله تعالى لا ينال ما عنده بمعصيته)) .

[حديث صحيح بشواهده ، ابن ماجه وأبو نعيم في الحلية والحاكم وابن حبان.]



اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارض عنا وعنهم يا رب العالمين .

انظر لتلك الشجــرة   ذات الغصون النضرة

كيف نمت من حبــة   وكيف صارت شجرة

فابحث وقل من الذي   يخرج منها الثمــرة

وانظر إلى الشمــس   التي جذوتها مستعــرة

فيها ضياء و بـــها   حرارة منتـــــــشرة

من ذا الذي أوجــدها   في الجو مثل الشـــررة

وانظر إلى الليل فمن   أوجد فيه قمـــــــره

و زانه بأنجـــــــم   كالدرر المنتــــشرة

وانظر إلى الغيم فمن   أنزل منه مـــــــطره

فصير الأرض به بعد   اصفرار خضـــــــرة

ذاك هو الله الـــذي   أنعمه منهمـــــــــرة

ذو رحمة بالــــغة   وقدرة مقتـــــــــدرة

***



موضوع الخطبة اليوم الرزق ، والإنسان حريص على رزقه كما هو حريص على حياته فكيف يدفع المرء عن نفسه القلق من أجل الرزق ؟ وكيف يمتنع الرجل عن ارتكاب المعاصي من أجل الرزق ؟ وكيف يحترز الإنسان عن أن يقف موقف مذلة من أجل الرزق ؟

المال الذي في أيدي الناس ملك لله تعالى وحده :

ما فلسفة المال في الإسلام ؟ من يملكه ؟ وكيف أن الإنسان مستخلف فيه ، ولماذا ينبغي أن نحافظ عليه ، ولماذا حرم الله التبذير والإسراف وإتلاف المال ؟ ولماذا فرض الإسلام على المسلم فرضاً عينياً أن يكسب رزقه بنفسه ؟ وهل هناك مكاسب للرزق محرمة تخفى على كثير من المسلمين ؟ وكيف يزيد الرزق من خلا ل الكتاب والسنة ؟ أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون في فقرات هذه الخطبة إجابات لهذه الأسئلة .

أخوة الإيمان في كل مكان ، لقد خلق الله السماوات والأرض وما فيهما ، وهو المالك الواحد لكل ما في السماوات الأرض وبينهما وما تحت الثرى ، قال تعالى :

لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾

(سورة طه) .

فلسفة المال ، المال أيها الأخوة الذي في أيدي الناس ملك لله تعالى وحده ، والدليل قوله تعالى :

وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ

(سورة النور) .

لقد سمى الله المال الذي في أيدي الناس مال الله ، إلا أن الله جل جلاله تفضل على عباده باستخلافهم فيه ، قال تعالى :



ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

(سورة الحديد) .

المال بنص القرآن الكريم نعمة من نعم الله تعالى الدالة على رحمته بالإنسان :

أصل الملك لله سبحانه وتعالى ، والعبد ليس له إلا التصرف ، والله جل جلاله سيحاسبه عن هذا المال من أين اكتسبه ؟ وفيمَ أنفقه ؟ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**)) .

[مسلم وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

أما حينما يضاف المال إلى العباد ، كقوله تعالى :

۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن
قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

(سورة آل عمران) .

لتبلون في أموالكم ، أضيف المال إلى العباد ، وأنفسكم ، فهذه الإضافة في رأي علماء التفسير لا تعني أن الإنسان ملك المال ، وإنما تعني أن الإنسان ملك حق الانتفاع به ابتلاء وامتحاناً .



والمال أيها الأخوة بنص القرآن الكريم نعمة من نعم الله تعالى الدالة على رحمته بالإنسان ، فقد منَّ الله على نبيه به فقال :

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

(سورة الضحى) .

نعمة من نعم الله .

المال قوام الحياة :

سمى الله المال في القرآن الكريم خيراً ، قال تعالى :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

(سورة البقرة) .

وقد امتدح النبي صلى الله عليه وسلم المال فقال :

((**نعم المال الصالح للمرء الصالح**)) .

[رواه أحمد عن عمرو بن العاص] .

وقد نقل عن بعض أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أن أحدهم قال : "حبذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي" .



وقد بين الله تعالى أن المال قوام الحياة ، وأن معايش الناس وقيامهم بالمال ، قال تعالى :

وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾

(سورة النساء) .

أي قياماً بها ، يقول بعض المفسرين : أي أنكم تقومون بها وتنتعشون ، ولو ضيعتموها لضعتم ، فكأن فيها قيامكم وانتعاشكم .

أيها الأخوة الكرام حضوراً ومستمعين ، بما أن المال نعمة وخير ، وقوام الحياة ، فينبغي أن نحفظه ، وأن نحافظ عليه كي نلبي به حاجاتنا الأساسية ، وألاّ نضيعه ، وآية الدَّين التي هي أطول آية في القرآن الكريم تؤكد ضرورة حفظ المال ، ورعايته ، وعدم تضييعه من خلال كتابة الدَّين ، والاستشهاد بالشهود ، وأخذ الرهان .

نهى الإسلام عن إضاعة المال الذي استخلف الله العباد فيه ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((**إن الله نهى عن ثلاث ، قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**)) .

يقول الإمام النووي في شرح هذا الحديث : "إضاعة المال صرفه في غير وجو هه المشروعة وتعريضه للتلف ، وسبب النهي أنه إفساد ، والله لا يحب المفسدين ، ولأن من أضاع ماله تعرض لأموال الناس بالاحتيال والعدوان ، وهل بعد هذا الفساد من فساد" ، لا زلنا في فلسفة المال في الإسلام .



التبذير والإسراف :

أيها الأخوة الكرام ، قد حرم الله التبذير أشد التحريم ، حين وصف المبذرين بأنهم أخوان للشياطين ، قال تعالى :

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾
إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا

(سورة الإسراء) .

التبذير في التعريف الدقيق هو الإنفاق في معصية الله ، وفي غير حق ، وقد نقل عن الإمام البخاري الذي نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : " لا تبذر ـــ أي لا تنفق ـــ في باطل " ونقل عن ابن مسعود : " لا تبذر " ، أي لا تنفق في غير حق ، وقد ذكر الإمام الشوكاني : " أن الشيطان كفور وأن المبذر أخ للشيطان " ، فبالقياس المنطقي المبذر كفور ، لو أخذ الناس بهذا الأمر فامتنعوا عن تبذير أموالهم في المعاصي وفي الفساد لبقيت أموال ضخمة لتلبية ال حاجات الأساسية للناس في الحياة ، هذا عن التبذير فماذا عن الإسراف؟

نهى الله سبحانه عن الإسراف والتقتير :

قد لا ينفق المرء ماله في المعاصي لكنه ينفقه في المباحات من طعام ، وشراب ، ومسكن ، وملبس ، وزينة متجاوزاً حد الاعتدال ، باعتبار الكم ، أو متجاوزاً حد الاعتدال باعتبار النوع ، أو كلاهما معاً ، قال تعالى :



﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾

(سورة الأعراف) .

أمر إباحة .

أباح الله سبحانه وتعالى الأكل والشرب ، ونهى عن الإسراف ، قال ابن عباس في تفسيره : " أحـــل الله تعالى في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلةً " ، وقال بعض المفسرين : حذف مفعول ولا تسرفوا ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ لم يذكر المفعول به ، حذف المفعول في : ولا تسرفوا ، يدل على العموم ، أي لا تسرفوا في الأكل والشرب ، وفي أي شيء آخر ، ويؤيد تعليل النهي بأنه لا يحب المسرفين ، أي لا يحب جنس المسرفين لأنهم يظلمون أنفسهم ، ويؤذون أبدانهم ، ويضيعون أموالهم ، ويخسرون آخرتهم ، وفي هذا وعيد للمسرف ين بأنه لا يحبهم ، ولا يرضى عنهم ، والى جانب هذا نهى الله تعالى عن الإقتار الذي يسبب اللوم ، قال تعالى :

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾

(سورة الإسراء) .

قال البيضاوي : في تفسيره في الآية تمثيلان لمنع الشحيح ، وإسراف المبذر ، نهى عنهما آمراً بالاقتصاد والاعتدال بينهما الذي هو الكرم .



وقال ابن كثير في تفسيره ﴿ **فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً** ﴾ أي فتقعد إن بخلت ملوماً ، يلومك الناس ويذمونك ، وتقعد محسوراً متى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير ، أي كالدابة التي عجزت عن السير فتوقفت ضعفاً وعجزاً .

النجاة في القصد :

أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، النجاة في القصد أي الاعتدال ، روى البيهقي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((**ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فتقوى الله في السر والعلانية ، والقول بالحق في الرضى والسخط ، والقصد** – الاعتدال – **في الغنى والفقر ، وأما المهلكات ، فهواً متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وهو أشدهن**)) .

[البيهقي عن أبي هريرة]

بهذا القصد في الإنفاق من صفات عباد الرحمن الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً ، قال تعالى في سورة الفرقان :


وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾

(سورة الفرقان) .

أخوة الإيمان في كل مكان ، لقد فرض الإسلام على العباد أن يسعوا ، ويبذلوا الجهد لكسب العيش ، فقد روى الطبراني عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((**طلب الحلال واجب على كل مسلم**)) .

[الطبراني عن أنس] .



وجوباً فرضياً ، وفي حديث صحيح أيضاً :

((**طلب الحلال فريضة بعد الفريضة**)) .

[الجامع الصغير عن ابن مسعود] .

معنى فريضة بعد الفريضة ، أي فريضة تأتي بعد فريضة الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، أو هي فريضة مستمرة ، وقال بعض الأئمة : القصد بالقدر الذي لا بد منه فريضة ، لأن م ا يقيم المرء صلبه حتى يؤدي الفريضة يُعد فريضة ، فما لا تؤدى الفريضة إلا به يُعد فريضة ، وكذلك يعد التكسب فريضة عينية لتأدية الدَّين لأن الدين يجب أن يقضى ، وكذلك يعد التكسب فريضة عينية للإنفاق على الزوجة والأولاد ، لأن الإنفاق عليهم واجب ، وكذلك يعد التكسب فريضة عينية للإنفاق على الأبوين ، لأن الإنفاق عليهما واجب أيضاً ، وقد نقل ابن الجوزي عن محمد بن عاصم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا رأى شاباً فأعجبه سأل عنه هل له من حرفة ، فإن قيل : لا ، سقط من عينه ، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : "إني لأكره الرجل فارغاً لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة " .

الأنبياء والمرسلون قدوة في كسب الرزق :

أيها الأخوة المستمعون ، أيتها الأخوات المستمعات ، هذه هي النصوص التي تؤكد وجوب العمل ، فماذا عن القدوة في كسب الرزق ؟ لقد كان الأنبياء والمرسلون قدوةً في هذا ، فما من أحد أكبر من أن يكسب رزقه بنفسه ، قال تعالى :

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي
ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾

(سورة الفرقان) .



أي إنهم بشر ، وتجري عليهم كل خصائص البشر ، وهم قدوة للبشر ، ومن بشريتهم أنهم مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام ، ومفتقرون من أجل الحصول عليه إلى المشي في الأسواق أي إلى كسب الرزق . وقد روى الإمام البخاري عن المقداد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)) .

[البخاري عَنِ الْمِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] .

ونبينا عليه الصلاة والسلام إمام الأنبياء والمرسلين ، وأكرم الأولين والآخرين ، وحبيب رب العالمين كان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة ، فقد روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيّاً إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ : وَأَنْتَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ)) .

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] .

فالعمل شرف للإنسان .

من واجب ولي أمر المسلمين أن يوفِّر الأعمال للعاطلين :

أيها الأخوة المؤمنون حضوراً ومستمعين ، النبي صلى الله عليه وس لم يبين من خلال توجيهاته ومواقفه ، لا بوصفه نبي هذه الأمة ورسول الله إليها ، ولكن بوصفه ولي أمر المسلمين ، يبين لأولي الأمر من بعده أن من واجب ولي أمر المسلمين أن يوفِّر الأعمال للعاطلين ، وأن يؤهلهم تأهيلاً نفسياً ومادياً ، فقد روى أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله



عنه أن رجلاً من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله مالاً ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

((أما في بيتك شيء ؟ قال : بلى ، حلس – بساط – **نجلس عليه ، وقعب نشرب فيه الماء ، قال : ائتني بهما ، فأتاه بهما فأخذهم رسول الله بيده صلى الله عليه وسلم ، وقال لأصحابه : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : من يزيد على درهم ؟ قالها مرتين أو ثلاثاً فقال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصاري وقال : اشتر بإحداهما طعاماً فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً وائتني به فأتاه به ، فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الكريمة عوداً ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً ، فذهب الرجل يحتطب ويبيع وجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً ، فقال عليه الصلاة والسلام : هذا خير لك من أن تجيء المسالة نكتةً في وجهك يوم القيامة ، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة ، لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفزع ، أو لذي دم موجع)).**

[أبو داود عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ] .

ماذا نستفيد من هذه القصة ومن توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام نستفيد أنه صلى الله عليه وسلم أهّل هذا العاطل تأهيلاً نفسياً ، حيث أمره بتزويد أهله بالطعام كي يفرغ من التفكير في شأنهم لبعض الوقت ، ولينقطع عن العمل ، وأهّله مادياً حيث زوده بآلة العمل بعد ما شد عليها عوداً بيده الكريمة ، والأهم من هذا متابعة النتائج ، حيث أعطاه فرصة خمسة عشر يوماً لينظر بعدها إلى مدى نجاحه أو إخفاقه .

أيها الأخوة الكرام ، ومن توجيهات عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض و لاته قال له : إن الله قد استخلفنا على خلقه لنسد لهم جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفر لهم حرفتهم ، فإذا وفيناهم ذلك تقاضيناهم شكرها ، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية ".



مِنْ أَكْلِ أموال الناس بالباطل الربا حيث يلد المالُ المال :

أخوة الإيمان في كل مكان ، هذا عن فلسفة المال في الإسلام ، وعن وجود العمل المشروع لكسبه ، وتحري الوجوه المشروعة في إنفاقــه ، فماذا عن الكسب الحرام وأكل أموال الناس بالباطل ؟ قال تعالى :

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

(سورة البقرة) .

لقد أشارت كلمة لا تأكلوا أموالكم إلى حقيقة خطيرة و هي : أشارت إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من إخوة صادقة ، أو مشاركة وجدانية حانية ، يجسدها الشعور بأن مال أخيك هو مالك من زاوية ، ومن زاوية أنه يجب أن تحافظ عليه وكأنه مالك ، وأن تصونه من التلف والضياع ، فلأن تمتنع عن أكله بالباطل من باب أولى ، وتشير ه ذه الكلمة ولا تأكلوا أموالكم ، أن هذا المال هو مالك من زاوية أخرى ، من زاوية أنه إذا أكلت مال أخيك أضعفته ، وفي إضعافه إضعاف لك ، فأنت بهذا كأنك قد أكلت مالك . وقد ثبت في الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

((كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ)) .

[مسلم ، الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه عن أبي هريرة] .



﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾

(سورة البقرة) .

مِن أكل أموال الناس بالباطل الربا حيث يلد المالُ المال ، وتتعطل الأعمال ، وتفشو البطالة ، وترتفع الأسعار ، ويصبح المال دولة بين الأغنياء ، وتتسع الهوة بين الأغنياء والفقراء ، وروى مسلم عن جابر قال :

((**لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ، وقال هم سواء**)) .

[مسلم عن جابر] .

مِنْ أكْلِ أموال الناس بالباطل الغش :

من أكل أموال الناس بالباطل الغش ، وللغش أنواع كثيرة وصور شتى ترجع في معظمها إلى المخادعة في إظهار شيء ، وإخفاء شيء في باطنه من ذلك الكذب في التعريف بالشيء ، فيعرف الرديء بأنه جيد وذو السعر الرخيص بأنه من الصنف ذي السعر العالي ، ومن الغش دس الرديء في ثنايا الجيد ، وبيعه جميعاً بقيمة الجيد دون بيان الواقع والحقيقة ، ومن الغش أن يقول البائع اشتريته بكذا كذباً ليخدع المشتري في هامش ربحه ، ومن الغش إخفاء العيب ، والتلاعب بالوزن والكيل ، والعدد ، والطول ، والمساحة ، والحجم ، ومن الغش تزوير منشأ البضاعة ، ومصدرها ، أو الكذب في صفاتها ، وفي تاريخ صلاحيتها ، ومن الغش عرضها بطريقة تزيد من مزاياها ، وتخفي من عيوبها ، ومن الغش توجيه المشتري إلى بضاعة رديئة كاسدة استغلالاً لجهله في نوع البضاعة ، ومن الغش استغلال جهل



المشتري بثمن البضاعة ، ورفع السعر أضعافاً مضاعفة ، وهذا الجهول في نوعية البضاعة وفي ثمنها سماه النبي صلى الله عليه وسلم مسترسلاً ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((**غبن المسترسل حرام**)) .

[أخرجه الطبراني عن أبي أمامة] .

وكما يكون البائع غاشّاً يكون المشتري أيضاً غاشاً ، حينما يستغل جهل البائع بقيمة بضاعته الحقيقي لذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تلقي الركبان لأنهم يجهلون قيمة بضاعتهم ، ولا يعرفونها إلا إذا دخلوا السوق .

مِنْ أكلِ أموال الناس بالباطل الاحتكار :

أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، ومن أكل أموال الناس بالباطل الاحتكار ، وهو بالتعريف الدقيق حبس مال أو منفعة أو عمل والامتناع عن بيعه وبذله حتى يغلو سعره غلاء فاحشاً غير معتاد بسبب قلته أو انعدام وجوده في مظانه مع شدة الحاجة إليه، قال الإمام أبو يوسف : " كل ما أضر بالناس حبسه فهو احتكار " ، وقال بعض الفقهاء المحدثين : كل إيهام ، أو كل تضليل من شأنه أن يزيد في الطلب على السلعة مع قلة العرض تمهيداً لرفع السعر فهو احتكار ، وهذا الربح الزائد الذي يجنيه المحتكر حرام ، لأنه ليس نظير زيادة في البضاعة ، ولا في صفاتها ، أو نظير خدمة خاصة يقدمها البائع ، ولم يؤخذ هذا المبلغ الزائد بالرضا الحقيقي من المشتري إنما هو إلجاء أصحاب الحاجات إلى شراء حاجاتهم بأكثر من أثمانها الحقيقية ، والمحتكر من خلال أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون وخاطئ ، وقد برئت منه ذمة الله وتوعده الله بالنار ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((**لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ**)) .

[مسلم عَنْ مَعْمَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ] .



وقال :

((الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ ، وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ)) .

[الدارمي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ] .

وقال :

((من احتكر الطعام أربعين ليلة يريد به الغلاء فقد برئ من الله وبرئ الله منه))

[مشكاة المصابيح عن ابن عمر] .

وقال :

((بئس العبد المحتكر إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح)).

[البيهقي عن معاذ] .

وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على من ترك الاحتكار خوفاً من الله ، وإشفاقاً على خلقه وتيسيراً لهم ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((من جلب طعاماً فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به)) .

[ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف] .

أيها الأخوة الكرام ، قد تخفى بعض المكاسب المحرمة على كثير من المسلمين ، لكن الميسر والسرقة والغلو والرشوة والغصب والنهب ، هذه أنواع كثيرة من أكل أموال الناس بالباطل لكنها لا تخفى على المسلمين .



وسائل أظهرها القرآن الكريم وبينتها السُّنّة الشريفة لزيادة الرزق :

1 ــ الاستقامة :

أيها الأخوة المسلمون ، والآن هل من وسيلة ذكرها القرآن الكريم وبينتها السنة المطهرة تزيد في الرزق ، وكل واحد من الخلق حريص على زيادة رزقه ، هل من وسيلة ذكرها القرآن الكريم ، وبينتها السنة تزيد في الرزق ؟ أضعكم بين النصوص وأترك لكم الاستنباط :

السؤال الأول : هل من علاقة بين الرزق وبين الاستقامة ؟ قال تعلى :

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

(سورة الجن) .

وقال :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

(سورة الأعراف) .

آيتان قرآنيتان من عند خالق الكون ، هل من علاقة بين الرزق وبين الاستقامة ؟



2 ــ الصلاة :

هل من علاقة بين الرزق وبين الصلاة ؟ انظروا في قوله تعالى :

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ
وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

(سورة طه) .

3 ــ الاستغفار :

هل من علاقة بين الرزق وبين الاستغفار ؟ انظر في قوله تعالى :

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم
مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل
لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾

(سورة نوح) .

4 ــ الشكر :

هل من علاقة بين الرزق وبين الشكر ؟ انظروا في قوله تعالى :

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

(سورة إبراهيم) .



5 ــ صلة الرحم :

هل من علاقة بين الرزق وصلة الرحم ؟ انظروا في هذا الحديث الشريف ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ** ــ أي في أجله ــ **فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**))

[البخاري عن أَنَس بْن مَالِكٍ] .

6 ــ الصدقة :

هل من علاقة بين الرزق وبين الصدقة ؟ انظروا في هذا الحديث الشريف :

((**استمطروا الرزق بالصدقة**)) .

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم] .

الصدقة تجلب الرزق .

7 ــ الأمانة :

هل من علاقة بين الرزق وبين الأمانة ؟ انظروا في هذا الحديث الشريف :

((**الأمانة غنًى**)) .

[الجامع الصغير عن أنس] .

بالمعنى المادي الأمانة غنًى ، والأمين ينال أثمن شيء وهو ثقة الناس .

8 ــ الإتقان :

هل من علاقة بين الرزق وبين الإتقان ؟ انظروا في هذا الحديث الشريف :

((**إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه**)) .

[الجامع الصغير عن عائشة] .



من أتقن عمله أحبه الله بنص هذا الحديث وأحبه الناس بديهةً ، ومن أحبه الله وأحبه الناس كان رزقه وفيراً .

***

المثل الحي :

أيها الأخوة الكرام حضوراً ومستمعين ، المبادئ والقيم والمثل لا تعيش إلا بالمثل الحي ، والمثل الحي يؤكد المبادئ ، ويحقق القيم ، ويجعل المثالية واقعاً ، والمثل الحي حقيقة مع البرهان عليها والمثل الحي نموذج إنساني خالد ، والمثل الحي نبراس للأجيال من بعده .

أبو حنيفة النعمان الفقيه الكبير رحمه الله تعالى أكرم علمه ونفسه وحزم أمره على أن يأكل من كسب يمينه ، وأن تكون يده هي العليا دائماً ، وقد علم وأيقن أنه ما أكل امرؤ لقمةً أزكى ولا أعز من لقمة ينالها من كسب يده ، لذلك خصص شطراً من وقته الثمين لكسب رزقه فاتّجر بالخز أي بالقماش ، وكان له متجر معروف يقصده الناس فيجدون فيه الصدق في المعاملة ، والأمانة في الأخذ والعطاء ، وكانوا يجدون فيه أيضاً الذوق الرفيع ، وكان يأخذ المال من حله ويضعه في محله ، وكان كلما حال عليه الحول أحصى أرباحه من تجارته واستبقى منها ما يكفيه لنفقته ، ثم يشتري بالباقي حوائج القراء ، وحوائج المحدثين ، وحوائج الفقهاء ، وطلاب العلم ، وأقواتهم وكسوتهم .

هذا أبو حنيفة النعمان ، هذا الفقيه الكبير الذي ضرب للناس مثلاً أعلى في كسب الرزق .



5 – التوحيد

عقيدة التوحيد هي لب الإسلام ، بل هي محور رسالات السماء ، قال تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

(سورة الأنبياء : 25) .

إله واحد ، خالق كل شيء ، ورب كل شيء ، له الخلق والأمر ، وإليه المصير ، في السماء إله ، وفي الأرض إله .

فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

(سورة هود : 107) .

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ

(سورة هود : 123) .

هو وحده الجدير ، أن يعبد فلا يجحد ، وأن يشكر فلا يكفر وأن يطاع فلا يعصى .
روى الشيخان البخاري ومسلم : عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي يا معاذ ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال عليه الصلاة والسلام : حق الله على العباد أن يعبدوه ، لأن العبادة هي علة وجودهم .

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات : 56) .

حق العباد على الله أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله ، أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً .



تحدثت عن تعريف التوحيد ، وها أنا ذا أنتقل إلى لوازم التوحيد ، من لوازم التوحيد :
أن لا يتخذ الإنسان من دون الله رباً يعظمه كما يعظم الله

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ

(سورة الأنعام : 164) .

فلو اعتقد أن جهة غير الله ، يمكن أن تعطي ، أو أن تمنع يمكن أن تخفض ، أو أن ترفع ، يمكن أن تعز أو تذل ، مستقلة عن إرادة الله فقد أشرك .

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ
وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

(سورة آل عمران : 26) .

أيها الأخوة الأكارم :
ومن لوازم التوحيد أيضاً :
أن لا يتخذ الإنسان من دون الله ولياً ، يحبه كحب الله .

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(سورة الأنعام : 14) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ
عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى
كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا
مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

(سورة فصلت : 30 ــ 31 ــ 32) .

أيها الأخوة الأكارم :



ومن لوازم التوحيد أيضا :

أن لا يتخذ الإنسان غير الله حكما ، يطيعه كما يطيع الله .

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا

(سورة الأنعام : 114) .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

(سورة الأحزاب : 36) .

أيها الأخوة المشاهدون :

من ثمار التوحيد اليانعة ، أن التوحيد هو في الواقع تحرير للإنسان ، من كل عبودية ، إلا لربه الواحد الديان ، الذي خلقه فسواه وكرمه ، التوحيد تحرير لعقله من الخرافات والأوهام ، التوحيد تحرير لضميره من الخضوع والذل والاستسلام ، التوحيد تحرير لحياته من تسلط الأرباب والمتألهين .

ومن ثمار التوحيد اليانعة أيضاً ، أن التوحيد يعين على تكوين الشخصية المتزنة التي توضحت في الحياة وجهتها ، وتوحدت غايتها وتحدد طريقها ، فليس لها إلا إله واحد ، تتجه إليه في الخلوة ، والجلوة وتدعوه في السراء والضراء ، وتعمل على ما يرضيه ، في الصغيرة والكبيرة ، ففي القرآن :

يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

(سورة يوسف : 39) .

وفي آية أخرى :



ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

(سورة الزمر : 29) .

ومن ثمار التوحيد أيضاً : أن التوحيد يملئ نفس صاحبه أمناً وطمأنينة فلا تستردد بها المخاوف التي تتسلط على أهل الشرك ، فقد سد الموحد منافذ الخوف التي يفتحها الناس على أنفسهم ، الخوف على الرزق ، والخوف على الأجل ، والخوف على النفس ، والخوف على الأهل والأولاد ، والخوف من الإنس ، والخوف من الجن ، والخوف من الموت ، والخوف من ما بعد الموت .

أما المؤمن الصادق ، الموحد فلا يخاف إلا الله ، ولا يخشى إلا الله ، ولهذا تراه أمناً إذا خاف الناس ، مطمئناً إذا قلق الناس هادئاً إذا اضطرب الناس .

فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

(سورة الأنعام : 81 ــ 82) .

وقال تعالى :

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

(سورة الشعراء : 213) .

يا أيها الأخوة الأكارم :

من ثمار التوحيد اليانعة أيضاً ، أن التوحيد مصدر لقوة النفس إذ يمنح التوحيد صاحبه، قوة نفسيةً هائلة ، حيث تمتلئ نفسه من الرجاء بالله تعالى ، والثقة به ، والتوكل عليه ، والرضى بقضائه والصبر على بلائه ، والاستغناء به عن خلقه ، فهو راسخ كالجبل ، لا تزحزحه الحوادث ، ولا تزعزعه الكوارث .

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾



(سورة يونس : 107) .

فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

(سورة هود : 55) .

ومن ثمار التوحيد أيضاً : أن التوحيد أساس الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية ، لأن الأخوة والمساواة ، لا تتحققان في حياة الناس إذا كان بعضهم أرباباً لبعض ، أما إن كان الناس جميعاً عباداً لله والله فوق الخلق فيها وحده ، هو الخالق ، المربي ، المسير ، الرازق هو الحكم ، إليه المصير ، عندئذٍ تتحقق المساواة بين الناس ، ويأتلف بعضهم بعضاً .

وهذه بعض ثمار التوحيد ، وقد قيل ما تعلمت العبيد ، أفضل من التوحيد وقيل أيضاً : نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل التقوى .

6 - سورة العصر

ورد في الحديث الشريف : أن رغم أنف عبدٍ ــ أي خاب وخسر ــ أدرك رمضان فلم يغفر له ، إلا لم يغفر له فمتى ؟ لذلك ينبغي للمرء أن يخرج في رمضان ، من ظلمات الجهل والوهم ، إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحُول الشهوات ، إلى جنات القربات ، ومن مدافعة التدني ، إلى متابعة الترقي ، فلعل هذا الإنسان ، يرى الحقيقة الكبرى التي تتمحور حولها كل الحقائق ، فينطلق إلى الهدف الكبير ، الذي ينتظر كل الخلائق ، فيهتدي ويهدي ، ويسعد ويُسعد .

أيها الأخوة الكرام :

في القرآن الكريم سورة قصيرة ، كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا التقيا لن يتفرقا حتى يتلو أحدهما على الآخر هذه السورة ، وكان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم .

هذه السورة :



ترسم حدود منهج كامل للحياة البشرية ، كما يريدها خالق البشرية ، فعلى امتداد الزمان في جميع العصور ، وعلى امتداد المكان في جميع الدهور ، ليس أمام الإنسان إلا منهجٌ واحدٌ رابح وطريق واحد سالك ، إلى جنة الخلد ، وكل ما وراء ذلك ، ضياعٌ وخسارٌ وشقاء .

أيها الأخوة المشاهدون :

لعلكم تسألون ما هذه السورة ؟ إنها سورة العصر :

وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾

لقد أقسم الله جل جلاله بمطلق الزمن ، العصر للإنسان الذي هو في حقيقته ، زمن ، فهو بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه ، وما من يوم ينشق فجره ، إلا وينادي يا ابن آدم ، أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد ، فتزود مني ، فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

لقد أقسم الله بالزمن ، للإنسان ، أنه في خسر بمعنى أن مضي الزمن وحده ، يستهلك عمر الإنسان ، الذي هو رأس ماله ، ووعاء عمله الصالح ، الذي هو ثمن الجنة التي وعد بها .

وهل الخسارة أيها الأخوة : في العرف التجاري ، إلا تضيع رأس المال من دون تحقيق الربح المطلوب ، لكن الإنسان إذا أستثمر الوقت فيما خلق ، يستطيع أن يتلافى هذه الخسارة ، وذلك بالإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

قال تعالى :

وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾

أولاً : الإيمان ..

الإيمان هو اتصال هذا الكائن الإنساني ، الصغير ، الضعيف الفاني ، المحدود ، بالأصل المطلق الأزلي الباقي ، الذي صدر عنه هذا الوجود وعندئذٍ ينطلق هذا الإنسان من



حدود ذاته الصغيرة ، إلى راحبة الكون الكبير ، ومن حدود قوته الهزلية ، إلى عظمة الطاقات الكونية المخبوءة ، ومن حدود عمره القصير ، إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله ، هذا الاتصال فضلاً على أنه يمنح الإنسان القوة ، والامتداد والانطلاق، فإنه يمنحه السعادة الحقيقية التي يلهث ورائها الإنسان وهي سعادة رفيعة ، وفرح نفيس، وأُنس بالحياة ، كأنس الحبيب لحبيبه وهو كسب لا يعدله كسب ، وفقدانه خسران لا يعدله خسران ، وعبادة إله واحد يرفع الإنسان عن العبودية لسواه ، فلا يذل لأحد ، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار ، فليس هناك إلا قوة واحدة ، ومعبودٌ واحد وعندئذ تنتفي من حياة الإنسان المصلحة ، والهوى ، ليحل محلها الشريعة والعدل .

والاعتقاد بكرامة الإنسان أيها الأخوة :

وهو من لوازم الإيمان ، الاعتقاد بكرامة الإنسان على الله يرفع من قيمته في نظر نفسه ، ويثير في نفسه الحياء ، من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها .

ثانياً :

" **وعملوا الصالحات** " ، ولأن الإيمان حقيقة إيجابية متحركة كان العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان ، فما إن تستقر حقيقة الإيمان في ضمير المؤمن حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها ، في صورة عمل صالح ، فلا يمكن أن يظل الإيمان في نفس المؤمن خامداً لا يتحرك ، كاماً لا يتبدى ، فإن لم يتحرك الإيمان هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف ، أو ميت ، شأنه شأن الزهرة ينبعث أريجها منها انبعاثاً طبيعياً ، فإن لم ينبعث منها أريج فهو غير موجود .

والعمل الصالح أيها الأخوة :

ليس فلتةً عارضة ، ولا نزوةً طارئة ، ولا حادثةً منقطعة ، إنما ينبعث عن دوافع ، ويتجه إلى هدف ، ويتعاون عليه المؤمنون .

فالإيمان ليس انكماشاً ، ولا سلبيةً ، ولا انزواءً ، ولا تقوقعاً بل هو حركةٌ خيرةٌ ، نظيفة ، وعمل إيجابي ، هادف ، وإعمار متوازنٌ للأرض ، وبناء شامخ للأجيال ، يتجه إلى الله ، ويليق بمنهج يصدر عن الله .

ثالثاً :

" **وتواصوا بالحق** " ، ولأن النهوض بالحق عسير ، والمعوقات كثيرة ، والصوارف عديدة ، فهناك هوى النفس ، ومنطق المصلحة وظروف البيئة ، وضغوط العمل ،



والتقاليد ، والعادات ، والحرص والطمع ، عندئذٍ يأتي " **التواصي بالحق** " ، ليكون مذكراً ، ومشجعاً ومحصناً للمؤمن الذي يجد أخاه معه يوصيه ، ويشجعه ، ويقف معه ويحرص على سلامته ، وسعادته ، ولا يخذله ، ولا يسلبه ، وفضلاً عن ذلك ، فإن " **التواصي بالحق** " ينقي الاتجاهات الفردية ويوقيها فالحق لا يستقر ، ولا يستمر إلا في مجتمع مؤمن ، متواص ، متعاونٍ متكافل ، متضامن .

فالمرء بالإيمان ، والعمل الصالح يكمل نفسه ، وبالتواصي بالحق يكمل غيره ، وبما أن كيان الأمة مبني على الدين الحق الذي جاءنا بالنقل الصحيح ، وأكده العقل ، وأقره الواقع ، وتطابق مع الفطرة ، فلابد من أن يستمر هذا الحق ويستقر ، حتى تشعر الأمة بكيانها ، ورسالتها ، فالتواصي بالحق ، قضية مصير ية فما لم تتنامى دوائر الحق في الأرض ، تنامت دوائر الباطل وحاصرته فالتواصي بالحق ، يعني الحفاظ على وجوده ، والأداء لرسالته .

رابعاً :

" **وتواصوا بالصبر** " ، وقد شاءت حكمة الله جل جلاله أن تكون الدنيا دار ابتلاء بالشر والخير ، ودار صراع بين الحق والباطل لذلك كان التواصي بالصبر ضرورةً للفوز بالابتلاء ، والغلبة في الصراع .

إذاً :

لابد من التواصي بالصبر ، على مغالبة هوى النفس وعناد الباطل ، وتحمل الأذى ، وتكبد المشقة ، لذلك يعد الصبر وسيلةً فعالةً لتذليل العقبات ، ومضاعفة القدرات ، وبلوغ الغايات ، إن تكونوا تألمون ، فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون .

أيها الأخوة المشاهدون : أرجو أن تكونوا قد أفتم من هذه السورة ، وشكراً لإصغائكم، وإلى لقاء آخر ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الباب الثالث: العبادات



01 - ذكر الله
02 - يوم عرفة
03 - مقام إبراهيم
04 - الصيام



01 - ذكر الله

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، الله جل جلاله الذات الكاملة واجب الوجود ، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ، واحدٌ أحدٌ في ذاته ، وفي أفعاله ، وفي صفاته ، خالق كل شيء ، رب العالمين ، لا إله إلا هو لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، فوق كل شيء ، وليس تحته شيء ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، ليس بجسم ، ولا صورة ، ولا محدود ، ولا متبعض ، ولا متجزئ ، ولا متناه ، ولا متلون ، لا يُسأل عنه بمتى كان ، لأنه خالق الزمان ، ولا بأين هو ، لأنه خالق المكان ، نوكل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك ، علِم ما كان ، وعلِم ما يكون ، وعلِم ما سيكون ، وعلِم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، لا يخفى عليه إغماض الجفون ، ولا لحظ العيون ، ولا ما استقر في المكنون ، يحتاجه كلُ شيء في كل شيء ، وهو غنيٌ عن كل شيء ، لأنه متصف بالكمال التام في كل شيء ، فلم يسبق وجوده عدم ، ولم يلحق به فناء ، وهو غني عن أن يمده بالبقاء أو النفع أحد ، ذلكم الله ربكم خالق كل شيء ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون .

إخوة الإيمان في كل مكان ، أما الإنسان فهو المخلوق الضعيف الذي يفتقر إلى ربه في كل شيء ، فجسمه مفتقر إلى الطعام والشراب حتى يبقى ، وقلبه مفتقر إلى الذكر إلى ذكر الله حتى يحيا ، وعقله مفتقر إلى العلم حتى يرقى ، أغذية ثلاثة لابد منها حتى يحقق الإنسان وجوده ، وسلامته ، وكمال وجوده ، واستمرار وجوده .



ذِكرُ الله :

ولنترك لعلماء التغذية شؤون تغذية الجسد ، ولندع لعلماء العقيدة شؤون تغذية العقل ، ونتحدث في هذه الخطبة على غذاء القلب ، ألا وهو الذكر .

1 ــ للذِّكر شأن كبير :

أيها الإخوة المؤمنون ، أيتها الأخوات المؤمنات ، روى الإمام مالك في الموطأ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا : وَذَلِكَ مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) .

[رواه مالك والترمذي وأحمد في المسند والحاكم في المستدرك]

أيها الإخوة المؤمنون حضورا ومستمعين ، يبدو من خلال هذا الحديث الشريف أن الذكر له شأن كبير في حياة المؤمن كيف لا ، وقد ورد الذكر في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثمائة آية ، تؤكد في مجموعها أن الذكر ينبغي أن يدور مع الإنسان في كل شؤونه ، وفي كل أحواله ، وفي كل أطواره ، لأنه عبادة القلب ، ولأنه عبادة الفكر ، ولأنه عبادة اللسان .

2 ــ ذكرُ اللهِ في آياته الكونية :

أيها الإخوة الأكارم ، من الذكر أن تذكر الله في آياته الكونية ، ومن الذكر أن تذكره في آياته القرآنية ، ومن الذكر أن تذكره في نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة ، أن تذكره في أمره ونهيه ، أن تذكره لعباده معرفاً به ، وأن تذكره في قلبك ، وأن تذكره في لسانك مسبحاً ، وحامداً ، وموحداً ، ومكبراً ، وأن تذ كر ربوبيته فتوحده في أحوالك كلها ، وأطوارك جميعها ، وأن تذكره ذكراً كثيراً ليطمئن قلبك ، ولينجلي همك ، ولينشرح صدرك ، وليتسع رزقك ، ولينصرك الله على عدوك .



أوجهُ ورود الذكر في القرآن وفوائده :

1 ــ ورودُه مطلقا :

أيها الإخوة الأكارم ، أيها الإخوة المؤمنون ، ورد الذكر في القرآن الكريم على أوج ٍهٍ منها الأمر به مطلقاً ومقيداً ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

(سورة الأحزاب)

2 ــ النهي عن ضده :

ومن هذه الوجوه النهي عن ضده ، قال تعالى :

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ

(سورة الحشر : 19)

قال بعض المفسرين : نسيانهم لله عز وجل هو سبب نسيانهم أنفسهم ، فلم يعرفوا حقيقة أنفسهم ، ولا حقيقة مهمتهم بالدنيا ، ولا ما ينتظرهم من سعادة أبدية إذا هم أطاعوه .

3 ــ تعليق الفلاح والفوز بدوام ذكر الله وكثرته :

ومن وجوه الذكر تعليق الفلاح والفوز بدوام ذكر الله وكثرته ، قال تعالى :

وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الجمعة)



4 ــ الغفلة عن ذكر الله سبب لأكبر خسارة للإنسان :

ومن هذه الوجوه التي وردت في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى جعل الغفلة عن ذكر الله سبباً لأكبر خسارة تنزل بالإنسان ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ

(سورة المنافقون : 9)

5 ــ ذكر الله للعبد لذِكرِ العبد ربَّه :

ما من عطاء يناله المؤمن من ربه أعظم من أن يذكره الله عز وجل ، وذكر الله للعبد جزاء على ذكر العبد لربه ، أو تذكير العبد عباد الله بربهم ، قال تعالى :

فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

(سورة البقرة)

6 ــ ذكر الله أكبر من كل عبادة :

ذكر الله أيها الإخوة ، غاية الغايات ، وعلة العبادات ، ومآل الطاعات ، لذلك جعله الله أكبر من كل عبادة ، وأعظم من كل قربة وغاية كل عمل ، قال تعالى :

وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

(سورة الكهف)



معنى : وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَر

وللعلماء المفسرين عند قوله تعالى :

وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ

(سورة العنكبوت : 45)

مذاهب شتى في التفسير ، فذكر الله عبادة هي أكبر من أية عبادة ، هذا هو المعنى الأول .

والثاني : إذا ذكرتموه في الصلاة ذكركم ، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له .

والمعنى الثالث : وذكر الله عز وجل أكبر من أن يكون معه فاحشة ومنكر .

الرابع : وقال بعض المفسرين : ذكر الله على حقيقته أكبر ما في الصلاة ، استنباطاً من قوله تعالى :

إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾

(سورة طه)

وفي مجمل القول ، جعل الله الذكر قرين الأعمال الصالحة ، وروحها ، فمتى خلا العمل من الذكر كان هذا العمل كالجسد بلا روح .

7 ــ الذكر حياة للقلب :

الذكر حياة للقلب ، ففي الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)) .



[أخرجه البخاري ومسلم]

ولفظ مسلم :

((مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)) .

وقد قال بعض العلماء الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟

وفي الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)) .

[أخرجه البخاري ومسلم]

وإنْ لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى به فضلاً وشرفاً .

8 ـ الذكر يطرد الشيطان :

الذكر يطرد الشيطان ، ويقمعه ، ويرضي الرحمن ، ويدني منه ، يزيل الهم ، والغم عن القلب ، يجلب له الفرح والغبطة ، يقوي القلب والبدن ، ينور الوجه والقلب ، يجلب الرزق ، يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة ، يورث الذكر محبة الله التي هي روح الإسلام ، وقطب رحى الدين ، ومدار السعادة والنجاة .

أيها الإخوة المؤمنون ، أيتها الأخوات المؤمنات ، الذكر يطرد الشيطان ، ويقمعه ، يقول ابن عباس رضي الله عنه : << الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله تعالى خنس >> ، (أي تراجع) ، ولهذا سُمي الشيطان بالوسواس الخناس ، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :



((مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا قَطُّ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)) .

[رواه مالك في الموطأ والترمذي]

9 ــ في الاشتغال بالذكر اشتغال عن الكلام الباطل :

وفي الاشتغال بالذكر اشتغال عن الكلام الباطل ، من غيبة ، ونميمة ، ولغو ، ومدح ، وذم ، فإن اللسان لا يسكت البتة ، فإما لسان ذاكر ، وإما لسان لاغ ، فالنفس إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر ، والقلب إن لم تسكنه محبة الله سكنته محبة المخلوقين ، واللسان إن لم تشغله بالذكر شغلك باللهو ، قال تعالى :

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥

(سورة المؤمنون)

أيها الإخوة الكرام حضورا ومستمعين :

10 ــ ذكر الله يذيب قسوة القلب :

من فوائد الذكر أن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله عز وجل ، فالقلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة ، فإذا ذكر الله ذابت تلك القسوة ، كما يذوب الرصاص بالنار ، فالذكر شفاء للقلب ، ودواء له ، والغفلة مرض للقلب ، وهلاك له ، قال أحد العلماء : " ذكر الله تعالى شفاء وذكر الناس داء " .

إذا مرضنا تداوينا بذكركم فنترك الذكر أحياناً فننتكس

***



11 ــ الذكر أصل مُوالاة الله عز وجل ، والغفلة أصل معاداته :

أيها الإخوة ، الذكر أصل مُوالاة الله عز وجل ، والغفلة أصل معاداته ، فإن العبد ما يزال يذكر ربه حتى يحبه ، فيواليه ، وما يزال العبد يغفل عن ربه حتى يبغضه ، فيعاديه ، وما عادى عبدٌ ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذكره ، ويكره من يذكره ، وما استجلبت نِعَمُ الله عز وجل ، ولا استدفعت نقمه بمثل ذكر الله تعالى ، فذكر الله تعالى جلاب للنعم ، دافع للنقم .

12 ــ ذكر الله تعالى جنة الدنيا :

أيها الإخوة المؤمنون ، ذكر الله تعالى جنة الدنيا ، فقد قال أحد العارفين : " في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة ، إنها ذكر الله " ، وأشار أحد العلماء إلى هذه الجنة فقال : " ماذا يستطيع أن يصنع أعداء بي ، جنتي وبستاني في صدري ، إن رحلت فهي معي لا تفارقني ، إن حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة " .

وقال آخر : " مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها ، وما ذاقوا أطيب ما فيها قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : معرفة الله تعالى ، ومحبته ، ودوام ذكره " .

وقال أحد الذاكرين : إنه لتمر بي أوقات أقول : إذا كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيش طيب .

ويُروى أن شاباً من الذاكرين بدرت منه هفوة حجبته عن الله عز وجل فضاقت نفسه ، وانقبض قلبه ، وبات ينتظر العقاب من الله والتأديب ، ولكن لم يحدث شيء من هذا ، فكان من مناجاته لربه : أن يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني ، فوقع في قلبه : أن يا عبدي لقد عاقبتك، ولم تدر ، ألم أحرمك لذة مناجاتي وذكري .

وقال الحسن البصري " تفقدوا الحلاوة في ثلاثة ، في الصلاة ، وفي الذكر ، وفي قراءة القرآن ، فإن وجدتمْ وجدتم ، وإلاّ فالباب مغلق ، فابحثوا عن السبب .



13 ـ الذكر سبب لعطاء الله :

أيها الإخوة الأكارم في دنيا العروبة والإسلام ، الذكر سبب لعطاء الله عز وجل ، فالله عز وجل يعطي الذاكر أكثر مما يعطي السائل ، في الحديث القدسي الذي رواه سيدنا عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه :

((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السَّائِلِينَ)) .

[كنز العمال]

14 ـ الذكر لرحمة الله ولسكينة القلب :

الذكر سبب لرحمة الله ولسكينة القلب ، ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)) .

وبالمقابل : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَلَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مَشَى طَرِيقًا فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً – أي نقصاً في حسناتهم وتَبِعةً يحاسبون عليها –)) .

[مسند أحمد]

وعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((ما من ساعة تمر بابن آدم لا يذكر الله فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة)) .

[أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان وهو حسن]



وإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أم من أهل الغفلة ؟ وهل يحكمه الوحي أم الهوى ، فإن كان من أهل الغفلة والهوى كان أمره فرطاً ، قال تعالى :

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

(سورة الكهف)

15 ــ يؤنس المؤمن ، ويرقى به :

أيها الإخوة الأكارم ، ذكر الله سبحانه وتعالى يؤنس المؤمن ، ويرقى به ، وذكر الله تعالى يجب أن يكون كثيراً ،

لقوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

(سورة الأحزاب)



16 ـ من أنواع الذكر أن تذكر اسم الله :

أيها الإخوة المؤمنون ، من أنواع الذكر أن تذكر اسم الله ، أن تقول : الله ، الله ، لقوله تعالى :

وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ

(سورة الإنسان : 25)

17 ـ من أنواع الذكر التسبيحُ :

ومن أنواع الذكر أن تسبحه أن تقول : سبحان الله ، ومن أنواع الذكر أن تحمده ، أن تقول : الحمد لله ، ومن أنواع الذكر أن توحده ، أن تقول : لا إله إلا الله .

18 ـ من أنواع الذكر التسبيحُ :

ومن أنواع الذكر أن تكبره ، أن تقول : الله أكبر ، فالعبرة للمقاصد ، والمعاني ، وليس للألفاظ والمباني فقط .

الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ :

فسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تلك هي الباقيات الصالحات التي قال الله تعالى عنها ، قال تعالى :

ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾

(سورة الكهف)



وعندما وصف الله تسبيحه وحمده وتوحيده وتكبيره بأنها باقيات صالحات وصف زينة الحياة الدنيا بشكل ضمني بأنها الفانيات ، فالدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، وأن هذه الفانيات قد تكون سبباً لشقاء الإنسان وهلاكه ، إذا ألهته عن ذكر الله ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾

(سورة المنافقون)

18 ـ من أنواع الذكر الاستغفارُ :

ومن أنواع الذكر أن تستغفره ، قال تعالى :

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾

(سورة نوح)



19 ـــ من أنواع الذكر الدعاء :

ومن الذكر أن تدعوه فالدعاء مُخُّ العبادة ، قال تعالى :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(سورة البقرة)

20 ـــ من أنواع الذكر ذكرُ الأمر والنهي والحلال والحرام :

ومن الذكر أن تذكر أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، ووعده ووعيده ، وجنته وناره ، ومن الذكر أن تذكر أعمال الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وأن تبتعد عن المغضوب عليهم ، وعن الضالين ، والمضلين كي تصح عبادتك

21 ـــ من أنواع الذكر ذكرُ الآيات القرآنية :

ومن الذكر أن تذكر آياته القرآنية ، قال تعالى :

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

(سورة الإسراء)

فلا يحزن قارئ القرآن ، ومن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت .



21 ـــ من أنواع الذكر ذكرُ الآيات الكونية والتكوينية :

ومن الذكر أن تذكر آياته التكوينية أي أفعاله ، قال تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾

(سورة غافر : 51)

ومن الذكر أن تذكر آياته الكونية ، فالمؤمنون الصادقون يتفكرون في خلق السماوات والأرض ، ويقولون : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك

والله تعالى يقول :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

من الآيات الكونية : التجاذب الحركي بين الكواكب والنجوم :

أيها الإخوة الأكارم حضورا ومستمعين ، من الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل ، والتي بثها في الآفاق التجاذب الحركي بين الكواكب والنجوم ، هذا التجاذب ينتظم الكون كله بدءًا من الذرة ، وانتهاء بالمجرة ، فالشمس مثلا تجذب الأرض إليها بقوة هائلة ، حيث تجر ي



الأرض في مسار مغلق حول الشمس ، ولو انعدم جذب الشمس للأرض لخرجت الأرض عن مسارها حول الشمس ، ولاندفعت في متاهات الفضاء الكوني ، حيث الظلمة والتجمد ، وبزوالها عن مسارها ، أي بانحرافها عنه تزول ، وتنعدم الحياة فيها ، إذ تصل حرارتها إلى درجة الصفر المطلق ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾

(سورة فاطر)

ولو أردنا من باب الافتراض ، لو أردنا أن نستعيض عن قوة جذب الشمس للأرض بأعمدة من فولاذ نربط بها الأرض بالشمس لاحتجنا إلى مليون مليونِ حبل ، أو عمود فولاذي ، طول كل حبل مئة وستة وخمسون مليون كيلومتر ، وقطره خمسة أمتار ، وكل حبل من هذه الحبال يتحمل من قوى الشد ما يزيد على مليوني طن .

أعرفتم أيها الإخوة كم هي قوة جذب الشمس للأرض ، ثم إذا زرعنا هذه الحبال على سطح الأرض المقابل للشمس لفوجئنا أننا أمام غابة من الأعمدة الفولاذية ، حيث تقلّ المسافة بين العمودين عن قطر عمود ثالث ، هذه الغابة من الأعمدة تحجب عنا أشعة الشمس ، وتمنعنا من كل حركة ونشاط ، كل هذه القوة قوة جذب الشمس للأرض والتي تزيد على مليوني طن مضروبة بمليون مليون من أجل أن تنحرف الأرض عن مسارها المستقيم ثلاث ملم في كل ثانية ، من أجل أن تشكل مساراً مغلقاً حول الشمس .



الآن أيها الإخوة دققوا في قوله تعالى :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

(سورة الرعد)

أي بعمد لا ترونها ، إنها قوى التجاذب ، كلمة ترونها صفة لعمد ، وهي قيد لها ، وهي تفيد فيما تفيد أن الله رفع السماوات بعمد لا نراها ، إنها قوى التجاذب الحركي التي تنتظم الكون كله ، قال تعالى :

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

(سورة فصلت)

وقال :

كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ

(سورة فاطر : 28)

هذه آية من آيات الآفاق ، فماذا عن بعض آيات النفس .



من آيات الله في الأنفس : آلية معقّدة في الإدراك :

أيها الإخوة في دنيا العروبة والإسلام ، لو أن رجلاً كان يتنزه في بستان ولمح فجأة حشرة مؤذية قاتلة فما الذي يحدث في جسمه ، ينطبع خيال هذه الحشرة على شبكية العين إحساساً ، وينتقل هذا الإحساس الضوئي إلى المخ إدراكاً ، وعندها يأمر المخ الغدة النخامية ملكة الجهاز الهرموني ، يأمرها أن تواجه هذا الخطر بحكمتها ، هذه الملكة الغدة النخامية التي لا يزيد وزنها على نصف غرام ، هذه الغدة تصدر أمراً هرمونياً لغدة الكظر فوق الكليتين كي تعطي الجسم الجاهزية القصوى لمواجهة الخطر ، و الكظر بدوره يعطي أمراً هرمونياً إلى القلب ليسرع نبضاته .

فالخائف تزداد نبضات قلبه ويعطي الكظر أمراً هرمونياً ثانياً إلى الرئتين ليتوافق وجيبهما مع ازدياد نبضات القلب ، الخائف يزداد وجيب رئتيه ، " أي يلهث " ويعطي الكظر أمراً ثالثاً هرمونياً إلى الأوعية الدموية المحيطية فتضيق لمعتها ليتجول الدم في العضلات بدل الجلد ، الخائف يصفر وجهه ، ويعطي الكظر أمراً هرمونياً رابعاً للكبد ليطرح في الدم كمية إضافية من السكر لأنه وقود العضلات ، ويعطي الكظر أمراً هرمونياً خامساً فترتفع نسبة هرمون التجلط لئلا ينزف الدم سريعاً ، كل هذا يتم في لمح البصر والإنسان لا يعلم ماذا يجري في جسمه ، هذا خلق الله ، فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون .

22 ـــ من أنواع الذكر تذكيرُ العباد بربِّهم :

أيها الإخوة الأكارم ، من الذكر أن تذكر العباد بربهم أن تدعو إليه معرفاً إياهم بوجوده وكماله ووحدانيته معرفاً إياهم بكتابه الذي يهدي للتي هي أقوم ، معرِّفاً إياهم برسوله صاحب الخلق العظيم ، وبسنة رسوله ، وبسيرته مخاطباً عقولهم تارةً ، وقلوبهم تارةً أخرى ، أن تذكرهم ، وأن تكون قدوة لهم ، قال تعالى :



كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ
وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١

(سورة آل عمران)

كما اهتديت إلى الله اسع في هداية الخلق كن هادياً مهتدياً كن نافعاً منتفعا ، وهذا أيها الإخوة من أعظم أنواع الذكر إنه عمل الأنبياء والمرسلين ، إنه عمل الصديقين والموحدين ، إنه عمل العلماء العاملين المخلصين ، إنهم السابقون المقربون في جنات النعيم ، وقد وسّع الإمام النووي رحمه الله تعالى مفهوم الذكر فقال : " اعلموا أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها ، بل كل عامل لله تعالى بطاعته هو ذاكر له ، فأية طاعة تطيع الله بها فأنت ذاكر له " .

02 - يوم عرفة

الحمد لله رب العالمين ، يا رب اكتب الصحة والسلامة لحجاج بيتك الحرام ، الذين شهدوا لك بالوحدانية ، ولنبيك بالرسالة ، جاؤوك شُعْثاً غُبْراً من كل فَجٍّ عميق ، وقد خلَّفوا وراءَهم أوطانهم ، وخِلانهم ، وأعمالهم ، وحظوظهم ، لا يَحْدوهم في رحلتهم إليك إلا الطمع في مغفرتك ، والرغبة في رحمتك ، والفوز برضوانك ، وقد أخبرهم نبيك وهو الصادق المصدوق أنهم وفدك ؛ إن دعوك أجبتهم ، وإن استغفروك غفرت لهم ، ووعدتهم على لسان نبيك الذي لا ينطق عن الهوى أنه :

((**مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**)) .

[متفق عليه أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

يا رب اغفر لهم ، وارحمهم ، وعافهم ، واعف عنهم ، لقهم الأمن والبشرى ، والكرامة و الزلفى ، وارزقنا وإياهم حجاً مبروراً ، وسعياً مشكوراً ، وذنباً مغفوراً.



وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناس، والشهر الحرام والهدي والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وأن الله بكل شيء عليم .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله بشّر الحجاج أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد سيد الخلق ، وحبيب الحق ، وعلى آله وصحبه ، ومن ولاه ، وارض عنا ، وعنهم يا رب العالمين.

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير .

العبادات الشعائرية وسائل ينطلق الإنسان بها من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير:

العبادات الشعائرية ومنها الحج وسائل ينتظر أن ينعقد من خلالها اتصال بين هذا الإنسان الحادث ، الفاني ، المحدود ، الصغير ، وبين الخالق المطلق ، الأزلي ، الباقي ، الذي خلق هذا الوجود ، وعندها ينطلق الإنسان من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير ، ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية ، ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله .

أيها الأخوة ، هذا الاتصال لا ينعقد إلا أن يكون الإنسان ملتزماً بالمنهج التعبدي ، والتعاملي ، والأخلاقي فيما بينه وبين الخلق ، هذا الاتصال هو جوهر الدين ، فالصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين .

فوائد الاتصال بالله عز وجل :

1 ـ يطهر الإنسان من عوامل انحطاطه وشقائه :

من ثمار هذا الاتصال أنه يطهر الإنسان من عوامل انحطاطه وشقائه ، الصلاة طهور كما قال عليه الصلاة والسلام .



2 ـ يسعد المتصل سعادة تنبع من ذاته :

ومن ثمار هذا الاتصال أنه يسعد المتصل سعادة تنبع من ذاته ، قال أحد العارفين :
"ماذا يصنع أعدائي بي ، بستاني في صدري ، إن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة" .

3 ـ المتصل بالله طاهر السرير مستنير البصيرة :

المتصل بالله طاهر السرير مستنير البصيرة ، منغمس في سعادة لا تستطيع سبائك الذهب اللامعة ، ولا سياط الجلادين اللاذعة أن تصرفه عنها .

الاتصال بالله يتفاوت نوعا وأمداً من عبادة إلى أخرى :

هذا الاتصال يتفاوت نوعا وأمداً من عبادة إلى أخرى ، ففي الصلاة يشحن المصلي شحنة روحية تطهره ، وتنوره، وتسعده إلى الصلاة التي تليها ، لكن فريضة الجمعة وخطبتها ينبغي أن تشحنه شحنة أكبر وأطول ، ينبغي أن تشحنه إلى الجمعة التي تليها .

أما الصيام فقد أراده الله ثلاثين يوماً يترك فيها الصائم طعامه وشرابه ، لتكون الشحنة الروحية كافية لعام كامل ، أما الحج فهو عبادة تؤدى في العمر مرة واحدة فرضاً ، وهو عبادة شعائرية مالية بدنية ، تؤدى في أوقات معلومة وأمكنة مخصوصة ، لذلك تحتاج إلى تفرغ تام من تعلقات الدنيا ، كالوطن ، والأهل ، والأولاد ، والعمل ، وتفريغ كامل من كل الحجب والأقنعة التي تبعد النفس عن خالقها ، فلابدّ للحاج أن يخلع ثيابه التي تعبر بشكل أو بآخر عن دنياه ولابدّ أن يبتعد عن أكثر المباحات التي تشده إلى الدنيا ، كل هذا من أجل أن يشحن المؤمن في الحج شحنة روحية كبيرة ، تكفي لأن يلتزم بمنهج الله ، وأن يقبل عليه، وأن يعمل للدار الآخرة إلى أن يلقى ربه .

الوقوف بعرفة هو ركن الحج الأكبر :

ركن الحج الأكبر هو الوقوف بعرفة ، كما قال علية الصلاة والسلام :
((**الحــج عرفة**)) .

[الترمذي و أبو داود عن النعمان بن بشير]



لذلك يعد يوم عرفة ، ونحن في يوم عرفة ، يوم اللقاء الأكبر بين العبد المنيب المشتاق وبين ربه التواب الرحيم ، فيوم عرفة يوم المعرفة ، ويوم عرفة يوم المغفرة ، ويوم عرفة يوم تتنزل فيه الرحمات على العباد من خالق الأرض والسماوات ، ومن هنا قيل من وقف في عرفات ، ولم يغلب على ظنه أن الله قد غفر له فلا حج له .

((ما من أيام عند الله افضل من عشر ذي الحجة ، فقال رجل هن أفضل أم من عدتهن جهاداً في سبيل الله ؟ قال : هن أفضل من عدتهن جهاداً في سبيل الله ، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهي بأهل الأرض أهل السماء ، يقول : انظروا عبادي جاءوني شعثاً غبراً ضاحين ، جاؤوني من كل فج عميق ، يرجون رحمتي ، ولم يروا عذابي ، فلم يُر يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة))

[المنذري رواه البزار وابن خزيمة وابن حبان واللفظ له عن جابر رضي الله عنه]

وروى ابن المبارك عن سفيان الثوري عن الزبير بن علي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : وقف النبي صلى الله عليه وسلم بعرفات ، وقد كادت الشمس أن تثوب فقال : يا بلال أَنصِت لي الناس ، فقام بلال فقال : أنصتوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنصت الناس ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((معشر الناس أتاني جبريل عليه السلام آنفاً فأقرأني من ربـــــــي السلام وقال : إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات وأهل المشعر الحرام وضمن عنهم التبعات)) .

[ابن المبارك عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

فقـــام عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا رسول الله هذه لنا خاصة ؟ قال : هذه لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة ، فقال عمر رضي الله عنه ، كثر خير الله وفاض.

و :

((ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنوا عز وجل ثم يباهي بهم الملائكة فيقول ماذا أراد هؤلاء)) .

[مسلم عن عائشة رضي الله عنها]

و :

((ما رئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أغيظ فنه من يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما أري من يوم بدر ، قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة)) .

[رواه الإمام مالك مرسلاً والحاكم موصولاً عنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ]

أي يقودهم .



خير الدعاء دعاء يوم عرفة :

أيها الأخوة الكرام :

((**خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير))** .

[أحمد والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

ويروى عن حسين المروزي قال : سألت سفيان بن عيينة عن أفضل الدعاء يوم عرفة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فقلت له : هذا ثناء ، وليس بدعاء ، فقال : أما تعرف حديث مالك بن الحارث ، هو تفسيره ؟ قلت : حدِّثْــنيه أنت ، فقال : حدثنا مالك بن الحارث قال يقول الله عز وجل :

((**إذا شغل عبدي ثناؤه علي عن مسألتي أعطيتـــــه أفضل ما أعطي السائليـــــن))** .

قال : وهذا تفسير قول النبي ، ثم قال سفيان : أما علمت ما قال أمية بن أبي الصلت حين أتى عبد الله بن جدعان يطلب نائله " أي عطاءه " ، قلت : لا ، قال ، قال أمية :

أأذكر حاجتي أم قد كفانـــي حياؤك إن شيمتك الحيـــاء
وعلمك بالحقوق و أنت ورع لك الحسب المهذب والثناء
إذا أثنى عليك المرء يومـــــاً كفاه من تعرضه الثنـــــاء

***

ثم قال : يا حسين هذا مخلوق يكتفى بالثناء عليه دون مسألة فكيف بالخالق ؟

المؤمن الحق لا يقنط من رحمة الله :

أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، قصة سيدنا يونس عليه السلام ، خير ما يؤكد هذا المعنى ، ما من مصيبة أشد من أن يجد الإنسان نفسه فجأة في ظلمة بطن الحوت ، وفي ظلمة أعماق البحر ، وفي ظلمة الليل ، وما من م صيبة انقطعت معها كل أسباب الخلاص كهذه المصيبة ، فنادى يونس عليه السلام :



فَنَادَىٰ فِى
ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾
فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾

(سورة الأنبياء)

فاستجبنا له ، دققوا في كلمة فاستجبنا ، أي أن الله جلّ جلاله عدّ ثناء يونس دعاء، ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ** ﴾ ، انتهت القصة ، ولئلا يظن قارئ القرآن أنها قصة تاريخية وقعت مرة ولن تقع مرة أخرى جعلها الله قانوناً بهذا التعقيب ، جعلها الله قانوناً ساري المفعول في كل زمان ومكان ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، التعقيب :

وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾

(سورة الأنبياء)

أي مؤمن إذا دعا الله عز وجل مضطراً ، فإن الله سبحانه وتعالى يجيبه ، فالمؤمن الحق لا يقنط من رحمة الله ، ولا ييأس من نصر الله .

الله أكبر أكبرُ من كل شيء يشغل الإنسان عن الخشوع لربه :

لذلك لا يسع الحاج بعد أن أفاض من عرفات ، وقد حصل له هذا اللقاء الأكبر، وأشرقت في نفسه أنواره ، واصطبغت نفسه بصبغة الله ، لا يسعه وقد ذكر فضل الله عليه عند المشعر الحرام ، ذكره وشكره على نعمة الهدى والقرب ، لا يسعه وقد عبر تعبيراً رمزياً عن عداوته الأبدية للشيطان برمي جمرة العقبة ، لا يسعه بعد أن لبى دعوة ربه وحظي بقربه، ورأى طرفاً من جلال ربه وإكرامه ، لا يسعه إلا أن يكبر الله على نعمة الهدى والقبول والقرب ، لذلك قطع النبي صلى الله عليه وسلم التلبية بعد رمي جمرة العقبة والحلق ، وبدأ بالتكبير ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، كلمة موجزة لكنها خطيرة ، الله أكبر مع أخواتها ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، هي الباقيات الصالحات في قوله تعالى :



ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

(سورة الكهف)

فالمرء إذا سبّح الله حقيقة ، وحمده ، ووحده ، وكبره ، فقد عرفه ، وإذا عرفه أطاعه ، وإذا أطاعه استحق جنته ، وما عند الله خير وأبقى من الدنيا الدنية الفانية ، والله أكبر يفتتح بها الأذان ، ويختم بها ، ليشعر المسلم وهو يسمع الأذان ، وهو منغمس في عمله وتجارته ، أن ما عند الله حينما يمتثل العبد أمره بتلبية النداء أكبر من كل شيء بين يديه مهما يكن كب يراً ، والله أكبر نفتتح بها صلاتنا ، ونرددها في أثناء الصلوات الخمس ما يزيد عن مئتين وخمسين مرة في اليوم الواحد ، وقد أصاب بعض الفقهاء حين عدّها أقربَ إلى الشرط الذي ينبغي أن يستمر طوال الصلاة منها إلى الركن الذي ينقضي بأدائه ، فالمصلي ينبغي أن يلحظ في أثن اء صلاته أن الله أكبر أكبرُ من كل شيء يشغله عن الخشوع لربه .

والله أكبر نرددها عقب انتصارنا على أنفسنا ، عقب عبادة الصيام في عيد الفطر السعيد ، وعقب عبادة الحج في عيد الأضحى المبارك ، لذلك سنّ لنا النبي صلى الله عليه وسلم التكبير في العيدين ، لأنه تحقيق للعبودية لله والعودة إليه .

المؤمن مهما ازدادت معرفته بربه فالله أكبر مما عرف :

أيها الأخوة الكرام ، إذا رجع العبد إلى الله نادى مناد في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ، والله أكبر نرددها ، ونحن نواجه أعداءنا ، وبعد أن ننتصر عليهم من أجل أن نشعر أن الله أكبر من كل كبير ، وأن النصر من عند الله :

وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

(سورة آل عمران)



والله أكبر يرددها المؤمن السالك إلى الله ، فتعني عنده أنه كلما كشف له جانب من عظمة الله ، جانب من قدرة الله ، جانب من رحمة الله ، جانب من إكرام الله ، تعني عنده أن الله أكبر مما رأى .

وكما قال الإمام الشافعي : (كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي) .

ومجمل القول إن المؤمن مهما ازدادت معرفته بربه فالله أكبر مما عرف ، والعبرة كل العبرة لا في ترديد لفظها بل في معرفة مضمونها ، ومضمون هذا الكلمة يؤكده ، ويحدده سلوك المؤمن ، والنبي صلى الله عليه وسلم قمة البشر في معرفة مضمون كلمة " الله أكبر " .

المرء إن أطاع مخلوقاً وعصى خالقه فهو ما قال الله أكبر ولا مرة :

أرسلت قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقول له : " لقد أتيت قومك بأمر عظيم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها ، إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا فلا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، فلم يفلح في هذا المحاولة .

ثم حاولت قريش عن طريق عمه أبي طالب أن تكفه عن دعوته فقال له عمه أبو طالب: " يا بن أخي أَبقِ على نفسك ، وعليَّ ، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن قال قولته الشهيرة :

((**والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه**)) .

[السيرة النبوية]

الله أكبر قالها أصحاب رسول الله ، قالوها بألسنتهم ، وامتلأت بها قلوبهم ، وصدقتها أعمالهم ، ففعلوا وهم قلة ما نعجز عن فعل معشاره ، ونحن كثرة ، فالواحد ممن يقولها ، ويصدقها عمله كألف ، والألف ممن يقولها ولا يصدقها عمله كأف .

سيدنا سعيد بن عامر ، أرادت زوجته أن تحمله على الكف عن الإنفاق في سبيل الله ، قال لها : " لقد كان لي أصحاب سبقوني إلى الله ، وما أحب أن أنحرف عن طريقهم ، ولو كانت لي الدنيا وما فيها ــ وقد خشي أن تتدلل عليه بجمالها ، وهو سلاح النساء ــ فقال لها : تعلمين أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت واحدة منهن على الأرض لغلب نور وجهها



ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن أحرى وأولى من أن أضحي بهن من أجلك ، قال هذا الصحابي الجليل : الله أكبر بلسانه ، وامتلأ بها قلبه ، وصدقها عمله .

راعٍ من عامة المسلمين يرعى شياهاً قال له ابن عمر ممتحناً : بِعْنِي هذه الشاة، وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب ، وخذ ثمنها ، قال والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟!.

قال هذا الراعي ، الله أكبر بلسانه ، وامتلأ بها قلبه ، وصدقها عمله .

فإذا أطاع المرء مخلوقاً كائناً من كان ، وعصى خالقه فهو ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما أطاع الأقوى في تصوره .

وإذا غشّ المرء الناس ليجني المال الوفير ، فهو ما قال الله أكبر ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما رأى أن هذا المال أكبر عنده من طاعة الله ورسوله .

وإذا لم يقم المرء الإسلام في بيته إرضاء لأهله ولأولاده فهو ما قال الله أكبر ولا مرة ولو ردَّدها بلسانه ألف مرة ، لأنه إنما رأى أن إرضاء أهله أكبر عنده من إرضاء ربه .

من عرف مضمون الله أكبر تغير حاله من حال إلى حال :

أيها الأخوة الكرام ، كلمة الله أكبر التي سوف نرددها غداً إن شاء الله ، لو عرف المسلمون مضمونها فرددوها بألسنتهم ، وامتلأت بها قلوبهم ، وصدقتها أعمالهم ، لكانوا في حال آخر مع الله ، وموقف آخر مع الخلق .

أيها الأخوة الكرام حضوراً ومستمعين ، لنردد الله أكبر بألسنتنا ، ولنتعرف إلى مضمونها ، ولتكن أعمالنا مصدقة لها ، حتى نستحق أن يرحمنا الله ، وأن ينصرنا على أعدائنا .

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، والحمد لله رب العالمين .





الأضحية ومشروعيتها :

الأضحية شعيرة من شعائر المسلمين في عيد الأضحى المبارك ، ومشروعيتها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((**من وجد سعة ولم يضح فلا يقربن مصلانا**)) .

[أحمد وابن ماجة عن أبي هريرة]

وقد استنبط أبو حنيفة ــ رحمه الله تعالى ــ من هذا الحديث أنها واجبة ، فمثل هذا الوعيد لا يلحق بترك غير الواجب ، وقال غير الأحناف : إنها سنة مؤكدة ، ولهم أدلتهم .

فهي واجبة مرة في كل عام على المسلم الحر البالغ العاقل المقيم الموسر ، فقد قال عليه الصلاة و السلام :

((**ما عمل ابن آدم يوم النحر عمـــــلاً أحب إلى الله تعال من إراقة الدم ، إنها** – أي الأضحية – **لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافهـــــــا و أشعارها ، وإن الدم ليقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع على الأرض ، فطيبوا بها نفساً**)) .

[رواه ابن ماجه والترمذي عن عائشة]

ومن حديث أنس رضي الله عنــه قال :

((**ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر، قال: رأيته واضعا قدمه على صفاحهما ويذبحهما بيده**)) .

[البخاري عن أنس]

وحكمتها أن المسلم الموسر يعبر بها عن شكره لله تعالى على نعمه المتعددة ، منها نعمة الهدى ، ومنها نعمة البقاء على قيد الحياة من عام إلى عام ، فخيركم من طال عمره وحسن عمله ، ومنها نعمة السلامة ، والصحة ، ومنها نعمة التوسعة في الرزق ، وهي فضلاً عن ذلك تكفير لما وقع من الذنوب ، وتوسعة على أسرة المضحي ، وأقربائه ، وأصدقائه ، وجيرانه ، وفقراء المسلمين .



شروط الأضحية ووقت نحرها :

ومن شروط وجوبها اليسار ، فالموسر هو مالك نصاب الزكاة زائداً عن حاجاته الأساسية ، أو هو الذي لا يحتاج إلى ثمن الأضحية أيام العيد فقط ، أو هو الذي لا يحتاج إلى ثمن الأضحية خلال العام كله ، على اختلاف بين المذاهب في تحديد معنى الموسر .

وينبغي أن يكون الحيوان المضحى به سليماً من العيوب الفاحشة التي تؤدي إلى نقص في لحم الذبيحة ، أو تضر بآكلها ، فلا يجوز أن يضحي بالدابة البين مرضها ، ولا العوراء ، ولا العرجاء ، ولا العجفاء ، و لا الجرباء ، ويستحب في الأضحية أسمنها ، وأحسنها .

وكان صلى الله عليه وسلم يضحي بالكبش الأبيض الأقرن .

وقت نحر الأضحية بعد صلاة عيد الأضحى وحتى قبيل غروب شمس اليوم الثالث من أيام العيد ، على أن أفضل الأوقات هو اليوم الأول ما بعد صلاة عيد الأضحى وحتى قبل زوال الشمس .

ويكره تنزيهاً الذبح ليلاً ، ولا تصح الأضحية إلا من النعم ، من الإبل والبقر والغنم من ضأن ومعز ، بشرط أن يتم الضأن ستة أشهر ، وأن تتم المعز سنة كاملة عند بعض الأئمة ، ويُجزئُ المسلم أن يضحي بشاة عنه ، وعن أهل بيته المقيمين معه ، والذين ينفق عليهم ، وهم جميعاً مشتركون في الأجر ، ومن مندوبات الأضحية أن يتوجه المضحي نحو القبلة ، وأن يباشر الذبح بنفسه إن قدر عليه ، وأن يقول :

((**بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا منك وإليك ، اللهم تقبل مني ومن أهل بيتي**)) .

ولــه أن يوكل غيره وعندها يستحب أن يحضر أضحيته ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة :

((**قومي إلى أضحيتك فاشهديها ، فإنه يغفر لك عند أول قطرة من دمها**)) .

ويستحب أن يوزعها أثلاثاً ، فيأكل هو وأهل بيته الثلث ، ويهدي لأقربائه ، وأصدقائه ، وجيرانه الثلث ، ويتصدق بالثلث الأخير على الفقراء والمسلمين ، لقوله تعالى :

فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ

(سورة الحج)



قال تعالى :

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ
ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ
وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ
ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا
لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

سورة الحج)

03 - مقام إبراهيم

الحمد لله ، الحمد لله الذي جعل كلمة التوحيد لعباده حرزاً وحصناً ، وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمناً ، وأكرمه بالنسبة إلى ذاته تشريفاً وصوناً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ
وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

(سورة المائدة)

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، خير نبيٍ اجتباه ، وللعالمين أرسله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ،



اللهم صلِّ ، وسلم ، وبارك على سيدنا محمد ، سيد الخلق ، وحبيب الحق ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارضَ عنهم ، وعنا يا رب العالمين .

عباد الله ، أوصيكم ونفسي بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير

المَقْصِد الأول من العبادات هو الامتثال لأمر الله والوفاء بحقه :

أيها الأخوة الكرام في كل مكان ، إن المَقْصِدِ الأول من العبادات هو الامتثال لأمر الله ، والوفاء بحقه ، ومع هذا لا يخفى أن وراء العبادات أثاراً طيبةً ، ومنافع جمةً في حياة الفرد والجماعة ، والحجُّ هو أكثر هذه العبادات اشتمالاً على الأمور التعبدية التي لا تُعْرَفُ حكمتها معرفة تفصيلية على وجه التأكيد ، لكن الحج أوضح هذه العبادات أثراً في حياة المسلمين أفراداً و شعوباً ، كيف لا و قد قال الله عز وجل :

وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ

(سورة الحج)

إن هذا التعليل القرآني لهذه الرحلة المبلوكة ، التي يقطعها الناس قادمين من كل فج عميق ، يفتح لنا باباً رحباً للتأمل في هذه المنافع المشهودة التي قدمها القرآن الكريم .

الحج أوضح العبادات أثراً في حياة المسلمين أفراداً و شعوباً :

أيها الأخوة الكرام ، حضوراً ومستمعين ، الحج شحنة روحية كبيرة ، يتزود بها المسلم فتملأ جوانحه خشيةً ، وتقىً ، وعزماً على طاعة الله ، وندماً على معصيته ، و تغذي فيه عاطفة الحب لله ولرسوله ، ولمن عزَّرُوه ، ونصروه ، واتَّبَعُوا النور الذي أُنْزِلَ معه ، وتوقظ في المسلم مشاعر الأخوة لأبناء دينه في كل مكان ، وتوقد في صدره شُعْلَةَ الحماسة الدينية لدينه ، والغَيْرَةِ على حرماته .



أيها الأخوة الكرام ، إن الأرض المقدسة وما لها من أثرٍ في النفس ، و قوةَ الجماعة ، وما لها من إيحاءٍ في الفكر و السلوك ، كل هذا يترك أثراً واضحاً في أعماق المسلم ، فيعود من رحلته أصفى قلباً ، وأطهرَ مسلكاً ، وأقوى عزيمةً على الخير ، وأصلبَ عُوداً أمام مغريات الشر ، وكلما كان الحجُّ مبروراً خالصاً لله عز و جل ، كان أثرُه في حياة المسلم المستقبلية واضحاً ، لأن هذه الشحنة الروحية العاطفية تهز كيانه المعنوي هزاً ، بل تُنْشِئُهُ خلقاً آخر ، وتعيده كأنما هو مولود جديد يستقبل الحياة ، وكله طُهْرٌ ونقاء ، لهذا قال عليه الصلاة و السلام في الحديث الصحيح :

((**مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**)) .

[متفق عليه أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الحج تمام نعمة الله على المؤمن :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة و الإسلام ، أداء فريضة الحج ، تمام نعمة الله على المؤمن ، لقد جعل الله البيت الحرام قبلةً للمؤمن يتجه إليه كل يومٍ خمس مرات في صلاته ، وهكذا شاءت إرادة الله أن ينشغل فؤادُ المؤمن بهذا البيت ، وهو بعيدٌ عنه إلى أن يؤدي فريضة الحج ، والحج تمام نعمة الله على المؤمن ، لأن المؤمن لا يحج إلا إذا كان مستطيعاً ببدنه الذي سلمه الله له ، وقوّاه ، وبماله الذي ادخره للحج فائضاً عن حاجاته الأساسية ، وبنفقة أهله ، وعياله في غيبته فهو نوع من الغنى ، ومن تمام نعمة الله على المؤمن في الحج أن إيمانه بالله ورسوله كان في المستوى الذي حمله على مغادرة الأوطان ، وترك الأهل ، والخلان ، وإنفاق الأموال ، ومن تمام نعمة الله على المؤمن أنه ما حج بيت الله الحرام إلا وهو مؤدٍ لجميع ما كلف به من عبادات شعائرية كالصلاة ، والزكاة ، والصيام، وعباداتٍ تعاملية من توبة نصوح ، وأداءٍ لجميع الوجبات ووفاءٍ لكل الحقوق .



الحج عبادة شاملة لكل أركان الإسلام :

أيها الأخوة الأكارم في كل مكان ، الحج عبادة شاملة لكل أركان الإسلام ، ففيه من الصلاة : أنك تذهب إلى بيت الله الحرام لتصلي فيه ، وقد قال عليه الصلاة و السلام :

((**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ**)) .

[أحمدعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

و في الحج مـن الزكاة : إنفاق الأموال في التنقل ، والسُكْنَى ، والطعام ، والشراب، و الرسوم ، و في الحديث الشريف :

((**النَّفَقَةُ فِي الْحَجِّ كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ**)) .

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ]

و في الحج من الصوم : أنك تبتعد عن المباحات من لبس المخيط ، والتطيب ، والحلق ، والتقليم ، وكلها مباحة خارج الحج .

و في الحج من معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله : أنك تحج بيته الحرام تلبيةً لأمره ، وطاعةً له ، ولا أدل على ذلك من قولك في التلبية : لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك ، وتؤدي مناسك الحج كما علمنا إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال :

((**خذوا عني مناسككم**)) .

[مسلم عن جابر]

من لوازم العبودية لله في الحج :

1 ـ أن يبتعد الإنسان عن التعالي على أخيه الإنسان :

أيها الأخوة الكرام ، حضوراً ومستمعين ، الحج عبوديةٌ لله عز وجل ، عبوديةٌ لخالق السماوات والأرض رب العالمين ، إنَّ عبودية الإنسان لله تقتضي أن يبتعد عن التعالي على أخيه الإنسان ، ففي المسجد مثلاً من يَصِلُ أولاً يجلس في الصف الأول ، ومن يأتي متأخراً يجلس في الصف الأخير ، والذي يحدث أنك تجد من كان في مجتمعه في الصف الأخير قد تجده في المسجد



في الصف الأول ، إنَّ هذه المساواة في العبودية لله عز وجل تخرج الإنسان عن التعالي ، وتجعله يتواضع حيث يُحسُّ جميع المؤمنين أنهم يقفون أمام إلهٍ واحد ، لا ينظر إلى صورهم ، وهيئاتهم ، وإنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم ، هذا في بيئة المسجد ، ولكن الله جلّ جلاله أراد أن يجعل هذه المساواة ، وهذا الخضوع ليس في بيئة محدودة ، ولكن في نطاق عالمي ، وفي بيئةٍ عالمية تجمع كل أجناس البشر ، نتميز كما نشاء في بلادنا ، وبين أهلينا ، ولكن عندما نصل إلى بيت الله الحرام لابد أن نقف أمام الله متساوين كما خَلَقَنَا ، وكما سنقف أمامه يوم القيامة .

2 ــ التأدب مع كل أجناس الكون :

أيها الأخوة الكرام ، الحج أدبٌ رفيع مع عناصر الكون كلها ، فمن لوازم العبودية لله في الحج أن الله ألزم الحاج بالتأدب مع كل أجناس الكون ، مع الجماد في تقبيل الحجر الأسود ، ومع النبات في النهي عن قطعه ، ومع الحيوان في تحريم صيده ، ومع الإنسان في حرمة التشاجر معه ومجادلته .

3 ــ البكاء في بيت الله الحرام :

ويا أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، البكاء في بيت الله الحرام من لوازم العبودية لله في الحج ، وحينما يدخل الحاج بيت الله الحرام ، ويطوف حول الكعبة المشرفة تنهمر عيناه بالدموع ، هذا البكاء تعبيرٌ عن الندم على ما سبق منه من ذنوب ، وتضرعٌ إلى الله أن يقبل توبته ، وأن يعفو عنه ، هذا البكاء تعبيرٌ عن ترك العُجْبِ والكبرياء والتذلل لخالق الأرض و السماء ، هذا البكاء تعبير عن أن الحاج تخلى عن كل شيء ، وخضع إلى الله في كل شيء ، ومع أن البكاء أيها الأخوة في الأصل مظهرٌ من مظاهر الضعف ، والحزن فإنه في الحج ليس كذلك ، هذا البكاء في الحج إحساسٌ عميق بأن السعادة الحقيقية هي في القرب من الله ، "لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " ، "يا ربّ ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟" ، هذا القرب الشديد من الله عز وجل في أثناء البكاء هو الذي يجعل لهذا البكاء روحانيةً مفعمةً بالفرح ، فرح التخلص من الآثام ، ونيل رضا خالق الأكوا ن ، فرحة الانضمام إلى عباد الله الصالحين .



من الآيات البينات في بيت الله الحرام :

1 ـ مقام إبراهيم عليه السلام :

أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، في بيت الله الحرام آياتٌ بينات ، مقام إبراهيم ، أي أن هناك آياتٍ كثيرة في مقام إبراهيم .

2 ـ أنَّ إبراهيم عليه السلام كان أمة وحده :

من هذه الآيات أنَّ إبراهيم عليه السلام كان أمة وحده ، فقد اجتمعت فيه من خصال الخير ما لا تجتمع إلا في أمَّة ، تقول : هذا أمين ، وهذا صادق ، وهذا كريم ، ولكن خِصال الخير كلها اجتمعت في إبراهيم عليه السلام ، ومن هذا مقولة أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم معصومةٌ بمجموعها ، بينما النبي صلى عليه و سلم معصومٌ بمفرده .

3 ـ أن حجم الإنسان عند الله بحجم عمله :

ومن هذه الآيات البينات أنَّ حجم الإنسان عند الله بحجم عمله ، و أن إبراهيم عليه السلام من حيث العمل الذي أجراه الله على يديه ، عملُهُ يساوي عملَ أمَّة ، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك ، وهذا يذكرنا بقول الله عز وجل يخاطب النبي عليه الصلاة و السلام :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾

(سورة الأنبياء)

4 ـ أنَّ إبراهيم عليه السلام أقبل على بناء الكعبة وإعلائها تنفيذاً لأمر الله بإتقانٍ شديد :

من هذه الآيات البينات أنَّ إبراهيم عليه السلام أقبل على بناء الكعبة ، وإعلائها تنفيذاً لأمر الله تعالى ، بإتقانٍ شديد ، والإتقانُ في تنفيذ الأمر دليل قطعي على محبة الآمر ، وهذا يذكرنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم :

((**إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه**)).

[الجامع الصغير عن عائشة]



5 ـــ أن الله خلق الكون وجعله يعمل بالأسباب :

من هذه الآيات البينات أيها الأخوة في مقام إبراهيم : أن الله خلق الكون ، وجعله يعمل بالأسباب ، فالذي يأخذ بالأسباب ويتقنها تعطيه هذه الأسباب النتائج مؤمناً كان أو كافراً، لكن هناك حقيقةً كبرى هي أن خالق الأسباب فوق الأسباب ، بل هو مسببها ، إن شاء أعطاك من دون سبب ، و إن شاء منعك ، و أنت آخذٌ بالسبب ، فالسبب في علم التوحيد لا يخلق النتيجة ، لذلك في حركة الإنسان في الحياة ، ينبغي ألا يغفل عن أن خالق الأسباب ومسببها هو كل شيء ، سيدنا إبراهيم عليه السلام جاء بزوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى موقع الكعبة، الذي لا زرع فيه ، ولا ماء ، ولا وسائل للحياة ، في هذا المكان الخالي من وسائل بقاء الحياة، ترك إبراهيم زوجته وابنه الرضيع إسماعيل ، وانطلق راجعاً ، فأمسكت هاجر بزمام دابته ، وقالت له : يا إبراهيم لمن تتركنا ؟ فلم يجب إبراهيم ، قالت هاجر: آالله أمرك بهذا ، فأشار إليها أن نعم ، قالت : إذاً لن يضيعنا ، هذه قضية إيمانية كبرى ، وهي أن الله إذا أمرك بأمرٍ فبدا لك أنه يضر بمصالحك ، أو يحول بينك وبين ما تتمناه فاعلم علم اليقين أن الآمر ضامن، و أن العاقبة للمؤمن ، و أن الدنيا تأتي ، وهي راغمة ، فمن أصبح و أكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قُدِّر له ، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا ، وهي راغمة ، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوق د وني ، أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه ، وقطعت أسباب السماء بين يديه ، وما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته ، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا .

6 ـــ أن حبّ إبراهيم عليه السلام لله عز وجل يفوق الدنيا وما فيها وهو أعلى من كل حبّ:

أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، من هذه الآيات البينات في مقام إبراهيم ، أنه أُمِرَ أن يذبح ابنه الوحيد إسماعيل ، وهو في سن الشباب ، فلما بلغ معه السعي ، وأبوه شيخٌ كبير ، وزوجته عاقر ، فلم يتباطأ في التنفيذ ، ولم يدعُ الله أن يرحم شيخوخته ، وأن يعفو عن ابنه ، وعلى الرغم من قسوة الابتلاء فقد شَرَعَ في التنفيذ ، أن يقدم الإنسان على ذبح ابنه الوحيد الشاب ، والأب شيخٌ كبير ، والزوجة عاقر لا تنجب ، إنَّ من يفعل هذا يحب الله حباً يفوق الدنيا وما فيها ، حباً أعلى من كل حب ، ﷺ يقول عليه الصلاة والسلام :

((**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**)) .

[متفق عليه عَنْ أَنَسٍ]



من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً :

يا أيها الأخوة الكرام ، هذا ابتلاء حاد ما كلف به المؤمن ، ولكن نستفيد من هذه القصة أنه لو استقبلنا كل حكمٍ من الله بالقبول نأخذ ثواب الطاعة لأمر الله ، ويرفع الله عنا القضاء :

فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ
﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾

(سورة الصافات)

أيها الأخوة الكرام ، حينما يقبل المؤمن على تنفيذ أمر الله ، وهو يرى رؤيةً قاصرة أن تنفيذ هذا الأمر يضر بمصالحه المادية والمعنوية ، لكنه يؤثر طاعة الله ، والقرب منه على دنياه ، ينال عندئذٍ ثواب الطاعة ، وسعادة القرب ، وبقانون خفي لا نعرفه تتحقق مصالحه الدنيوية في أعلى مستوى ، وهذا معنى القول المأثور : "من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً" .

الله جلّ جلاله لا يريد لنا إلا الخير ولا يقضي لنا إلا بالخير :

أيها الأخ الكريم ، إذا كلفك مساوٍ لك ، نِدٌ لك ، إذا أمرك بأمر تسأله دائماً : لماذا أفعل هذا ؟ و لكن إذا أمرك الله جلّ جلاله خالق السماوات والأرض ، العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم ، إذا أمرك الله أمراً ينبغي أن تأخذ أمره بالطاعة بمقدار ثقتك في علمه ، ورحمته ، وحكمته ، فالله جلّ جلاله لا يريد لنا إلا الخير ، ولا يقضي لنا إلا بالخير ، وكلما قصر الفكر البشري عن إدراك الخير كان الخير أضخم وأكبر ، لأن الخير في هذه الحالات أكبر من أن يدركه الإنسان بعقله القاصر ، قال تعالى:



وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ
لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ



(سورة البقرة)

الله جلّ جلاله حينما يخاطب خلقه لا يخاطبهم بالتكليف ، افعلوا ، ولا تفعلوا ، إنما يدعوهم إلى الإيمان به ، فمن آمن به يكلفه ، لذلك تجد كل تكليف مسبوقاً في القرآن الكريم بـــ : يا أيها الذين آمنوا ، لأن الإنسان حينما يدخل مع الله في عقدٍ إيماني فقد آمن إيماناً قطعياً أن لله الكمال المطلق ، فإذا تلقيت الأمر الإيماني ، ولم تفهمه ، ونفذته فإنك ستجد الراحة في قلبك ، والصفاء في نفسك ، وحينما تقبل على تنفيذ أمر الله لثقتك بعلمه ، وحكمته، ورحمته يكشف لك الحكمة منه فتعود بثمرتين : ثواب العابد ، وفهم العالم .

بيت الله الحرام هو المركز الهندسي لليابسة :

أيها الأخوة الكرام ، إلى الموضوع العلمي : بيت الله الحرام مركز لدائرة تمر بأطراف قارات العالمَيْن القديم والجديد ، والأرض اليابسة موزعة حول بيت الله الحرام بصورة منتظمة ، هذه الحقيقة أكدتها أحدث الدراسات العلمية لمركز البحوث الفلكية في أحد الأقطار العربية الشقيقة ، وذلك باستخدام الحاسب الآلي في حساب المسافات بين مكة المكرمة وعدد من المدن التي تقع في أطراف العالمين القديم والحديث ، و قد ثبت بعد الحسابات التي أجريت على الحاسب الآلي أن أقصى أطراف الأرض في إفريقيا ، وأوربا ، وآسيا ، وهذا العالم القديم تقع على مسافة ثمانية آلاف كيلو متر من مكة المكرمة ، وأما بالنسبة لأطراف العالم الجديد ، وهو القارة الأميركية شمالاً ، وجنوباً ، وأستراليا ، والقارة المتجمدة الجنوبية جميع أطراف هذه القارات الثلاث تقع على مسافة ثلاثة عشر ألف كيلو متر من مكة المكرمة، ولا يقابل مكة المكرمة على سطح الأرض من الطرف الآخر يابسة ، بل بحرٌ ، إنه المحيط الهادي ، إذاً بحسب هذه الدراسة التي أجريت على الحاسب الآلي تبين أن بيت الله الحرام هو المركز الهندسي لليابسة .



إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ
ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ
ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ



(سورة آل عمران) .

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، والحمد الله رب العالمين.

***

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

فتح مدينة القدس من قِبل المسلمين :

أيها الأخوة الكرام ، عشنا في الخطبة الأولى في أجواء بيت الله الحرام ، وها نحن أولاء ننتقل الآن بحضراتكم إلى مدينة القدس ، حيث المسجد الأقصى ، ثاني المسجدين ، وثالث الحرمين الشريفين ، متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ونعود بكم القهقرى عَبْرَ بُعْدِ الزمان إلى يوم الجمعة الواقع في السابع والعشرين من شهر رجب عام خمسمئة وثلاث وثمانين للهجرة ، الموافق للثاني من تشرين الأول عام ألف ومئة وسبع و ثمانين للميلاد ، ففي هذا اليوم تمّ فتح مدينة القدس من قبل المسلمين ، وبقيادة صلاح الدين ، وتمّ تحريرها من أ يدي الغزاة الطامعين ، وها نحن أولاء نرى القلوب قد امتلأت بالفرح ، والوجوه قد عمها البشر ، ونسمع الألسنة ، وقد لهجت بالشكر ، لقد علت الرايات ، وعلقت القناديل ، ورفع الأذان ، وتلي القرآن ، وَصَفَتِ العبادات ، وأقيمت الصلوات ، وأُديمت الدعوات ، و تجلت البركات ، وانجلت الكربات ،



وزال العُبُوس ، وطابت النفوس ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، وها نحن أولاء ندخل المسجد الأقصى ، فإذا المسلمون ، وفيهم صلاح الدين وجنده يجلسون على الأرض ، لا تتفاوت مقاعدهم ، ولا يمتاز أميرهم عن واحد منهم ، قد خشعت جوارحهم ، وسكنت حركاتهم ، هؤلاء الذين كانوا فرساناً في أرض المعركة استحالوا رهباناً خُشَّعًا ، كأن على رؤوسهم الطير في حرم المسجد .

فقرات من خطبة محي الدين القرشي قاضي دمشق عند فتح مدينة القدس من قبل المسلمين:

ها هو ذا خطيب المسجد محي الدين القرشي قاضي دمشق يصعد المنبر ، ويلقي خطبةً لو ألقيت على رمال البيد لتحركت وانقلبت فرساناً ، ولو سمعتها الصخور الص م لانبثقت فيها الحياة ، وها نحن أولاء نستمع معكم إلى فقرات من خطبته.

لقد افتتحها بقوله تعالى :

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

(سورة الأنعام)

يقول هذا الخطيب : " أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة ، وردِها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المعتدين الغاصبين قريباً من مئة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ، ويذكر فيه اسمه من رجس الشرك و العدوان ، ثم قال محذراً : إياكم عباد الله أن يستزلكم الشيطان ، فيخيل لكم أن هذا النصر كان بسيوفكم الحداد ، وخيولكم الجياد ، لا والله ، ما النصر إلا من عند الله ، فاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم الله بهذا الفتح الجليل أن تقترفوا كبيرةً من مناهيه ، انصروا الله ينصركم ، خذوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وها نحن أولاء نخرج من المسجد ، ونلتقي بأحد الفرنجة الذين شهدوا فتح القدس ، وها هو ذا يحدثنا ويقول : " إن المسلمين لم يؤذوا أحداً ، ولم ينهبوا مالاً ، ولم يقتلوا مسالماً ، أو معاهداً ، و أن من شاء منا خرج ، وحمل معه ما شاء ، و أننا بعناهم ما فضل من أمتعتنا فاشتروها منا بأثمانها ، وأننا نغدو ونروح آمنين مطمئنين لم نر منهم إلا الخير والمروءة ، فهم أهل حضارة و



تمدن "، وصَدَقَ من قال : "ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم منهم "، وليته قال : " إن المسلمين لم يهدموا بيتاً ، ولم يصادروا أرضاً ، ولم ينشؤوا مستوطنة ، ولم يكسروا عظماً ".

و نعود الآن بحضراتكم إلى دمشق لنتابع خطبة الجمعة ..

المعركة بين حقين لا تكون والمعركة بين حق وباطل لا تدوم والمعركة بين باطلين لا تنتهي:

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، ماذا حول المسجد الأقصى اليوم؟ حينما تسلب أرض شعبٍ ، وتنهب ثرواته ، وتنتهك حرماته ، وتدنس مقدساته ، وتداس كرامته ، وتقهر إرادته ، وتفسد عقائده ، وتفرغ قِيَمُه ، ويزوَّر تاريخه ، ويحمل على الفساد والإفساد ، وتمارس عليه ألوان التجهيل ، والتجويع ، والتعذيب على يد أعدائه ، أعداء الله ، أعد اء الحق ، أعداء الخير ، أعداء الحياة ، عندئذٍ لا بد لهذا الشعب أن يتحرك ليسترد حقه في الحياة الحرة الكريمة .

أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، هذه الحركة لا يمكن أن تسمى إرهاباً ، ولا تخريباً ، ولا انتحاراً ، إن تعنت إسرائيل أوصل عملية السلام إلى طريق مسدود، كما قال السيد الرئيس فهي ترفض رفضاً مطلقاً كل مقومات السلام ، وتنهج نهج المراوغة ، والخداع ، وتستفز الضمير الإسلامي ، والعربي ، والإنساني بإنشاء مزيد من المستوطنات ، ويضيف السيد الرئيس قائلاً : إن الخلاص في الإسلام الذي عندما كنا متمسكين به ، لم يستطع أحدٌ أن يذلنا ، الإسلام دين الحق ، والعدالة ، و المساواة بين البشر ، الإسلام مصدر قوةٍ لنا جميعاً ، إن هذا يفرض علينا أن نناضل بكل قوانا ، وبصدق ، وإخلاص لحماية الدين الحنيف من هذه المؤامرات الاستعمارية لنحفظ له مهابته ، وجلاله ، وليبقى مصدر عزةٍ و قوة للمسلمين ، وليبقى حافزاً لتقدمهم في كل مجال .

أيها الأخوة الكرام في الأراضي المحتلة ، بوركت سواعدكم ، وسلمت أيديكم ، لقد كنتم رمز البذل والعطاء ، لقد ضربتم المثل الأعلى في التضحية والفداء ، لقد تحركت فيكم معاني العزة ، والإباء فأقلقتم مضاجع الأعداء .

استمعوا معي أيها الأخوة إلى وصية سيدنا عمر بن الخطاب إلى سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ، قال له : " أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله عز وجل ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن



تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي ، فإنها أضر عليكم من عدوكم ، وإنما تنصرون بمعصية عدوكم لله ، فإن استويتم في المعصية كان لهم الفضل عليكم بالقوة " .

لهذا قيل : المعركة بين حقين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدد ، والمعركة بين حقٍ وباطل لا تدوم ، لأن الله مع الحق ، والمعركة بين باطلين لا تنتهي .

04 - الصيام

الصيام عبادة كبرى من العبادات الشعائرية :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، بعد أيام عدة يطل علينا شهر رمضان ، شهر التوبة والغفران ، شهر الطاعة والإحسان ، شهر الذكر والحب ، شهر التقوى والقرب ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**رغم أنف عبد** ــ أي خاب وخسر ــ **أدرك رمضان فلم يغفر له ، إن لم يغفر له فمتى**)) .

[الترمذي عن أبي هريرة]

ينبغي للمرء في رمضان وفي غيره أن يخرج من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات ، ومن مدافعة التدني إلى مدافعة الترقي .

موضوع الخطبة اليوم محاولة متواضعة لفهم آيات الصيام في القرآن الكريم ، وقبل الحديث عن حكم الصيام وعن أسراره لا بد من وقفة قصيرة عند حقيقة العبادة وجوهرها ، لان الصيام عبادة كبرى من العبادات الشعائرية .

أيها الأخوة المؤمنون في كل مكان ، الإسلام دين الله الذي ارتضاه لعباده ، والمنهج القويم الذي اختاره الله لخلقه ، فينبغي للإنسان أن يسير عليه ، وتطبيق هذا المنهج عن إيمان وإخلاص هو جوهر العبادة التي هي علة وجودنا ،



قال تعالى :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات)

من العبادات ما هو تعاملي كالأمر بالصدق ، والأمانة ، والعفاف ، وإنجاز الوعد ، والوفاء بالعهد ، وتحري الحلال ، وضبط الجوارح والأعضاء ، هذه العبادات التعاملية تقوم أصولها على حسن العلاقة مع الخلق ، وأما العبادات الشعائرية كالصلاة والصوم والحج فتقوم أصولها على حسن العلاقة مع الله عز وجل إقبالاً واتصالاً واستنارة وطمأنينة .

الآية التالية لخصت شطري الدين :

أيها الأخوة الكرام ، لا تصح العبادات الشعائرية ومنها الصيام إن لم تصح العبادات التعاملية :

((**ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط .**)) .

[أبو نعيم عن أنس]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((ومن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)) .

[البخاري في الصوم عن أبي هريرة]

ولقد لخصت الآية الكريمة شطري الدين فقال تعالى على لسان سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام :

وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ

(سورة مريم)

حسن العلاقة مع الحق .

وَٱلزَّكَوٰةِ

(سورة مريم)



حسن العلاقة مع الخلق .

مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

(سورة مريم)

لكن حينما يقبل المصلي على تطبيق أمر تكليفي لعلة فيه تتفق مع مصلحته ، أو لما فيه من أسرار وحكم ، يكون إيمان هذا المرء بالأمر لا بالآمر ، والمفروض أن يكون الإيمان بالآمر ، والقصد عبادة الله ، وطلب مرضاته ، لا الوصول إلى السلامة ، وبلوغ السعادة في الدنيا .

علة كل أمر إلهي أنه أمر إلهي :

المؤمن بالله يقبل على امتثال أمره ، لأنه أمر من خالقه ذي القدرة المقتدرة ، والحكمة البالغة ، والكمال المطلق ، يقبل على الائتمار بالأمر ، لأنه أمر من خالقه وكفى ، فهمت العلة أم لم تفهم ، والمهم أن يكون الدافع إلى فعل الأمر وترك النهي هو عبادة الله وطاعته لا جني ثمار الأمر واجتناب تبعات النهي ، وإن كان هذا يحصل ممن يطيع الله عز وجل ، لكن الله جلت حكمته حينما يرى عبداً من عباده المتقين يقبل على الطاعات لأنها أوامر خالقه ، حينما يراه كذلك يكشف له بعد تطبيق الأمر علته المعجزة ، وحكمته البالغة ، وأسراره العظيمة ، وبهذا يحقق العبد عبوديته لربه وتفقهه لعلة الأمر وحكمته وأسراره ، أما الذي يعلق تطبيق الأمر على فهم حكمته ورؤية ثمرته فهو لا يعبد الله ولكن يعبد ذاته .

علة كل أمر إلهي أنه أمر إلهي ، هذه اللفتة من أجل أن يرتقي صيامنا من سلوك ذكي إلى عبادة خالصة ، يقول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

(سورة البقرة) .



لقد جرت سنة الله في خطابه أن يخاطب الناس جميعاً بأصول الدين : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ ، بينما يخاطب المؤمنين الذي آمنوا بوجوده ، وكماله ، ووحدانيته ، يخاطبهم بفروع الدين ، كالأمر ، والنهي ، والحلال ، والحرام ، فكأن الله جل في علاه في هذه الآية الكريمة يرقق الأمر بالصيام ، كأنه يقول : يا من آمنتم بي ، يا من آمنتم بعلمي وحكمتي ، يا من آمنتم برحمتي ومحبتي ، يا من أحببتموني ، لقد كتبت عليكم الصيام ، وحينما يأتي الحكم ممن آمنت به ، وممن وثقت برحمته وحكمته تثق أن هذا الأمر تأتي منه فائدة لك ، لكن لا ينبغي أن تقيس هذا الأمر بمقياس عقلك المحدود ، بل ينبغي أن تقيسه بعلم خالقك وحكمته ورحمته ، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون .

مبدأ الصوم هو ركن تعبدي موجود في الديانات السماوية السابقة للإسلام :

قد يقول الأب الرحيم : يا بني ألست والدك ؟ ألا تثق بخبرتي المزيدة ، ورحمتي الأكيدة ، وحرصي على سلامتك وسعادتك ؟ دع هذا الأمر ، ولا تقسه بعقلك الفتي ، ولا بخبرتك المحدودة ، ولا بنظرك القاصر ، بل قِسْهُ بعقل أبيك وخبرته ومحبته ، لعل في هذا الشرح توضيحاً من ارتباط قوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

(سورة البقرة)

الصيام إمساك عن الطعام والشراب ، وسائر المفطرات من الفجر حتى الغروب بنية العبادة والطاعة ، ولأن هذا النهي عن شهوة الطعام والشراب وشهوة أخرى ، شهوات مباحة وفق منهج الله عز وجل ومحببة للإنسان ، ورد في الحديث القدسي :

((**كل عمل بن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**)) .

[متفق عليه عن أبي هريرة]

وفي رواية :

((**يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**)).

[متفق عليه عن أبي هريرة]



أما قوله تعالى :

كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

(سورة البقرة)

تشير هذه الآية إلى أن مبدأ الصوم لا يختلف من زمن إلى آخر ، فهو ركن تعبدي موجود في الديانات السماوية السابقة للإسلام ، إنه منهج الله في تربية الإنسان ، أما قوله تعالى :

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

(سورة البقرة)

أي لعلكم تدعون المعاصي وتلزَمون الطاعات ، لا في شهر رمضان فحسب بل في كل أشهر العام .

معنى الصيام الحقيقي :

ليس القصد أن ننتصر على أنفسنا في رمضان ثم نتخاذل أمامها بقية العام ، ولكن الصيام الحقيقي أن نحافظ على هذا النصر على طول الدوران وتقلبات الزمان والمكان ، ليس القصد أن نضبط ألسنتنا في رمضان فننزهها عن الغيبة ، والنميمة ، وقول الزور ، ثم نطلقها بعد رمضان إلى الكذب والبهتان ، ولكن الصيام الحقيقي أن تستقيم منا الألسنة وأن تصلح فينا القلوب ما دامت الأرواح في الأبدان .

ليس القصد أن نغض أبصارنا عن محارم الله ، وأن نضبط شهواتنا غير المشروعة في رمضان ، ثم نعود إلى ما كنا عليه بعد رمضان ، إنا إذاً كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، ولكن الصيام الحقيقي أن تصوم جوارحنا عن كل معصية في رمضان وبعد رمضان حتى نلقى الواحد الديان .

ليس القصد أن نتحرى الحلال خوفاً من أن يرد علينا صيامنا ، ثم نتهاون في تحريه بعد رمضان ، على أنه عادة من عاداتنا ، ونمط شائع من سلوكنا ، ولكن الصيام الحقيقي أن يكون الورع مبدأً ثابتاً وسلوكاً مستمراً في حياتنا .



ليس القصد أن نبتعد عن المجالس وعن المشاغب التي لا ترضي الله إكراماً لشهر رمضان ، ثم نعود إليها ، وكأن الله ليس لنا بالمرصاد في بقية الشهور والأعوام .

ليس القصد أن نراقب الله في أداء واجباتنا وأعمالنا ما دمنا صائمين ، فإذا ودعنا شهر الصيام آثرنا حظوظ أنفسنا على أمانة أعمالنا وواجباتنا ، مثل هذا الإنسان لم يفقه حقيقة الصيام ، ولا جوهر الإسلام ، إنه كالناقة حبسها أهله ، ثم أطلقوها فلا تدري لا لما عقلت ولا لما أطلقت .

الشيء المهم الذي ينبغي أن نستوعبه هو أن الله تعالى لم يصطف رمضان من بقية الشهور ليكون شهر الطاعة والقرب ، فحسب بل أراده شهراً يتدرب فيه الإنسان على الطاعة ، حتى يذوق حلاوة القرب ، وعندها تنسحب هذه الطاعة وذاك القرب على كل شهور العام ، فيكون رمضان عندئذ قفزةً نوعية مستمرة في مجال الطاعة والقرب .

الحكمة من الاصطفاء :

الحكمة من أن الله تعالى أمرنا بالإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غياب الشمس هي أن الإنسان حينما يدع ما هو مباح امتثالاً لأمر الله لا يستطيع ولا يتوازن مع نفسه أن يقترف ما هو محرم في هذا الشهر ، فترك المحرمات أولى من ترك المباحات ، فحينما يصطفي الله شهراً من الشهور لتصفو فيه العلاقة بالله يصطفيه من أجل أن يشيع هذا الصفاء مع الله في كل الشهور ، لأن الله مع المؤمن في كل زمان ، وحينما يصطفي الله مكاناً كبيته الحرام ، ويدعو المؤمنين إليه ليذوقوا حلاوة القرب فيه ، يريد أن ينسحب هذا القرب على كل الأمكنة ، لأن الله مع المؤمن في كل مكان ، وحينما يصطفي الله إنساناً فيكشف له الحقائق ، إنما يصطفيه ليكشف من خلاله الحقائق لكل الناس ، وحينما يصطفي الله إنساناً ليوحي إليه الأمر والنهي والمنهج القويم ، إنما يصطفيه ليكون هذا المنهج مطبقاً لدى كل الناس .

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

(سورة هود)



إن الله أمر المؤمنين بما أمر المرسلين ، وحينما يصطفي الله إنساناً ليسعده سعادة أبدية ، إنما يصطفيه ليسعد بدعوته كل الناس .

مجمل القول ، حينما يصطفى الله زماناً كرمضان ، ومكاناً كبيته الحرام ، وإنساناً كسيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام ، إنما شاء الله جل جلاله أن يشيع اصطفاء الإنسان في كل الناس ، واصطفاء المكان في كل الأمكنة ، واصطفاء الزمان في كل الأزمنة .

الله جلّ جلاله يعطي الرخصة للإفطار عندما يكون التكليف فوق الوسع :

ثم يقول الله تعالى :

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ

(سورة البقرة)

إنها أيام قليلة تعد على الأصابع ، أياماً معدودات ، إنها أيام قليلة اصطفاها الله لتكون أيام طاعة وقرب ، فلعل الطاعة والقرب تستغرق كل أيام العام ، ثم يقول الله تعالى:

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ

(سورة البقرة)

الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وسع النفس لا يستطيع أي إنسان أن يقدره بعقله لكن الله وحده الذي خلق ، والذي صنع بعلمه ، وخبرته ، وحكمته ، ورحمته هو وحده الذي يقدر الوسع ، فهو جل جلاله يعطي الرخصة عندما يكون التكليف فوق الوسع ، وتحديد المرض الذي يبيح الفطر يكون بغلبة الظن أو بإخبار طبيب مسلم ورع حاذق ، وكذلك السفر الذي تقصر فيه الصلاة يعد علةً للإفطار في رمضان ، لذلك لا يقبل في الدين أن يقول إنسان من خلال تحكيم عقله في موضوع تكليفي : هذا الأمر لا أقدر عليه ، والله لن يؤاخذني على تركه إلا أن ترد في هذا الأمر رخصة من الذي خلق الإنسان ، ويعلم حقيقة وسعه في أحد



الوحيين الكتاب أو السنة ، وحينما يطيق المسلم الصيام مع السفر أو المرض فالأولى أن يصوم ، لقول الله عز وجل في سورة البقرة :

وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤

(سورة البقرة)

هذا وجه من وجوه تفسير الآية ، لأن القرآن حمال أوجه .

الاهتداء إلى الله والتزام منهجه والوصول إليه والتنعم بقربه ثمرة يانعة من ثمار الصيام :

أيها الأخوة المؤمنون :

وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤

(سورة البقرة)

تتمة الآيات ، الشريعة رحمة كلها ، مصلحة كلها ، عدل كلها ، فكل قضية خرجت من الرحمة إلى القسوة ، ومن المصلحة إلى المفسدة ، ومن العدل إلى الجور ، فليست من الشريعة ، ولو أُدخلت عليها بألف تأويل وتأويل . ويقول الله عز وجل :

وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ

(سورة البقرة)

العدة أيام رمضان :

وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ

(سورة البقرة)

الاهتداء إلى الله ، والتزام منهجه ، والوصول إليه ، والتنعم بقربه ثمرة يانعة من ثمار الصيام ، عندئذ تقتضي فطرة الإنسان التي فطر عليها شكر المنعم على نعمه ، وهل من نعمة أجل وأبقى من نعمة الهدى ؟ فماذا وجد يا رب من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟



فطرة الإنسان تقتضي بعد أن هداه الله إليه أن يتوجه إليه بالشكر والدعاء :

ما دام الصائم قد ذاق حلاوة القرب في شهر الصيام ، فهو سيتجه بحكم فطرته بالشكر لله عز وجل على ما أولاه من نعم المعرفة والقرب ، وهنا من المناسب جداً أن يقول الحق جل جلاله عقب آيات :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(سورة البقرة)

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ ﴾ ، ولم يقل : إن سألك ، لأن (إذا) في اللغة تفيد تحقق الوقوع ، بينما (إن) تفيد احتمال الوقوع ، قال تعالى :

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾

(سورة النصر)

وقال :

إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا

(سورة الحجرات)

فالفاسق قد يأتي وربما لا يأتي ، لكن نصر الله محقق ، فرق كبير بين (إذا) وبين (إن) ، قال تعالى :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي

(سورة البقرة)

أي فطرة الإنسان تقتضي بعد أن هداه الله إليه أن يتوجه إليه بالشكر والدعاء :

﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

(سورة البقرة)



حقيقة التوحيد :

من لوازم معرفة الله والوصول إليه والتنعم بقربه التوجه إليه وحده بالسؤال والدعاء ، وهذه هي حقيقة التوحيد وهي جوهر الدين وكل دين سماوي . قال عليه الصلاة والسلام :

((**ثلاثة لا ترد دعوتهم ؛ الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، يقول الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**)) .

[أخرجه الترمذي وأحمد في مسنده عن أبي هريرة]

لو تأملتم في آيات القرآن مادة السؤال لوجدتم أن كل سؤال ورد في القرآن ورد في جوابها كلمة (قل) :

وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ

(سورة البقرة)

وقال :

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾

(سورة طه)

إلا في هذه الآية :

﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ

(سورة البقرة)

لم ترد كلمة (قل) بين السؤال والجواب ، لذلك يقول العلماء : إن عدم ورود كلمة (قل) في هذه الآية هي إشعار من الله لعباده المؤمنين بأنه ليس بين العبد وبين ربه في سؤاله له ودعائه إياه وسيط :



فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ



(سورة هود)

العبد الذي جمعه عبيد هو عبد القهر لكن العبد الذي جمعه عباد هو عبد الشكر :

((سأل بعض الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى: "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب" .))

[ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن الصلت بن حكيم عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جده]

وقفنا عند إذا ، وعند السؤال ، أما هنا كلمة عباد غير كلمة عبيد ، فكل من في الأرض من البشر هم عبيد لله ، لأنهم مفتقرون في وجودهم وفي استمرار وجودهم ، وخصائصهم ، وحاجاتهم ، ومقهورون في هذا الوجود إلى الله ، لكن العباد هم الذين تعرفوا إليه ، والتزموا منهجه ، وتقربوا منه مبادرةً منهم وبمحض اختيارهم ، فالعبد الذي جمعه عبيد هو عبد القهر ، لكن العبد الذي جمعه عباد هو عبد الشكر ، قال تعالى :

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ

(سورة فصلت)

العبيد جمع عبد قهر ، لكن الله سبحانه وتعالى يقول :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ ﴿١٨٥﴾

(سورة البقرة)

هؤلاء الذين عرفوني والتزموا منهجي وشكروا نعمائي . لماذا قال الله تعالى :

فَإِنِّي قَرِيبٌۖ

(سورة البقرة)



ليشعر المؤمن أن الله معه في كل مكان ، وفي كل زمان ، وفي كل حال ، وأنه ما عليه إلا أن يدعوه مؤمناً ومخلصاً فيجيب دعوته ، لكن الإنسان لضعف إيمانه ، أو لضعف توحيده يدعو غير الله ، لذلك يقول الله عز وجل :

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

(سورة فاطر)

حظ المؤمن من الدعاء الإجابة أو التعبد :

سؤال آخر ، لماذا لا يستجيب الله أحياناً لمن يدعوه ؟ هذا السؤال أجاب عنه النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه قال :

((إن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يقول : يا رب يا رب ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب له ؟)) .

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

لذلك قال الله تعالى :

﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(سورة البقرة)

﴿**وَلْيُؤْمِنُواْ بِي**﴾ ، تؤمن به ، وتستجيب لأمره ، فيجيب دعاءك ، ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ ، يرشدون إلى الدعاء المستجاب ، أو إلى سعادة الدنيا والآخرة .

حينما لا يستجاب الدعاء يعزى ذلك إما إلى فساد الداعي وانحرافه عن منهج الله ، أو أنه ليس من الرحمة والحكمة أن يستجاب له ، فلو كشف الغطاء لاخترتم الواقع ، وعلى كل فحظ المؤمن من الدعاء الإجابة أو التعبد ، فالدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((هو العبادة)) .

[ابن ماجة وهو حديث صحيح من حديث النعمان بن بشير]



لقول الله عز وجل :

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

(سورة غافر)

فوائد التمر :

أخوتنا الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، قال العلماء : إن الصيام يخفف العبء عن جهاز دوران القلب والأوعية ، حيث تهبط نسب الدسم والحموض في الدم إلى أدنى مستوى ، الأمر الذي يقي من تصلب الشرايين ، وعمر الإنسان بحسب قول الأطباء من عمر شرايينه ، والصيام أيضاً يريح الكليتين ، وجهاز الإفراز ، حيث تقل نواتج استقلاب الأغذية إلى أدنى مستوى ، عندها يكون هذا وقاية من آلام المفاصل ، ويتحرك سكر الكبد ، ويحرك معه الدهن المخزون تحت الجلد ، ويحرك معه بروتين العضلات ، إذاً صيام رمضان يعد عند الأطباء دورة وقائية سنوية تقي من كثير من الإمراض ، ويعد دورة علاجية أيضاً بالنسبة لبعض الأمراض ، وإنه يقي من أمراض الشيخوخة التي تنجم عن الإفراط في إرهاق العضوية ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**صوموا تصحوا**)) .

[رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة]

وشيء آخر :

((**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر على تمرات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن تمرات حسا حَسَوَاتٍ من الماء**)) .

[رواه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك]

عن سلمان بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((**إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة ، فإن لم يجد تمراً فالماء طهور**)).

[أخرجه الترمذي وأبو داود عن سلمان بن عامر]

هذان الحديثان من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام .



الحكمة من تناول التمر في رمضان :

العلماء قالوا : التمر الذي يتناوله الصائم مع الماء فيه خمس وسبعون بالمئة من جزئه المأكول مواد سكرية أحادية، سهلة الهضم ، سريعة التمثل ، إلى درجة أن ا لسكر الذي فيها ينتقل من الفم إلى الدم في أقل من عشر دقائق ، وفي الحال يتنبه مركز الإحساس بالشبع في الجملة العصبية ، فيشعر الصائم بالاكتفاء ، فإذا أقبل على الطعام بعد صلاة المغرب أقبل عليه باعتدال ، وكأنه في أيام الإفطار ، بينما المواد الدسمة الدهنية والبرو تينية يستغرق هضمها وامتصاصها أكثر من ثلاث ساعات ، فمهما أكثر الإنسان من الطعام الدسم لا يشعر بالشبع ، ولكن يشعر بالامتلاء ، وفرق كبير بين أن تشعر بالشبع بلقيمات في معدتك وبين أن تشعر بالامتلاء فقط بعد أن تكتظ المعدة بالطعام ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يفطر على تمرات ، ويصلي المغرب ثم يجلس إلى الطعام ، ومن لم يطبق سنة النبي صلى الله عليه وسلم في إفطاره فاته خير كثير من صيامه .

أيها الأخوة في كل مكان ، تتركب التمور من السكريات الأحادية ، وهذا النوع من السكر هو أسرع السكاكر امتصاصاً في جسم الإنسان ، حيث ينتقل سكر التمر من الفم إلى الدم في أقل من عشر دقائق ، وتتركب التمور أيضاً من الألياف السليلوزية التي لها آثار مدهشة في عملية الهضم ، وفي وقاية الأمعاء من الأمراض الوبيلة ، وتتركب التمور أيضاً من المواد البروتينية المرممة للأنسجة ومن نسب ضئيلة من الدهون ، وتحتوي التمور على خمسة أنواع من الفيتامينات الأساسية التي يحتاجها الإنسان ، وتحتوي التمور على ثمانية معادن ، ومئة غرام من التمور فيها من نصف إلى خمس حاجة الجسم من المعادن ، ويحتوي التمر على اثني عشر حمضاً أمينياً ، وفيه مواد قابضة وملونة ، وهناك خمسون مرضاً يسببها الإمساك ، والتمر يقي من الإمساك ، وله آثار إيجابية للوقاية من فقر الدم ، ومن ارتفاع الضغط ، ويعين على التئام الكسور ، وهو ملين ، ومهدئ ، وقد أثبتت الأبحاث أن التمر لا يتلوث بالجراثيم ، حتى في أيام الإفطار ينبغي أن تقدم الفاكهة إن وجدت ، لما فيها من سكاكر أحادية على وجبات الطعام الدسمة التي تحوي غالباً مواد يطول هضمها ، استنباطاً ظنياً من قوله تعالى وهو يصف أهل الجنة :

وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾

(سورة الواقعة)



الباب الرابع: المعاملات



01 - الجانب الاجتماعي في الإنسان

02 - التعاون واجب ديني



01 - الجانب الاجتماعي في الإنسان

الفضائل الاجتماعية والمصالح المادية :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، في شخصية الإنسان جانب مادي ، وجانب فكري ، وجانب نفسي ، وجانب اجتماعي ، وجوانب أخرى ، والخطبة اليوم عن الجانب الاجتماعي في الإنسان وعلاقته بالإسلام ، الدين الذي ارتضاه الله لعباده ، وختم به رسالات السماء ، وأخبر بأنه سيظهره على الدين كله .

أخوة الإيمان في كل مكان ، من حاجات الفرد الأساسية حاجة الإنسان إلى المحبة أي إلى أن يُحِب ، والى أن يُحَب ، وحاجته إلى التقدير أن يقدره الآخرون ، وحاجته إلى الأنس ، وحاجته إلى الأمن ، وحاجته إلى معونة الآخرين ، وحاجته إلى نصرتهم والتقوي بهم، وحاجته إلى الأخذ من معارفهم وخبراتهم ومنجزاتهم ، بل إن هناك حاجات عضوية لا تتحقق مع الإنسان إلا بغيره ، كل هذه الحاجات تولد في نفس الفرد الميل إلى الجماعة ، الميل إلى الانخراط فيها والاندماج معها تلبية لحاجاته العضوية ، والنفسية ، والفكرية ، والى جانب هذا الدافع الاجتماعي في الإنسان نجد الفردية والأثرة التي تغذيها الغرائز والمصالح ، وحينما تصطدم النزعة الاجتماعية في الفرد مع مصالحه المادية نجد الإنسان المتفلت من منهج الله يؤثر مصالحه المادية ، ويلقي بفضائله الاجتماعية عرض الطريق ، وهذا ما نجده في الأفراد والمجتمعات المادية .

أيها الأخوة الكرام ، هذا هو الإنسان قبل أن يعرف الواحد الديان ، وقبل أن يستنير عقله ، وقبل أن تزكو نفسه ، وقبل أن يصلح عمله ، لكن الإسلام حينما غذَّى في الفرد الدافع الاجتماعي ، وحث على لزوم الجماعة ، ووهن فردية الإنسان وانعزاليته أراد أن يصعد هذا الدافع الاجتماعي ، وأن يسمو به في كل مراحله ومستوياته ، فجعل الإسلام الدافع الاجتماعي في المسلم ينبعث من عبادة الله وطلب مرضاته عن طريق خدمة عباده لا من تلبية حاجاته المادية والمعنوية ، وجعل الإسلام النشاط الاجتماعي للمسلم يسري في قنوات نظيفة حددها الشرع الحكيم ضماناً لسلامة الفرد ، وضماناً لسلامة المجتمع من الفساد والانحلال ، وجعل كثيراً من الفضائل



الخلقية والأعمال الجليلة لا تتحقق إلا عن طريق العمل الجماعي ، وجعل الفردية والانعزالية سبباً لكثير من الرذائل الخلقية والأعمال الخسيسة ، أما حينما يفسد المجتمع ، وتنهار فيه القيم ، وتداس فيه المبادئ بأقدام المصالح عندئذ يأمر الإسلام بجفوة هذا المجتمع واعتزاله .

النصوص القرآنية والنبوية التي تؤكد بعض الأسس الاجتماعية :

هذه أيها الأخوة ، بعض الأسس الاجتماعية من خلال مبادئ الإسلام وتشريعاته ، والآن إلى النصوص القرآنية والنبوية التي تؤكد تلك المنطلقات .

روى الترمذي بسنده عن عمر بن الخطاب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد ، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة)) .

[الترمذي عن عمر بن الخطاب]

وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ، وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن بأنه مَألف أي أنه يألف ويؤلف ، فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((المؤمن مألف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف)) .

[أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه]

وتعميقاً لوحدة جماعة المؤمنين شبه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالبنيان يشد بعضه بعضاً ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وشبك بين أصابعه الشريفة)) .

[متفق عليه عن أبي موسى الأشعري]



وزاد النبي صلى الله عليه وسلم في تعميق معنى وحدة المؤمنين حينما بيَّن أن كتلتهم الواحدة المتماسكة وبناءهم المتشابك بناء تسري فيه روح واحدة ، وحس مشترك ، فهم كالجسد الواحد تتعاون جميع أعضائه تعاوناً تاماً ، روى مسلم عن النعمان بن البشير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((**المؤمنون كرجل واحد ، إذا اشتكى عينَه اشتكى كلُّه وإن اشتكى رأسَه اشتكى كلُّه**)) .

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم عن النعمان بن بشير]

وقال أيضاً :

((**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**)) .

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم عن النعمان بن بشير]

أشار القرآن الكريم إلى ضرورة انتماء المؤمن إلى مجموع المؤمنين :

أخوة الإيمان في كل مكان ، أما القرآن الكريم فقد أشار إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من انتماء عميق إلى مجموع المؤمنين ، ومن سمو المشاعر الجماعية عنده ، ومن إيجابية مواقفه الغيرية ، قال تعالى :

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ

(سورة البقرة)



قال تعالى :﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ** ﴾ . ولم يقل : ولا تأكلوا أموال أخوانكم ، وكأن الآية تقول أيها المؤمن مال أخيك هو في الحقيقة مالك من زاوية أن قوة أخيك المالية قوة لك، وفي أكل ماله إضعاف للمجموع وإضعاف لك ، ومال أخيك هو في الحقيقة مالك من زاوية ثانية ، من زاوية وجوب المحافظة عليه فلأن تمتنع عن أكله بالباطل من باب أولى ، ومال الفرد المسلم هو مال للجماعة ، فينبغي أن ينفق وفق المنهج الإلهي الذي يوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فلو أنفق المال إسرافاً وتبذيراً أضر بالجماعة ، لذلك يأمر الإسلام أن يحجر على تصرفات السفيه ، وأن تكف يده عن ماله ، قال تعالى :

وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾

(سورة النساء)

ومثل هذا قوله تعالى :

وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ

(سورة الحجرات)

ومعلوم في البديهة أن الإنسان لا يلمز نفسه ، وإنما يلمز غيره أي يحقره ، ولكن لما كان المعنى الجماعي سارياً في كل الأفراد كان من يلمز أخاه كأنما يلمز نفسه ، لأن له نصيباً من مضرة ما فعل ، بوصفه جزءاً من الجماعة التي آذى بعض أفرادها ، فسرى الإيذاء إلى الجماعة كلها .



بعض الأحاديث النبوية عن تعميق روح الجماعة بين المؤمنين :

أيها الأخوة الكرام حضوراً ومستمعين ، ترسيخاً لروح الجماعة أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجتمع المسلمون على الطعام ليبارك لهم فيه ، قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما نأكل ولا نشبع ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((**فلعلكم تفترقون ، قالوا نعم ، قال : فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه**)) .

[أبو داود عن وحشي بن حرب]

حينما يعتذر بعض الانعزاليين بأنهم يريدون أن يسلموا من أذى الناس بسبب مخالطتهم ، لذلك هم يؤثرون الابتعاد عن المجتمع ، يأتيهم البيان النبوي يؤكد لهم أن المسلم الذي يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم ، حتى إن بعض العبادات في الإسلام لا تؤدى إلا بشكل جماعي كعبادة الحج ، وصلاة الجمعة، وصلاة العيدين ، وصلاة الجنازة ، بل إن الإسلام حرص على أن تؤدى الصلوات الخمس جماعةً في المساجد ، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه :

((**من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله**)) .

[مسلم عن جندب بن عبد الله]

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

((**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ** – أي الفرد – **بسبع وعشرين درجة**)) .

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

ولعل من أبلغ ما قيل في تعميق روح الجماعة بين المؤمنين قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال :



((لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه))

[أخرجه البخاري ومسلم عن أنس]

الدافع الاجتماعي الذي غذاه الإسلام وسمى به ينبغي أن تضبطه ضوابط :

أيها الأخوة المستمعون ، أيتها الأخوات المستمعات ، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الدافع الاجتماعي الذي غذاه الإسلام وسمى به ينبغي أن تضبطه ضوابط ، وأن تنظمه أوامر ، وأن تحصنه أخلاقه ، وأن تحكمه قيم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله أخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى هاهنا وأشار إلى صدره الشريف ثلاث مرات ، بحسب مريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)) .

[رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة]

وقال الإمام النووي عن هذا الحديث ما أعظم نفعه وما أكثر فوائده ، وقال عنه ابن حجر الهيثمي : هذا الحديث حوى أكثر أحكام الإسلام منطوقة ومفهومة ، وحوى أكثر الآداب إيماءً وتحقيقاً ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ينهى عن الحسد الذي يرجع إلى ضعف الإيمان بحكمة الله وعدالته ، وتمني زوال النعمة عن الآخرين ، وهذا التمني مناقض للأخوة الإيمانية ، فلا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن النجش ، وهو شراء صوري بسعر مرتفع بقصد الإضرار بالمشتري الحقيقي ، وتحقيق ربح غير مشروع ، وهو بالمعنى الموسع مطلق الخديعة والمكر ،



قال تعالى :

وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ

(سورة الحجرات)

وفي الحديث الشريف :

((**المكر والخداع في النار**)) .

وفي الحديث الآخر :

((**ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به**)) .

[الترمذي عن أبي بكر الصديق]

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التباغض والتدابر والهجران :

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التباغض بسبب الأهواء والمصالح ، وحقيقة النهي عن التباغض هو نهي عن أسباب التباغض ، فكل موقف ، أو تصرف ، أو كلام من شأنه أن يجرح أخاك فيبغضك محرَّم في دين الله ، والتباغض أيها الأخوة يتناقض مع الألفة والمحبة ، التي هي من خصائص المؤمنين ، قال تعالى في سورة آل عمران :

وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ 



(سورة آل عمران)

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التدابر والهجران ، ففي صحيح البخاري :

((لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث .))

[البخاري عن أنس بن مالك]

ومن هجر أخاه ستة أيام فهو كسفك دمه .

وبعد أن نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أسباب العداوة والبغضاء أمر بكل ما من شأنه أن يمكِّن المحبة والألفة والتآخي بين المؤمنون فقال عليه الصلاة والسلام :

((وكونوا عباد الله أخوانا)) .

[رواه مسلم عن أنس بن مالك]

فأنتم عباد الله ، ومن شأن العبد أن يطيع الله ربه فيما أمر وفيما نهى ، والله يريدكم أن تكونوا أخواناً .

في حديث آخر يبين النبي صلى الله عليه وسلم حقوق المسلم على المسلم ، ولا شك في أن أداء هذه الحقوق تورث المحبة والألفة والأخوة ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((حق المسلم على المسلم خمس ، رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنازة وتشميت العاطس ، وفي رواية لمسلم ، وإذا استنصَحَك فانصحْه)) .

[متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

من حقه عليك .



حرم النبي الكريم ظلم المسلم وخذلانه وتكذيبه وتحقيره أشد التحريم :

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن كل ما من شأنه أن يسبب تنافر القلوب واختلافها ، فقد حرم النبي عليه الصلاة والسلام أشد التحريم ظلم المسلم ، فلا يدخل عليه ضرراً في نفسه ، أو دينه ، أو عرضه ، أو ماله ، وحرم النبي صلى الله عليه وسلم أشد التحريم خذلان المسلم في دنياه ، كأن يقدر الرجل على نصرة أخٍ مظلوم ، وكف يد ظالمه ، ثم لا يفعل ، وكأن يقدر المسلم على نصرة أخيه في آخرته ، كأن يقدر على نصحه وكفه عن غيه فلا يفعل ، روى الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((**من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره أذله الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة**)) .

[أحمد عن أبي أمامة بن سهل عن أبيه]

وحرم النبي صلى الله عليه وسلم أشد التحريم أن يُكذب المسلم ، أو يُكذَب عليه ، فقد قال عليه الصلاة والسلام :

((**كبرت خيانةً أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب**)) .

[أحمد وابن عدي والبيهقي عن النواس بن سمعان]

وحرم النبي صلى الله عليه وسلم أشد التحريم تحقير المسلم ، لأن الله لما خلقه كرمه ورفعه وكلفه ، واحتقار المسلم تطاول على مقام الربوبية ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((**بِحسْبِ المْرِءِ مِنَ الشرّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ**)) .

[رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي اللّه عنه]



والاحتقار ناشئ عن الكبر ، لما رواه مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**الكبر بطر الحق** – أي رده – **وغمص الناس**)) .

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود]

أي احتقارهم ، وفي صحيح مسلم :

((**لا يَدْخُل الجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**)) .

[رواه مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وتعليل ذلك أن الكبر يتناقض مع العبودية لله ، فكما أن قطرة من النفط واحدة تفسد قربة من العسل ، كذلك ذرة من الكبر تفسد العبادة كلها .

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم أن للمسلم حرمة في دمه ، وحرمةً في ماله ، وحرمةً في عرضه ، وهذه الحرمات الثلاث يقوم عليها المجتمع المسلم الآمن ، وحفاظاً على الدم من أن يسيل ، وعلى المال من أن يسرق ، وعلى العرض من أن ينتهك شرَّع القصاص في الإسلام ، وأعلنت الحدود ، قال تعالى :

وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

(سورة البقرة)

بل إن ترويع المسلم محرم في الإسلام ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً**)) .

[الطبراني عن النعمان بن بشير ، ابن المبارك عن أبي هريرة]



قصة تُظهِر التعاون والإخلاص للمبدأ والتناصح :

أيها الأخوة المسلمين ، أيتها الأخوات المسلمات ، بعد أن تحدثت عن المنطلقات النظرية للجانب الاجتماعي في شخصية المسلم ، وبعد أن تحدثت عن النصوص القرآنية والنبوية التي تعد أصلاً في الروح الجماعية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون ، ننتقل الآن إلى الوقائع ، فهذه قصة جرت وقائعها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ممكن أن نستشف منها روح التعاون والإخلاص ، وروح التناصح بين المؤمنين .

غلام صغير اسمه عمير بن سعد الأنصاري تجرع كأس اليتم والفاقة منذ نعومة أظفاره ، وتزوجت أمه من ثري من أثرياء الأوس يدعى الجلاس بن سويد ، أحب عمير عمه الجلاس حب الابن لأبيه ، وأولع الجلاس بعمير ولع الوالد لولده ، وكان عمير لا يتخلف عن صلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي السنة التاسعة للهجرة أعلن النبي صلى الله عليه وسلم عن عزمه على غزو الروم في تبوك ، وأمر المسلمين أن يستعدوا ، ورأى عمير كيف أن المسلمين يبذلون كل ما في وسعهم لتجهيز هذا الجيش الغازي ، فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يأتي بألف دينار ذهباً ويضعها بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يحمل مئتي أوقية من الذهب ويضعها بين يدي النبي عليه ال صلاة والسلام ، وهؤلاء نساء المهاجرين والأنصار ينزعن حليهن ليقدمنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا رجل يعرض فراشه للبيع ليشتري بثمنه سيفاً يقاتل به ، وهؤلاء النفر الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يضمهم إلى الجيش فردهم لأنه لم يجد ما يحملهم عليه ف تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً .

وعجب عمير الفتى الأنصاري من تباطأ عمه الجلاس عن البذل لهذا الجيش ، وعرض عليه هذه الصور المشرقة من بذل الصحابة الأغنياء والفقراء على حد سواء ، فما كان من الجلاس إلا أن قال : يا عمير إن كان محمد صادق فيما يدَّعيه من النبوة فنحن شر من الحمير ، شده عمير مما سمع ، ورأى أن في السكوت على الجلاس والتستر عليه خيانة لله ورسوله ،



وإن في إذاعة ما سمعه عقوقاً بالرجل ، فقال لعمه الجلاس : والله يا عم ما كان على ظهر الأرض أحد بعد محمد بن عبد الله أحب إلي منك ، ولقد قلت مقالة إن ذكرتها فضحتك ، وإن أخفيتها خنت أمانتي ، وأهلكت نفسي ، وقد عزمت على أن أمضي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بما قلت قبل أن ينزل وحي يشركني في إثمك ، فكن على بينة من أمرك ، ومضى الفتى عمير إلى المسجد ، وأخبر النبي بما سمع ، واستدعى النبي صلى الله عليه وسلم الجلاس ، وسأله عن مقالته لعمير فقال : كذب علي يا رسول الله وافترى فما تفوهت بشيء من ذلك ، فقال بعض الحاضرين : فتىً عاقّ أبى إلا أن يسيء لمن أحسن إليه ، وقال آخرون : بل إنه غلام نشأ في طاعة الله ، والتفت النبي عليه الصلاة والسلام إلى عمير فرأى وجهه قد احتقن بالدم ، والدموع تنحدر من عينيه ، وهو يقول : اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به ، فانبرى الجلاس ، وقال : يا رسول الله إني أحلف بالله ما قلت شيئاً مما نقله إليك عمير ، ثم غشيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم السكينة ، فعرف أصحابه أنه الوحي ، فلزموا أماكنهم حتى سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سُرِّي عنه تلا قوله عز وجل :

يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ

(سورة التوبة)

ارتعد الجلاس من هول ما سمع ثم التفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : بل أتوب يا رسول الله ، صدق عمير ، وكنت من الكاذبين ، اسأل الله أن يقبل توبتي جُعلت فداك يا رسول الله ، ثم توجه النبي الكريم إلى عمير بن سعد فإذا دموع الفرح تبلل وجهه المشرق ، فمد يده الشريفة إلى أذنه فأمسكها برفق وقال : وفّت أذنك يا غلام ما سمعت ، وصدقك ربك ، وعاد الجلاس إلى حظيرة الإسلام ، والشيء الغريب أن الصحابة عرفوا صلاح حاله مما كان يغدقه



على عمير من بر ، فقد كان يقول كلم ا ذكر عمير : جزاه الله عني خيراً لقد أنقذني من الكفر وأعتق رقبتي من النار .

أرأيتم أيها الأخوة إلى التعاون والإخلاص للمبدأ والتناصح .

الأمر التكويني والأمر التكليفي :

أيها الأخوة المؤمنون ، الأمر التكويني فعل الله ، والأمر التكليفي أمر الله ونهيه ، لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وكرمه أعظم تكريم بأمر تكويني ، وكلفه أن يبني مجتمعاً فاضلاً أساسه التعاون والتنظيم والعمل المنتج وتحكمه القيم ، قيم العدل والرحمة والإحسان بأمر تكليفي ، خلقه بأمر تكويني وأمره أن يبني هذا المجتمع الفاضل بأمر تكليفي ، فإذا ظهر الخلل والفساد في المجتمع البشري فسببه الخروج عن الأمر التكليفي ، وشاءت حكمة الله أن يخلق مجتمعاً قائماً على أعلى مستويات التعاون ، والتكامل ، والاختصاص ، والعمل الدؤوب المنتج ، والتنظيم المعجز بأمر تكويني لا تكليفي ، لذلك لا يمكن أن تجد في هذا المجتمع خللاً ولا فساداً ، كمال مطلق لان أمره هنا تكويني لا تكليفي ، هذا ما نجده في مجتمع النحل فخلية النحل مجتمع موحد متكامل على رأسه ملكة واحدة لا تنازعها أخرى ، تشعر كل نحلة في الخلية بوجود الملكة عن طريق مادة تفرزها الملكة ، وتنقلها العاملات إلى كل أفراد الخلية، فإذا ماتت الملكة اضطرب النظام في الخلية وعمت الفوضى ، وشلت الأعمال ، والملكة تضع كل يوم في فصل الربيع قريباً من ألفي بيضة ما بين ذكور ، وإناث ، وملكات ، وتضع الملكة كل جنس في مكان مخصص ليتلقى غذاءً خاصاً ، وعناية خاصة بحسب جنسه ، ولإناث النحل أعمال متنوعة كثيرة توزع فيما بينها بحسب أعمارها واستعدادها الجسماني ، وعند الضرورة ، وعند الخطر ، وفي المواسم الجيدة تعمل كل نحلة أيّ عمل يفرض عليها ، هناك وصيفات للمكلة يقمن على خدمتها وجلب الطعام الملكي لها ، وهناك حاضنات ومربيات يقمن برعاية الصغار وجلب الغذاء المناسب ، وهناك شغالات يحضرن الماء إلى الخلية ، وهناك شغالات يقمن بتهوية الخلية صيفاً وتدفئتها شتاءً ، وترطيبها في وقت الجفاف ، وهناك شغالات يقمن بتنظيف الخلية ، وجعل جدرانها ملساء



ناعمة لامعة عن طريق مواد خاصة ، وهناك حارسات يقمن بحراسة الخلية من الأعداء ، ولا يسمحن لنحلة أن تدخل الخلية ما لم تذكر كلمة السر وإلا تقتل ، وكلمة السر تبدل عند الضرورة ، وهناك شغالات يقمن بصنع أقراص الشمع ذات الشكل السداسي الذي تنعدم فيه الفراغات البينية بتصميم معجز ، وبأسلوب يعجز عن تقليده كبار المهندسين ، وهناك رائدات يقمن بمهمة استكشاف مواقع الأزهار ، فإذا عثرن عليه عدن إلى الخلية ، ورقصن رقصة خاصة تحدد هذا الرقصة لبقية النحلات العاملات الموقع من حيث المسافة ، ومن حيث الاتجاه ، ودرجة النشاط في الرقص تدل على وفرة الغذاء أو تناقصه ، والجمهرة الكبيرة من الشغالات تنطلق إلى مواقع الأزهار لجني رحيقها ، لأنه المادة الأولية للعسل ، وقد تبتعد هذه المواقع عن الخلية أكثر من عشرة كيلو مترات ، وتعود النحلات إلى الخلية بعد أخذ الرحيق بطريقة لا تزال مجهولة حتى اليوم .

إعجاز الله في خلق النحل :

النحل أكفأ الحشرات في جمع ، ونقل ، وتخزين أكبر قدر من رحيق الأزهار في أقصر وقت ، وفي أقل مجهود ، وهي أكفأ الحشر ات على تلقيح النباتات لتساعدها على إنتاج البذور والثمار ، وتخرج النحلات إلى مكان واحد محدد مسبقاً لتجني رحيق أزهار نوع واحد محدد مسبقاً ، والذي يلفت النظر أن أمراض النحل كلها لا تنتقل إلى الإنسان عن طريق العسل ، ويتمتع النحل بقدرة يصعب تفسيرها على الإحساس بالزمن فيعرف متى تفرز أزهار كل نوع من النبات رحيقها ؟ ومتى تنثر حبوب لقاحها ؟ ثم يداوم على زيارة كل منها في الموعد المناسب فقط ، وجني الرحيق الذي يكفي لصنع كيلو واحد من العسل يحتاج إلى طيران أربعمئة ألف كيلو متر ، أي ما يعادل عشرة أضعاف محيط الأرض ، وقيمة العسل العلاجية أضعاف قيمته الغذائية ، ففوائده العلاجية في مختلف أجهزة الجسم وأعضائه ونسجه ثابتة ، بل تفوق الحد المعقول ، كيف لا وقد قال الله عز وجل :



وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ
ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ
ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

(سورة النحل)

لماذا خوطِب النحل في القرآن الكريم بضمير المؤنث ، حيث قال تعالى :

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

(سورة النحل)

بينما خوطب النمل في القرآن الكريم بضمير المذكر ، حيث قال تعالى :

﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

(سورة النمل) .

الإجابة عن هذا السؤال تدخل في موضوع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .



02 - التعاون واجب ديني

كل أمر في القرآن الكريم وفي السنة الصحيحة يقتضي الوجوب :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، موضوع الخطبة اليوم مضمون قوله تعالى :

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

(سورة المائدة)

التعاون أمر إلهي ، وكل أمر في القرآن الكريم وفي السنة الصحيحة يقتضي الوجوب ، وليس الدين عبادات شعائريةً فحسب ، بل إن الدين هو الحياة ، كما أرادها الله عز وجل ؛ صلاح الدين ، وصلاح الدنيا ، وصلاح الآخرة .

في الإنسان نزعة فردية تنطلق من حبه لوجوده ، ومن حبه لسلامة وجوده ، ومن حبه لكمال وجوده ، ومن حبه لاستمرار وجوده ، وفيه أيضاً نزعة اجتماعية تنطلق من نزعته الفردية ، لأن كثيراً من مطالب حياة الإنسان ، وحاجاته الجسدية ، والنفسية ، والفكرية لا تتم إلى عن طريق الجماعة ، كالأنس بالجماعة ، والشعور بالأمن والطمأنينة معها ، والتماس نصرتها ، والتقوي بها ، وتحقيق حاجاته ومصالحه من خلالها.

لكن النزعة الجماعية التي تنطلق ـ هذا نوع آخر ـ من طاعة الإنسان لله عز وجل والتقرب إليه وراء أكثر الفضائل الخلقية ، فما من فضيلة يصل نفعها وخيرها إل ى الآخرين إلا وفيها عنصر التخلي عن الأنا ، وفيها نوع من التضحية في سبيل المجموع كوسيلة لنيل رضوان



الله تعالى . والرذائل الخلقية تنبع من فردية الإنسان ، وتفلته من منهج الواحد الديان ، والفضائل الخلقية تنبع من انصياعه لمنهج ربه والتقرب إليه بخدمة عباده .

جلائل الأعمال الكبرى لا تتحقق إلا عن طريق العمل الجماعي المتعاون :

أيها الأخوة الأكارم في كل مكان ، الأنبياء ــ صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ــ أعطوا كل شيء ، ولم يأخذوا من الجماعة شيئاً ، والذين على نقيضهم أخذوا كل شيء ، ولم يعطوا الجماعة شيئاً ، والذين هم بينَ بينْ ، أخذوا وأعطوا ، الأنبياء ملكوا القلوب بكمالهم ، وغيرهم ملكوا الرقاب بقوتهم .

إن جلائل الأعمال الكبرى لا تتحقق إلا عن طريق العمل الجماعي المتعاون ، بخلاف العمل الفردي الذي لا يثمر إلا أعمالاً تتناسب مع مستوى طاقات الأفراد شدةً وضعفاً، والنزعة الفردية تنمو معها رغبة قبيحة بتهديم أعمال الآخرين حرصاً على التفرد لنيل التقدير بين الناس ، ومع هذه الرغبة القبيحة تتبدد الأعمال الفردية نفسها أو تضيع ثمراتها فتحرم الإنسانية ثمرات الأعمال الجماعية ، وكثيراً من ثمرات الأعمال الفردية .

إن القوة الانفرادية مع القوة الانفرادية مجتمعتين تساويان أكثر منهما متفرقتين ، لأن عوامل الوهم والخوف والتخاذل تتسرب إلى الأفراد وتمتنع منها الجماعة . قال تعالى في كتابه العزيز :

وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟
عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

(سورة المائدة)

لأن الإنسان خليفة الله في الأرض ، ولأنه مُكلف أن يأمرها بكل ما هو خير نافع، ليكون هذا الإعمار ثمناً لسعادته الأبدية في الجنة ، ولأن مشيئة الله شاءت أن يُمكن الإنسان في



إتقان شيء بينما هو في حاجة إلى كل شيء ، إذاً كان التعاون ضرورة إيمانية وضرورة حياتية والتعاون حيادي ومطلق ، فيمكن أن يكون في الخير صلاح الدنيا وصلاح الآخرة كما يمكن أن يكون في الشر في الإثم والعدوان ، لذلك جاء الأمر الإلهي : بالتعاون مخصصة ، بالبرِّ والتقوى ، والبر كما قال المفسرون : صلاح الدنيا ، والتقوى صلاح الآخرة ، وتأكيداً لهذا التخصيص جاء النهي عن النقيض ، فقال تعالى : ﴿**وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ .

كل من ساهم في خير البشرية في دينها ودنياها مخلصاً لله عز وجل له نصيب من هذا الخير يناله في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً .

أصل الاعتصام اللجوء إلى حبل الله وكتابه وإلى سنة رسوله :

كل من ساهم في خير البشرية في دينها ودنياها مخلصاً لله عز وجل له نصيب من هذا الخير يناله في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً ، وكل من ساهم في عمل آثم يبعد الإنسان عن خالقه ، أو في عدوان على أخيه الإنسان يناله العقاب في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً .

وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟
عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

(سورة المائدة)



أيها السادة الأعزاء ، يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(سورة آل عمران)

في هذه الآية يأمرنا الله جل جلاله أن نعتصم بحبله ، ونحن مجتمعون غير متفرقين ، وأصل الاعتصام اللجوء إلى حبل الله ، إلى كتابه ، إلى سنة رسوله للاعتصام به ، وهذا يستلزم التمسك به ، والقبض عليه بشدة ، حتى يظفر المؤمنون باعتصامهم هذا بالنجاة من الهلاك .

الاعتصام بحبل الله لا يكفي أن يكون فردياً بل لا بدّ من أن يكون جماعياً :

الاعتصام بحبل الله لا يكفي أن يكون اعتصاماً فردياً ، بل لا بد أن يكون اعتصاماً جماعياً ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ أخوانا وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفوَةٍ مِنَ ال نَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ .

وأكد ذلك بالنهي عن التفرق ، فقال تعالى عقب ذلك :

وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا

(سورة آل عمران)



ثم أجرى الله جل جلاله في هذا النص موازنةً بين ما كانت عليه الأمة العربية في جاهليتها قبل الإسلام وما تحولت إليه بالإسلام الذي كان نعمة سيقت من الله إليهم :

وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(سورة آل عمران)

الإسلام ردّ النفس الإنسانية إلى فطرتها الخيّرة :

لقد كانت الأمة العربية قبل الإسلام مجزأةً متفرقة متعاديةً فيما بينها ، وكانت على شفا حفرةٍ من النار بالشرك والظلم والعدوان ، فأصبح تجزؤها وحدةً ، وتفرقها اجتماعاً، وعداوتها محبة ، فقد ألف الله بين قلوب أفرادها وجماعاتها بالإسلام فأصبحوا بنعمته أخواناً :

لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ

(سورة الأنفال)

وما كان سببَ إنقاذها ، ووحدتها ، وقوتها ، ومجدها يظل هو السبب أبد الدهر في إنقاذها ، ووحدتها ، وقوتها ، ومجدها ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .



أخوة الإيمان في كل مكان ، الإسلام رد النفس الإنسانية إلى فطرتها الخيرة ، من التعاون والتناصر والتحابب ، ونهى عن التفاخر والتحابب ، وسوّى بين المسلمين ، وجعلهم أخوة متحابين ، فأصبح المسلمون أمةً متعاونةً على الخير ، لا يفرق بين أفراده ا لون ولا جنس ولا إقليم ولا مال ، وجاء التوجيه الإلهي يدفع المسلمين إلى هذا السلوك الإنساني الرفيع فقال تعالى ــ دققوا في هذه الآية الكريمة :

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

(سورة التوبة)

لقد أنكر الإسلام النزعة الاستغلالية ، وقاوم السلبية ، ونبذ الأثرة والأنانية ، والتهافت المسعور على التقاط جهد الآخرين ، وأن يعيش الفرد على أنقاض الآخرين ، يبني قوته على ضعفهم ، وغناه على فقرهم ، ومجده على ذلهم ، وبين أن الناس جميعاً في حق الحياة وحق العمل وحق الكرامة سواء ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ)) .

[أخرجه أبو داود وابن ماجة وأحمد عن عمرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]



الإيمان ما إن يستقر في نفس المؤمن حتى يعبر عن ذاته بحركة خيِّرة :

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

(سورة الأنفال)

وفي آية لاحقة :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾

(سورة الأنفال)

توضح هذه الآية أن الإيمان ما إن يستقر في نفس المؤمن حتى يعبر عن ذاته بحركة خيرة نحو الآخرين ، وما لم تكن هذه الحركة الخيرة نحو الآخرين ، فهناك شك في وجود الإيمان أصلاً .



المؤمنون كالجسد الواحد :

المؤمنون هاجروا ، وجاهدوا ، وآووا ، ونصروا ، لذلك ه م كالجسد الواحد ، إن اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، ولما لم يكن المؤمنون متناصحين ، متعاونين ، متباذلين ، متضامنين ، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾

(سورة الأنفال)

أيها الأخوة الأكارم ، عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ :

((بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ : فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِيناً وَشِمَالاً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زَادَ لَهُ قَالَ : فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ))

[أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]



مجتمع المدينة هو النموذج الأول للمجتمع الإسلامي على خلق التعاون :

المسلم الحق يعمل من أجل المجموع ولا يعيش لذاته ، لكن أجره عند الله كبير ، قال تعالى :

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

(سورة الحديد)

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيق كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ**)).

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لقد أسس النبي عليه الصلاة والسلام مجتمع المدينة ، وهو النموذج الأول للمجتمع الإسلامي على خلق التعاون ، فقد ترك المهاجرون بلدهم مكة ، وتركوا فيها أموالهم وكل ما يملكون ، وانتقلوا إلى المدينة وليس معهم شيء ، في حين كان الأنصار وهم أهل المدينة يملكون ، ويقيمون في بيوتهم ، ويعملون في أرضهم ، فأقام النبي عليه الصلاة والسلام التوازن بين الذين يملكون والذين لا يملكون عن طريق الأخوة الإيمانية ، التي تعني الحب ، والإيثار ، والبذل ، والعطاء ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، فصار كل أخوين يتعاونان ، ويتناصران ، ويتشاركان في السراء والضراء ، وكان الأنصاري يعرض على أخيه المهاجر أن يقاسمه كل ما يملك ، لكنَّ الشيء المده ش أن المهاجرين لم يستغلوا هذا السخاء ، بل إن الكثير منهم اتجه إلى السوق ليأكل من كد يمينه ، قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف، يا أخي دونك نصف مالي



فخذه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : بارك الله في مالك ، ولكن دلني على السوق ، وقد سجل القرآن الكريم هذه السورة الرائعة للإيثار ، فقال تعالى :

وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(سورة الحشر)

العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع تعود لسببين :

لو تتبعنا أسباب العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع ، بل بين أفراد مجتمع تربط بينهم عشرات القواسم المشتركة ، قال تعالى :

لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ

(سورة الحشر)

لو تتبعنا هذه الأسباب في كتاب الله عز وجل ــ ولا ينبئك مثل خبير ، والله تعالى هو الخبير ــ لوجدنا هذه الأسباب في علتين اثنتين :

1ــ الخروج عن منهج الله عز وجل اتباعاً للهوى :

الأولى : الخروج عن منهج الله عز وجل اتباعاً للهوى ، قال تعالى :



وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ
بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ
ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾

(سورة المائدة)

2ــ اتباع الشيطان :

والعلة الثانية : اتباع الشيطان ، قال تعالى :

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ
وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

(سورة المائدة)

كلا العلتين تجمعهما علة واحدة ، وهي أن الإنسان فردي بطبعه والفردية من دون أن تُضبط بمنهج الله وراء أكثر الرذائل الخلقية من أثرةٍ ، وأنانية ، وغطرسة ، وعداوة ، وخيانة ، وإجحاف . والجماعية تكليف إلهي أولاً ، وصبغة يصطبغ بها المؤمن من خلال اتصاله بالله ثانياً ، والروح الجماعية وراء أكثر الفضائل الخلقية من مؤاثرةٍ ، وتواضع ، ومحبة ، وإخلاص ، وإنفاق .



الناس رجلان :

الناس رجلان ؛ رجل عرف الله فاتصل به ، وانضبط بمنهجه ، وأحسن إلى خلقه فسلم وسعد في الدنيا والآخرة ، ورجل غفل عن الله فتفلت من منهجه ، وأساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة .

الإنسان هو سيد المخلوقات ، وهو أفضل من يدرك أن الجماعة خير من الفرقة ، وأن التعاون أجزى من التخاذل ، ومن طبيعة الحياة الإنسانية أن يتفاوت الناس في المواهب والملكات والجهود والطاقات ، فمنهم قوي ومنهم ضعيف ، منهم صحيح ومنهم سقيم ، منهم مستطيع ومنهم عاجز ، منهم عالم ومنهم جاهل ، منهم متقد الذكاء ومنهم محدود التفكير، منهم غني وفقير ، منهم قائد ومقود ، وتابع ومتبوع ، فإذا تُركت هذه الفروق وشأنها اتسعت الهوة وظهر التناقض الحاد بين أفراد المجتمع ، وأكل القوي الضعيف واستغل الغني الفقير فاختلت بنية المجتمع وانهار توازنه وسار في طريق الهاوية ، عندها تسفل الأهداف وتنحط الميول ، ويبيح الإنسان الشارد عن منهج الله لنفسه أكثر الوسائل قذارة لأشد الأهداف انحطاطاً ، عندها تكون أزمة الأخلاق المدمرة التي تسبب الشقاء الإنساني ، وحين ذلك تفسد علاقة الإنسان بأخيه ، فتكون الغلبة لصاحب القوة لا لصاحب الحق ، فتعيش الأمة عندها أزمةً حضارية تعيق تقدمها ، وتقوض دعائمها ، وما يجري في العالم من حولنا أكبر دليل على ذلك .

لذلك ترى المؤمن إنساناً متميزاً ، يرى م ا لا يراه الآخرون ، ويشعر بما لا يشعرون ، يتمتع بوعي عميق ، وإدراك دقيق ، له قلب كبير ، وعزم متين ، وإرادة صلبة ، هدفه أكبر من حاجاته ، ورسالته أسمى من رغباته ، يملك نفسه ولا تملكه ، يقود هواه ولا ينقاد له ، تحكمه القيم ويحتكم إليه من دون أن يسخرها لمصالحه أو يسخر منها ، سما حتى اشرأبت إليه الأعناق ، وصفا حتى مالت إليه القلوب .



نموذج من تعاون الفرد مع المجموع :

المؤمن شخصية فذة ، لأن الإيمان درجة علمية ، المؤمن عرف الحقيقة الكبرى ، وانسجم معها ، والإيمان درجة أخلاقية ، فسلوك المؤمن تحكمه منظومة من القيم الأخلاقية ، والإيمان درجة جمالية ، ففي قلبه من السعادة من خلال اتصاله بالله ما لو وزعت على أهل بلدة لكفتهم .

الحظوظ التي ينالها الإنسان في الدنيا حيادية ، يمكن أن تُوظف في الحق كما يمكن أن توظف في الباطل ، يمكن أن تسخر في الخير كما يمكن أن تسخر في الشر ، يمكن أن تكون للإنسان سلماً يرقى بها أو دركات يهوي بها ، هذا نعيم بن مسعود ، كان فتىً في الجاهلية فتىً يقظ الفؤاد ، ألمعي الذكاء ، ولاّجاً ، خرَّاجاً ، يحسن التصرف ، لا تعوقه معضلة ولا تُعجزه مشكلة ، كان صاحب صبوة ، وسبيل متعة ، ولما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام إلى العالمين أعرض نعيم عن هذا الدين الجديد أشد الإعراض ، خوفاً من أن يحول هذا الدين بينه وبين متعه ولذاته ، لكن نعيم وجد نفسه مسوقاً إلى الانضمام إلى خصوم المسلمين ، مدفوعاً إلى إشهار السيف في وجوههم ، لكن لحظة تفكير سليم، ولحظة محاكمة منطقية ، ولحظة تأمل دقيق ، ولحظة مراجعة مع النفس صادقة ، ولحظة تبصر عميق ، وقد تكون هذه اللحظة سبب سعادة أبدية ، وفوز عظيم ، قد تنقل هذه اللحظة التي فيها صدق مع النفس قد تنقل الإنسان من الشقاء إلى السعادة ، من وحول الشهوات إلى جنات القربات ، من سلوك المجرمين إلى بطولات الصديقين .

خرجت قريش بقضها وقضيضها ، بخيلها ورجلها ، بكل ما تملك ، بكل وزنها ، بكل ثقلها ، بكل طاقتها ، بقيادة أبي سفيان بن حرب متجهة شطر المدينة ، كما خرجت غطفان من نجد بعدتها وعددها ، بقيادة عيينة بن حصن ، ومعهم نعيم بن مسعود متجهة شطر المدينة ، ولن ندخل في تفاصيل معركة الخندق التي أراد خصوم المسلمين من خلالها استئصال المسلمين عن آخرهم ، وفوق كل ذلك نقضت بنو قريظة عهدها مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وانضمت إلى



الأحزاب ، وأصبحت قضية الدين الجديد قضية يكون أو لا يكون ، قضية ساعات ــ هنالك ابتلي المؤمنين ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ــ وفوق كل ذلك انسل المنافقون من ساحة المعركة وقالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ــ ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا بضع مئات من المؤمنين الصادقين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً . وفي ليلة من ليالي الحصار الذي دام عشرين يوماً ، كان نعيم مستلقياً على فراشه في خيمته في معسكر المسلمين ، يتقلب في مهده أرقاً ، وفجأة سألته نفسه قائلةً : ويحك يا نعيم ، ما الذي جاء بك من تلك الأماكن البعيدة من نجد لحرب هذا الرجل ومن معه ؟ إنك لا تحاربه انتصاراً لحق مسلوب ، ولا حمية لعرض مغصوب ، وإنما جئت تحاربهم لغير سبب معروف ، أيليق يا نعيم لرجل له عقل مثل عقلك أن يقاتل فيُقتل ، أو يقتل لغير سبب ؟ ما الذي يجعلك تشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح ؟ ولم يكن قد آمن بأنه نبي كريم ، ما الذي يجعلك تُشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ؟ ويحك يا نعيم ما الذي يحملك على أن تغمس رمحك في دماء أصحابه الذين اتبعوا ما جاءهم به من الهدى والحق ؟!

هذا الحوار الذاتي يحتاجه كلٌ منا كل يوم .

أيها الأخوة الكرام اتسم هذا الحوار الذاتي بالصدق والنزوح ، وكان هذا الحوار الذاتي سبب سعادته الأبدية ، اتخذ نعيم عقب هذا الحوار الصادق قراراً حاسماً وحازماً ونفذه مباشرة ، تسلل من معسكر قومه تحت جيش الظلام ومضى يحث الخطى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه النبي ماثلاً بين يديه قال : نعيم بن مسعود ؟! قال : نعم يا رسول الله ، قال : ما الذي جاء بك هذه الساعة ؟ قال : يا رسول الله جئت لأشهد أنه لا إله إلا الله ، وأنك عبد الله ورسوله ، وأن ما جئت به هو الحق ، ثم قال : لقد أسلمت يا رسول الله، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فأمرني بما شئت ، فقال عليه الصلاة والسلام : أنت فينا رجل واحد ، فاذهب إلى قومك ، وخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .



هذا نموذجٌ أيها الأخوة من تعاون الفرد مع المجموع ، وموضوع خطبتنا هو التعاون . الآن سيوظف نعيم عقله ولسانه وإمكاناته ومكانته لصالح هذا الدين الجديد ، فقال : يا رسول الله سترى ما يسرك إن شاء الله .

مضى نعيم بن مسعود إلى بني قريظة ، وكان لهم من قبل صاحباً ونديماً ، وقال لهم : ماذا قال لهم ؟ ثم مضى نعيم بن مسعود إلى أبي سفيان قائد جيش قريش وقال له : ماذا قال له ؟ ثم مضى نعيم بن مسعود إلى غطفان قومه وقال لهم : ماذا قال لهم ؟ يا ترى ماذا قال لهؤلاء وهؤلاءِ وهؤلاء ، هذا ما لا يتسع الوقت لذكره ، ارجعوا إلى أي كتاب في سير الصحابة الكرام ، وإلى سيرة نعيم بن مسعود بالذات ، وعيشوا لحظات إيمانية ممتعة ونافعة مع رجل كان في صفوف المشركين ، فراجع نفسه بصدق ، وأعلن إسلامه ، ثم كرمه الله بأن أجرى على يده خيراً عظيماً لا يزال المسلمين حتى يومهم هذا يقطفون ثماره .

إذا كان الله معنا فمن علينا وإذا كان الله علينا فمن معنا ؟

إذا رجع العبد إلى الله نادى مناد في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله .

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾

(سورة الفتح)



لقد نجحت خطة نعيم مئة بالمئة ، نجح في تمزيق صفوف الأحزاب ، وتفريق كلمتهم ، وأرسل الله على قريش وحلفائها ريحاً صرصراً اقتلعت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وأطفأت نيرانهم ، وصفعت وجوههم ، وملأت أعينهم تراباً ، فلم يجدوا مفراً من الرحيل :

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

(سورة الأحزاب)

هذا درس إيماني بليغ ، إذا كان الله معنا فمن علينا وإذا كان الله علينا فمن مع نا ، ولكن معية الله التي نعقد عليها الآمال في أن تنصرنا على عدو متغطرس ، سلب الأرض ، وشرد الشعب ، ونهب الثروات ، وانتهك الحرمات ، ودنس المقدسات ، وأنشأ المستوطنات ، هذه المعية التي نعلق عليها كل الآمال لها ثمن ، ثمنها موضح في القرآن الكريم ، قال تعالى :

۞وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

(سورة المائدة)



لم يطالبنا ربنا بإعداد القوة المكافئة بل بإعداد القوة المتاحة :

لم يطالبنا ربنا بإعداد القوة المكافئة ، بل بإعداد القوة المتاحة فقال تعالى :

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(سورة الأنفال)

أيها الأخوة الكرام ، هذه الحقيقة الأساسية أشار إليها السيد الرئيس في مؤتمر القمة الإسلامي الثاني فقال : " يواجه العالم الإسلامي اليوم تحديات كبيرة تستهدف الإسلام وما يمثله من قيم نبيلة ، وما يدعو إليه من أخوة وعدالة ومساواة وحرية ، وإذا كان من واجبنا أن ندافع عن ديننا فإن لنا فيه ينبوع قوة ومصدر إلهام في مواجهة كل ما يقابلنا من أخطار وتحديات وقد جاء في الحديث الشريف عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ**)) .

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد عَنْ أَبِي مُوسَى]

أيها الأخوة الكرام ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وتخطى غيرنا إلينا ، فلنتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ، والحمد لله رب العالمين .

***



مجتمع النمل المتعاون :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، ما دام الحديث عن التعاون وهو أمر تكليفي ، كلف به هذا المخلوق الأول المكرم الإنسان ، إن هذا يذكرني في أروع صورة من صور التعاون في مجتمع النمل ، ولكن بأمر تكويني لا بأمر تكليفي .

النملة حشرة اجتماعية راقية ، موجودة في كل مكان وفي كل وقت ، بل إن أنواع النمل تزيد عن تسعة آلاف نوع ، وبعض النمل يحيا حياة مستقرة في مساكن محكمة ، وبعض النمل يحيا حياة الترحال كالبدو تماماً ، وبعضه يكسب رزقه بجده وسعيه ، وبعضه يكسب رزقه بالغدر والسيطرة ، والنمل حشرة اجتماعية تموت إذا عُزلت عن أخواتها ولو توافر لها غذاء جيد ، ومكان جيد ، وظروف جيدة ، كالإنسان إذا عزلته في مكان بعيد عن الضوء ، والصوت ، والساعة ، والزمن ، والليل ، والنهار عشرين يوماً ، فإنه يفقد توازنه العقلي .

النملة تعلم الإنسان درساً بليغاً في التعاون ، فإذا التقت نملة جائعة بأخرى شبعى، تعطي الشبعى الجائعة خلاصات غذائية من جسمها ففي جهازها الهضمي جهاز ضخ تُطعم به ــ دققوا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ : والله ما آمن والله ما آمن من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم ، ومن لم يتفقد شؤون المسلمين فليس منهم .

أيها الأخوة الكرام ، للنمل ملكة كبيرة الحجم مهمتها وضع البيض ، وإعطاء التوجيهات ، ولها مكان أمين في مساكن النمل ، وهي على اتصال دائم بكل أفراد المملكة ، والنملات العاملات لها مهمات متنوعة ، من مهمات العاملات تربية الصغار ، وهذا يشبه قطاع التعليم ، وفي الن مل عساكر لها حجم أكبر ، ولها رأس صلب كأن عليه خوذة ، وهذا يشبه قطاع الجيش في حراسة الملكة ، وحفظ الأمن ، ورد العدوان ، ومن مهمات العاملات تنظيف المساكن والممرات ، وهذا يشبه قطاع البلديات ، ومن مهمات العاملات سحب جثث الموتى من المساكن ودفنها في الأرض ، وهذا يشب مكاتب دفن الموتى ، ومن مهمات العاملات جلب الغذاء من خارج المملكة ، وهذا يشبه قطاع المستوردين ، ومن مهمات العاملات زرع الفطريات ، وهذا يشبه قطاع الزراعة ، ومن مهمات العاملات تربية حشرات تعيش النمل على رحيقها ، وهذا يشبه قطاع مربي الماشية .



وظائف النمل :

النمل يبني المدن ، ويشق الطرقات ، ويحفر الأنفاق ، ويخزن الطعام في مخازن وفي صوامع ، بعض أنواع النمل يقيم الحدائق ، ويزرع النباتات ، وبعض أنواع النمل يقيم حروباً على قبائل أخرى ويأخذ الأسرى من ضعاف النمل المهزوم الآن دققوا في قوله تعالى :

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

(سورة الأنعام) .

أيها الأخوة الأحباب ، قال تعالى :

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

(سورة النمل) .

لقد أثبت الله جل جلاله من خلال هذه الآية للنمل الكلام ونوع من المعرفة ، للنملة مخٌ صغير ، وخلايا عصبية ، وأعصاب لتقدير المعلومات والخرائط كي تهتدي بها إلى مواقع الغذاء وإلى أوكارها .

والنملة تملك نوعاً من التصرف العقلاني ، وهي من أذكى الحشرات ، وهي ترى بموجات ضوئية لا يراها الإنسان ، ولغة النمل كيماوية ، لها وظيفتان التواصل والإنذار ، فلو سحقت نملةً فإن رائحة تصدر عنها تستغيث بها النملات أو تحذرها من الاقتراب من المجزرة ولا



تستطيع نملة دخول وكرها إلا إذا بينت كلمة السر . للنمل جهاز هضم مدهش فيه فم ومري ومعدة وأمعاء وجهاز مص وجهاز ضخ.

أيها الأخوة الكرام أختم هذا الموضوع بقول الإمام علي كرم الله وجهه : " انظروا إلى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على أرضها ، وصُبت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، وتعدها في مستقرها، تجمع من حرها لبردها ، وفي وردها لصدرها ، مكفولة برزقها ، مرزوقة بوسقها ، لا يغفلها المنان ، ولا يحرمها الديان ، ولو في الصفا الوابد والحجر الجامد ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً ، فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه على خلقها قادر " .

الابتعاد عن التناقضات التي تُبعد الإنسان عن الاستجابة له :

أيها الأخوة الأحباب ، سألني سائل قال لي : ما لنا ندعو الله فلا يستجيب لنا ؟ إن هو بهذا السؤال يريد أن يقلل من قيمة الدعاء .

قلت له : العارف بن أدهم مر ذات يوم بسوق البصرة ، فقيل له : يا أبا إسحاق ، إن الله تعالى يقول : ادعُني أستجب لكم ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا .

فقال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء ؛ عرفتم الله فلم تؤدوا حقه ، قرأتم القرآن فلم تعملوا به ، ادعيتم حب رسولكم فلم تعملوا بسنته ، قلتم : إن الشيطان لكم عدو فاتخذتموه ولياً ، قلتم : إنكم مشتاقون إلى الجنة فلم تعملوا لها ، قلتم : إنكم تخافون من النار فلم تتقوها ، قلتم : إن الموت حق فلم تستعدوا له ، اشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم ، تقلبتم في نعم الله فلم تشكروه عليها ، دفنتم موتاكم فلم تعتبروا ، فكيف يُستجاب لكم ؟!!

أرجو الله جل جلاله أن لا تنطبق هذه التناقضات علينا حتى يستجيب الله لنا .



الباب الخامس: أصول الفقه



01 - قواعد الحلال والحرام في الإسلام

((إحدى عشر قاعدة))



01 - قواعد الحلال والحرام في الإسلام ((إحدى عشر قاعدة))

الحمد لله رب العاملين ، يا رب خلقت فسويت ، وقدرت وقضيت ، وأمت وأحييت ، وأمرضت وشفيت ، وعافيت وابتليت ، وأغنيت وأقنيت ، وأضحكت وأبكيت ، المرجع والمآل إليك ، ونحن بك وإليك . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يقول في الحديث القدسي :

((لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، وقفوا على صعيد واحد وسألني كل واحد منكم مسألته وأعطيت كل سائل مسألته ، ما نقص ذلك في ملكي ، إن هي إلا أعمالكم أحصيها عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)) .

[رواه مسلم عن أبي ذر]

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، قال :

((إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها فاتقوا الله عباد الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده بمعصيته)) .

[ابن ماجه وأبو نعيم والحاكم وابن حبان وأخرجه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي]

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارض عنا وعنهم يا رب العالمين .

عباد الله أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير .



موضوع الحلال والحرام هو قوام الإسلام ودليل الإيمان :

موضوع الخطبة اليوم الحلال والحرام في الإسلام ، فيها مقدمة حول الحلال والحرام في أعمال الجوارح وفي أعمال القلوب ، وفيها إحدى عشرة قاعدة ذهبية أصولية في الحلال والحرام ، وقصة تتصل بالموضوع بشكل أبو بآخر ، وموضوعٌ علميٌ ، وخاتمة .

موضوع الحلال والحرام هو قوام الإسلام ودليل الإيمان وميزان الصدق عند الواحد الديان ، فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل إلا على مقتضى الأمر والنهي ، ولا التزام بأمر آمر ولا نهي ناهٍ إلا عن حب ، والحب دون اتباع كذب ونفاق .

أيها الأخوة الكرام ، من هنا كانت خطورة موضوع الحلال والحرام في الإسلام ، الذي هو شريعة خاتمة ، لبناء حضارة أمة ، هي خير أمةٍ أخ رجت للناس ، فكانت جميع الرسالات السابقة تدريباً للبشرية على تقبل تلك الشريعة الخاتمة ، وتمهيداً لاكتمال الوعي في تلك الأمة المختارة ، فما من أمة عدلت عن تشريع الله إلا أخذت بالدمار والهلاك ، وما من فرد أهمل الأمر والنهي إلا اختل قوامه واضطرب حاله ، قال تعالى :

ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ
فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

(سورة المائدة) .



الحلال والحرام يتصل بأعمال القلوب كما يتصل بأعمال الجوارح :

الشريعة رحمة كلها ، عدل كلها ، مصلحة كلها ، حكمة كلها ، إنها تعليمات الصانع الخبير :

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

(سورة فاطر) .

لقد أراد الإسلام بناء شخصية المسلم متميزةً عن الشخصيات الأخرى من خلال الحلال والحرام ، وقد اتجه الإسلام بأهله إلى بناء مجتمع الجسد الواحد ، والأخوة الإسلامية الصادقة التي تنتهي إلى الأخوة الإنسانية على هدي الحلال والحرام ، لقد احترم الإسلام الإنسان وأعلى قدره حينما نظر إلى الاقتصاد من خلال الإنسان كرامةً وكفايةً وأمناً ، لا من خلال قهره واستغلاله ، فكان الحلال والحرام صوناً لكرامة الإنسان ، شرائع الإسلام أيها الأخوة ، صالحةٌ لاستيعاب كل المعاملات والقضايا العصرية لتضعها في مكانها من الحلال والحرام .

الحلال والحرام يتصل بأعمال القلوب كما يتصل بأعمال الجوارح ، والصحابة الكرام على جلالة قدرهم ، وعمق إيمانهم ، وقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أحرص الناس على رعاية أعمال القلوب ، حرصهم على رعاية أعمال الجوارح ، إن الإنسان أيها الأخوة لا يتحرك في أعماله سواءً أكانت فعلاً أو تركاً ، حركةً آليةً بلا دافع قلبي يدفعه إلى العمل ، وإلا كان جماداً لا روح فيه ، هذا الدافع القلبي هو الإرادة والنية ، وقد يدخله كثير من ألوان الخداع النفسي ، حتى يتحول عمل الطاعة إلى إثم ، ويتحول ترك الحرام إلى حرام .

إن أعمال القلوب دقيقة المأخذ ، تتقارب فيها حدود الحلال والحرام تقارباً لا يمكن التمييز بينها إلا بعد تأملٍ دقيق ، على هدى من علم شامل وفقه عميق ، كالنفاق المحرم والمباهاة المباحة ، كيف نميز بينهما ؟ وكالخوف من الماضي واليأس من رحمته ، كيف نفرق بينهما ؟



وكرجاء رحمته والغِرة به ، كإضمار ما يجب ستره ، بنية الدعوة إلى العمل بالقدوة ، ونية الإعجاب بالعمل والرغبة في ثناء الناس كيف نفرق بـينهما ؟ وكالعجب والكبر ، والمهابة والوقار ، إن أعمال القلوب دقيقة جداً .

قواعد أصولية في الحلال والحرام :

إن الأعمال تحتاج إلى شروط صحةٍ من زاوية الأحكام الفقهية التي تتعلق بالجوارح ، وهذه الشروط موجودة في كتب الفقه ، وتحتاج أعمال الإنسان إلى شروط صحةٍ أخرى من زاوية قبوله عند الله ، وهذه تتعلق بمعرفة النفس وأحواله مع ربها .

العمل مطلق أيها الأخوة ، والعمل الصالح بخاصة لا يُقبل عند الله إلا إذا كان خالصاً وصواباً ؛ خالصاً ما ابتُغي به وجه الله وهذا من عمل القلب ، وصواباً ما وافق السنة وهذا من عمل الجوارح ، وكل منهما شرط لازم غير كاف .

1ــ الأصل في الأشياء الإباحة :

القاعدة الأولى : الأصل في الأشياء الإباحة .

إن أول مبدأ قرره الإسلام أن الأصل فيما خلق الله من أشياء ومنافع هو الحلُّ والإباحة ، ولا حرام إلا ما ورد فيه نص صحيح وصريح بتحريمه ، من الله في كتابه ، أو من رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته ، فإذا لم يكن النص صحيحاً ، أو لم يكن صريحاً في الدلالة على الحرمة ، بقي الأمر على أصل الإباحة ، قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الجاثية الآية : 13) .



ما كان الله سبحانه وتعالى ليخلق هذه الأشياء ويسخرها للإنسان ويمنَّ عليه بها ، ثم يحرمه منها بتحريمها عليه ، كيف وقد خلقها ، وسخرها له ، وأنعم بها عليه ؟ والذي حرمه جل جلاله جزئيات منها بسبب وحكمة بالغة ، ومن هنا ضاقت دائرة المحرَّمات في شريعة الإسلام ضيقاً شديداً ، واتسعت دائرة الحلال اتساعاً بالغاً .

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾**)) .

[البزار في مسنده و الحاكم من حديث أبي الدرداء]

إن أصل الإباحة تشمل الأفعال والتصرفات التي ليست من أمور العبادة ، ففي الأشياء والأفعال الأصل أنها مباحة ، ولا يُحرم شيئاً منها بنص ، وفي العبادات الأصل هو الحظر ، ولا تُشرَّع عبادة إلا بنصٍ .

2ـ التحليل والتحريم من حق الله تعالى وحده :

القاعدة الثانية : التحليل والتحريم من حق الله تعالى وحده .

التحليل والتحريم من حق الله تعالى وحده وليس من حق أحدٍ من خلقه ، أياً كانت درجته في دين الله أو دنيا الناس ، فمن فعل ذلك من بني البشر فقد تجاوز حده ، واعتدى على حق الربوبية في التشريع للخلق ، ومن رضي بعمله هذا واتبعه فقد جعله شريكاً لله ، و عُدَّ اتباعه هذا شركاً ، قال تعالى :

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

(سورة الشورى) .



وقال :

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾

(سورة النحل) .

كان السلف الصالح لا يصف شيئاً بأنه حرام ما لم يكن في كتاب الله ، أو في سنة رسوله بيناً بلا تفسير ، وكانوا لا يطلقون الحرام إلا على ما عُلم تحريمه بالضرورة قطعاً يقيناً ، وكان أحمد ابن حنبل يقول حين يُسأل : "أكرهه ، لا يُعجبني ، لا أحبه ، لا أستحسنه ".

3ـ تحليل الحرام وتحريم الحلال من أكبر الكبائر :

القاعدة الثالثة : تحليل الحرام وتحريم الحلال من أكبر الكبائر .

تحليل الحرام وتحريم الحلال يقترن بالشرك ، يقول عليه الصلاة والسلام ، فيما يرويه عن ربه :

((**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً** .))

[مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي]

وقد حارب النبي صلى الله عليه وسلم نزعة التنطع والتشدد من دون موجب وذمها ، وأخبر بهلاك أصحابها ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((**هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون**)) .[رواه مسلم عن ابن مسعود]



التحريم أيها الأخوة يستطيعه كل إنسان ، حتى الجاهل ، لكن العلماء المتمكنين العاملين بعلمهم ، المخلصين في علمهم ، هم الذين يبينون للناس ما هو حلال وما هو حرام ، بالدليل والتعليل ، فالتبليغ مهمة الأنبياء والرسل ، والتبيين مهمة العلماء من بعدهم .

4ــ الحلال طيب والحرام خبيث :

القاعدة الرابعة : الحلال طيب والحرام خبيث .

من حق الله تعالى ، لكونه خالقاً ومربياً ومسيراً ومنعماً على خلقه بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، من حقه أن يحل لهم وأن يحرم عليهم ما يشاء ، كما له أن يتعبدهم بالتكاليف والشعائر بما يشاء ، فهو حق ربوبيته لهم ، ومقتضى عبوديتهم له ، ولكنه تعالى ، رحمة منه بعباده ، جعل التحليل والتحريم لأسباب معقولة راجعةٍ لمصلحة البشر أنفسهم ، فلم يحل سبحانه إلا طيباً ، ولم يحرم إلا خبيثاً ، قال تعالى :

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الأعراف) .

الطيبات هي الأشياء التي تستطيبها النفوس المعتدلة المتوازنة ، ويستحسنها مجموع الناس ذوي الفطر السليمة ، استحساناً غير ناشئ عن أثر العادة ، فالعلاقة بين الحلال ونتائجه علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، والعلاقة بين الحرام ونتائجه علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة .



5ـ في الحلال ما يُغني عن الحرام :

القاعدة الخامسة : في الحلال ما يُغني عن الحرام .

من محاسن الشريعة الإسلامية أنها لم تُحرم شيئاً إلا عوضت خيراً منه ، مما يسد مكانه ويغني عنه ، فالله تعالى لم يضيق على عباده من جانب إلا وسَّع عليهم من جانب آخر من جنسه ، فإنه سبحانه وتعالى لا يُريد بعباده عنتاً ولا إرهاقاً ، بل يُريد بهم اليُسرَ والخير والهداية والرحمة ، قال أحد العلماء : حرم الله عباده الاستقسام بالأزلام وعوضهم عنه دعاء الاستخارة ، حرم عليهم الربا وعوضهم التجارة الرابحة ، حرم عليهم القمار وأعاضهم عنه المسابقة في الدين ، حرم عليهم الحرير وأعاضهم عنه الملابس الفاخرة ، حرم عليهم الزنا وأعاضهم عنه الزواج الحلال ، حرم عليهم شرب المسكرات وأعاضهم عنها بالأشربة اللذيذة، حرم عليهم الخبائث من الأطعمة وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات .

ليس في الدين حرمان كما يتوهم الجهلة ، فكل شهوة أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفةً تتحرك من خلالها ، وكل حاجة ألجأ الله إليها عباده ، جعل لهم أكثر من سبب لتحقيقها ، فالحلال يُغني عن الحرام أيما غناء .

6ـ ما أدى إلى حرام فهو حرام :

القاعدة السادسة : ما أدى إلى حرام فهو حرام .

من المبادئ التي قررها الإسلام أنه إذا حرَّم شيئاً حرم ما يُفضي إليه من وسائل ، وسد الذرائع الموصلة إليه ، فإذا حرَّم الزنا حرم كل مقدماته ودواعيه ، من تبرج جاهلي ، وخلوة آثمة ، واختلاط عابث ، وصور فاضحة ، وأدب مكشوف ، وغناء فاحش فما أدى إلى حرام فهو حرام .



وقرر أيضاً أن إثم الحرام لا يقتصر على فاعله المباشر وحده ، بل تتسع الدائرة لتشمل كل من شارك فيه بجهد مادي أو أدبي ، كل يناله من الإثم على قدر مشاركته ، ففي الخمر لعن شاربها ، وعاصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها .

7ـ التحايل على الحرام حرام :

القاعدة السابعة : التحايل على الحرام حرام .

وكما حرَّم الإسلام كل ما يفضي إلى المحرمات من وسائل ظاهرة حرم أيضاً التحايل على ارتكابها بالوسائل الخفية ، والحيل الشيطانية ، ومن الحيل الآثمة تسمية الشيء الحرام بغير اسمه ، وتغيير صورته مع بقاء حقيقته ، ولا ريب أنه لا عبرةَ بتغيير الاسم إذا بقي المسمى ، ولا بتغيير الصورة إذا بقيت الحقيقة ، فمن باع سلعةً ديناً لستة أشهر بمئة ، ثم اشتراها نقداً بثمانين ، وادعى أن هذا بيع وشراء ، نجيبه : بأنه لا عبرة لصورة البيع والشراء إنه أقرض ثمانين ليستردها مئة وهذا هو الربا بعينه .

8 ـ النية الحسنة لا تبرر الحرام :

القاعدة الثامنة : النية الحسنة لا تبرر الحرام .

الإسلام يقدر الباعث الكريم ، والقصد الشريف ، والنية الطيبة في تشريعاته وتوجيهاته كلها ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول :

((**إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى**)) .

[أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب] .

بالنية الطيبة تصبح المباحات والعادات طاعات وعبادات ، فمن تناول غذاءه بنية حفظ الحياة ، وتقوية الجسد على طاعة الله ، وأداء واجبه نحو ربه وأمته ، كان طعامه وشرابه عبادة وقربة ،



قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الطبراني :

((من طلب الدنيا حلالا ، وتعففاً عن المسألة ، وسعياً على عياله ، وتعطفا على جاره ، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر)) .

[البيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف]

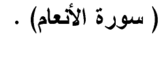
وهكذا كل عمل مباح يقوم به المؤمن يدخل فيه عنصر النية ، فتحيله إلى عبادة ، أما الحرام فشيء آخر ، الحرام هو حرام مهما حسنت نية فاعله ، وشرف قصده ، ومهما كان هدفه نبيلاً ، لا يرضى الإسلام أبداً أن يُتخذ الحرام وسيلةً إلى غاية محمودة ، لأن الإسلام يحرص على شرف الغاية وطُهْر الوسيلة معاً ، ولا تقر شريعة الإسلام بحال مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، أو مبدأ الوصول إلى الحق بالخوض في كثير من الباطل ، بل توجب شريعة الإسلام الوصول إلى الحق عن طريق الحق وحده ، فمن جمع مالاً من ربا أو سحت أو لهوٍ حرام ليبني مسجداً ، أو يُقيم مشروعاً خيرياً ، لم يشفع له نبل قصده ، لأن الحرام في الإسلام لا تؤثر فيه المقاصد والنيات ، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً .

9ـ اتقاء الشبهات أولى :

القاعدة التاسعة : اتقاء الشبهات أولى .

من رحمة الله تعالى بالناس أنه لم يدعهم في ظلمة من أمر الحلال والحرام ، لقد بيَّن الحلال وفصل الحرام ، قال تعالى :

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾


(سورة الأنعام) .



أما الحلال البين فلا حرج في فعله ، وأما الحرام البين فلا رخصة في اتباعه ، وهناك منطقة بين الحلال البين والحرام البين ، هي منطقة الشبهات التي يلتبس بها أمر الحل بالحرمة على بعض الناس لا على كلهم ، إما لاشتباهٍ في الأدلة عليه ، أو لاشتباه في تطبيق النص على الواقعة ، وقد جعل الإسلام من الورع أن يتجنب المسلم هذه الشبهات حتى لا يجره الوقوع فيها إلى مواقعة الحرام الصرف ، قال عليه الصلاة والسلام :

((الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يدري كثير من الناس ، أمن الحلال هي أم من الحرام ، فمن تركها استبراءً لدينه وعرضه ، فقد سلم ، ومن واقع شيئاً منها يوشك أن يُواقع الحرام)) .

[رواه البخاري عن النعمان بن بشير]

10ــ الحرام حرام على الجميع :

القاعدة العاشرة : الحرام حرام على الجميع .

الحرام في شريعة الإسلام يتسم بالشمول والاطراد ، فليس هناك شيء حرام على الأعجمي حلال على العربي ، وليس هناك شيء محظور على الملون مباح للأبيض ، وليس هناك جواز أو ترخيص ممنوح لفئة من الناس ، تقترف باسمه ما طوع لها الهوى ، بل ليس للمسلم خصوصية تجعل الحرام على غيره حلالاً له ، كلا إن الله رب الجميع ، والشرع سيد الجميع ، فما أحل الله بشريعته فهو حلال للناس كافة ، وما حرَّم فهو حرام على الجميع كافة إلى يوم القيامة

السرقة مثلاً حرام ، سواء أكان السارق ينتمي إلى المسلمين أو لا ينتمي ، وسواء أكان المسروق ينتمي إلى المسلمين أو لا ينتمي ، والجزاء لازم للسارق أياً كان نسبه أو مركزه ، وهذا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنه حينما قال :

((إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)) .

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]



11ــ ضابط الكسب الحلال :

القاعدة الحادية عشرة : حول ضابط الكسب الحلال ، هي قاعدة مهمة جداً من القاعدة العامة في الكسب ، أن الإسلام لا يُبيح لأبنائه أن يكتسبوا المال كيفما شاؤوا وبأي طرق أرادوا ، بل هو يفرِّق بين الطرق المشروعة باكتساب المعاش ، نظراً إلى المصلحة الجماعية ، وهذا التفريق يقوم على المبدأ الكلي وهو : إن جميع الطرق لاكتساب المال التي لا تحصل فيها المنفعة للفرد إلا بخسارة فرد غيره غير مشروعة ، وإن الطرق التي يتبادل فيها الأفراد المنفعة فيما بينهم بالعدل والتراضي مشروعة ، هذا المبدأ يبينه قوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا

(سورة النساء) .

لقد أشارت كلمة ﴿ **لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ** ﴾ ــ ولم يقل الله عز وجل لا تأكلوا أموال غيركم ــ في الآية إلى حقيقة أساسية ، وهي ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من أخوة صادقة ، ومشاركة وجدانية حانية ، يجسدها شعور المؤمن الحق أن مال أخيه هو ماله من زاوية واحدة ، وهي وجوب الحفاظ عليه وصونه من التلف والضياع ، فلأن يمتنع عن أكله بالباطل من باب أولى ، وأن مال أخيه هو ماله من زاوية ثانية ، وهي أن المؤمن إذا أكل مال أخيه أضعفه ، وفي إضعافه إضعاف لذاته ، فهو حمل عليه ، فالمؤمن إذا أكل مال أخيه فكأنما أكل ماله ، لذلك ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم :

((**كل المسلم على المسلم حرام ، ماله ودمه وعرضه**)) .

[رواه مسلم عن أبي هريرة]



في الدين حقائق يجب أن تُعلم بالضرورة وهي فرض عين على كل مسلم :

هناك في الدين حقائق يجب أن تُعلم بالضرورة وهي فرض عين على كل مسلم ذكراً كان أو أنثى ، بصرف النظر عن اختصاصه العلمي ، وعمله المهني ، ودوره الاجتماعي ، وحاله النفسي ، فإن لم يعلمها شقي وهلك في الدنيا والآخرة ، حقائق يجب أن تعلم بالضرورة ، أضرب على هذا مثلاً ، حينما يهبط إنسان من طائرة بالمظلة ، هناك حقائقُ كثيرة عن المظلة ، نوع قماشها ، مساحته ، شكله ، لونه ، نوع حبالها ، أطوالها ، أقطارها ، ألوانها ، وطريقة فتح المظلة ، فقد يجهل الذي يستخدم المظلة للهبوط من الطائرة نوع قماشها ومساحته وشكله ولونه ، ونوع حبالها وأطوالها وأقطارها وألوانها ويهبط سالماً ، أما إذا جهل طريقة فتح المظلة فلا بد من أن يصل إلى الأرض ميتاً ، طريقة فتح المظلة يجب أن تُعلم بالضرورة لأي مظلي ، والحلال والحرام جزء من الدين ، وهو من أخطر أجزائه ، وهو الذي ينبغي أن يُعلم بالضرورة ، وحاجة المسلم إلى معرفة الحلال والحرام ، كحاجة المظلي إلى معرفة طريقة فتح المظلة .

إليكم هذه القصة ؛ قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد فتح خيبر الحجا ج بن علاط السلمي ، فأسلم ، وكان غنياً كثير المال ، فقال : يا رسول الله ، إن مالي عند امرأتي أم شيبة بمكة ، ومتفرق في تجار مكة ، فأذن لي يا رسول الله أن آتي مكة لآخذ مالي قبل أن يعلموا بإسلامي ، عندئذ لا أقدر على أخذ شيء منه ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال الحجاج : يا رسول الله ، لا بد من أن أقول أي أتقول ــ أذكر ما هو خلاف الواقع ــ حتى أحتال به لأخذ ماله ، فقال عليه الصلاة والسلام لرحمته وكماله : قل ما شئت ، قال الحجاج : فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنية البيضاء رجالاً من قريش يستمعون الأخبار ، ويسألون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر ، وهي من أقوى قرى الحجاز ، وهم يتجسسون الأخبار من الركبان ، وكان بينهم تراهن عظيم على مئة بعير حول من سيغلب ، أهل خيبر أم رسول الله ؟ فلما رأوا الحجاج ولم يكونوا علموا بإسلامه ، قالوا : الحجاج والله عنده الخبر اليقين ؛ يا حجاج ، إنه قد بلغنا أن القاطع ــ يقصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قد سار إلى خيبر ، فقال الحجاج : عندي من الخبر ما يسركم ، فاجتمعوا عليه يقولون إيه يا حجاج



، قال الحجاج : فقلت لهم : لم يلق محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتل مثلهم ، فهزم هزيمةً لم يُسمع بمثلها ، وأسر محمد وقالوا : لا نقتله حتى نبعث فيه إلى مكة ، فنقتله بين أظهرهم ، بمن كان أصاب من رجالهم ، فانطلق هؤلاء الرجال فرحين أشد الفرح إلى أهل مكة ، فقيل لهم : قد جاءكم الخبر ، هذا محمد ، إنما تنتظرون أن يُقدم به ع ليكم فيُقتل بين أظهركم ، ثم قال لهم الحجاج : أعينوني على غرمائي أريد أن أقدم فأصيب من غنائم محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فجمعوا إلي مالي على أحسن ما يكون ، ففشا ذلك بمكة وأظهر المشركون الفرح والسرور ، وانكسر من كان بمكة من المسلمين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب ، فجعل لا يستطيع أن يقوم من شدة حزنه بهذا الخبر ، ثم بعث العباس إلى الحجاج غلاماً ليقول له : يا حجاج ، الله أعلى وأجل من أن يكون الذي جئت به حقاً ، فقال الحجاج للغلام : اقرأ على أبي الفضل السلام ، وقل له : ليُخلِ لي بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره ، واكتم عني ، فأقبل الغلام فقال : أبشر أبا الفضل فوثب العباس فرحاً كأن لم يمسه شيء ، وأخبره بذلك ، فأعتقه العباس رضي الله عنه لوجه الله ، وقال : لله علي عتق عشر رقاب على هذا الخبر السار ، فلما كان الظهر ، جاءه الحجاج ، فناشد العباس أن يكتم عنه ثلاثة أيام ، وقال : إني أخشى الطلب ، فإذا مَضَتْ ثلاثٌ فأظهر أمرك ، وطالت على العباس تلك الأيام الثلاث ، عمد العباس رضي الله عنه إلى حُلة فلبسها ، وتخلق بخلوقٍ ــ أي تطيب بنوع من الطيب ــ وأخذ بيده قضيباً ، ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش ، وهم يقولون إذا مر بهم لا يصيبك إلا الخير يا أبا الفضل ، هذا والله من التجلد بحر المصيبة ، قال : كلا والله الذي حلفتم به ، لم يصبني إلا خير بحمد الله ، أخبرني الحجاج أن خيبر فتحها الله على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجرت فيها سهام الله وسهام رسوله ، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية بنت ملكهم ، وإنما قال لهم ذلك ليخلص ماله منكم ، وإلا فهو ممن أسلم فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين فقال المشركون : ألا يا عباد الله ، انفلت عدو الله ــ يعنون حجاجاً ــ أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن ، ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك .

تتصل هذه القصة من زاوية واحدة من زواياها بموضوع الخطبة ، ويستنبط منها ثلاث حقائق ؛ الحقيقة الأولى تتعلق بسنة من سنن الله في خلقه ، والثانية تتعلق بخلق عظيم من



أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثالثة تتعلق بحكم فقهي في المال ، أترك لضيق الوقت للأخوة المستمعين الإجابة عن هذه الأسئلة الثلاثة .

أيها الأخوة الكرام ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا لغيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا ، الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني .

فوائد زيت الزيتون :

تطبيقاً لقول الله عز وجل :

وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ

(سورة الأعراف)

إليكم هذا الموضوع العلمي : أهمل الطب الحديث البحث عما في غذاء الإنسان من فوائد وقائية ، وعلاجية ، وغذائية ، لكن في عام ألف وتسعمئة وستة وثمانين ، ظهرت أول دراسة موضوعية عن أثر زيت الزيتون في تخفيض شحوم الدم ، ثم أظهرت دراسة أخرى تبعتها ، أن أمراض شرايين القلب واحتشاء العضلة القلبية ، كانت نادرةً بل شبه معدومة في جزيرة كريت ، بسبب أن أهل هذه الجزيرة يأكلون زيت الزيتون بكميات كبيرة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح :

((**كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه يخرج من شجرة مباركة**)) .

[رواه الترمذي عن عمر بن الخطاب]



يقول العلماء : زيت الزيتون أسهل أنواع الزيوت هضماً ، فيه قيمة وقائية وعلاجية وغذائية ، والأطباء الآن أجمعوا على أن هذا الزيت له تأثير علاجي عجيب ، من هذا التأثير أنه يمكن أن يُستخدم لخفض الكولسترول الضار في الإنسان ، ورفع الكولسترول النافع ، ويستخدم أيضاً لخفض الضغط المرتفع ، ويُستخدم أيضاً لمرضى السكر ، ويستخدم لوقاية الشرايين والأوعية من تصلبها ، وفيه مادة تمنع تخثر الدم وتقي الشرايين من ترسب المواد الدهنية ، ومن التحليلات الدقيقة أن مئة غرام من زيت الزيتون فيه غرام بروتينات ، وأحد عشر غرام من الدسم ، وفيه البوتاسيوم والكالسيوم والمغنيزيوم والفسفور والحديد والنحاس والكبريت ، وفيه ألياف ، وهو غني بأهم الفيتامينات المتعلقة بتركيب الخلايا ونشاطها ، والمتعلقة بالتناسل وبالعظام ، وهو غذاء جيد للدماغ ، وغذاء للأطفال ، وله تأثير في تفتيت الحصيات ؛ حصيات المرارة والمثاني ، وله أثر ملطفٌ لالتهابات الجلد ، ولبعض الأمراض الجلدية ، هذا الزيت له أثر طيب ونافع حتى في الاستعمال الخارجي والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يُوحى . هناك أحاديث كثيرة عن الزيت ، اخترت لكم منها هذا الحديث :

((**كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه يخرج من شجرة مباركة**)) .

[رواه الترمذي عن عمر بن الخطاب]

يكاد بلدنا الطيب بفضل الله تعالى أن يصل إلى البلد الأول في العالم في زراعة شجرة الزيتون .



تفوق الإنسان في الدين بالاستقامة والعمل الصالح :

ختاماً لهذه الخطبة أضع بين أيديكم الحقيقة التالية ، يتفوق الإنسان في الدين لا بحجم ثقافته الدينية ، ولا بحجم عواطفه الجياشة نحو الإسلام والمسلمين ، ولا بحجم المظاهر الدينية التي يحيط بها نفسه ، ولكن يتفوق في الدين بمدى استقامته على منهج ربه قال تعالى :

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ

(سورة الحجرات الآية : 13)

يتفوق أيضاً بحجم عمله الصالح ، الذي يعود نفعه على المسلمين بخاصة ، وعلى الإنسانية بعامة ، قال تعالى :

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟

(سورة الأنعام)

هذه الاستقامة وهذا العمل الصالح لا يُقبلان عند الله في الآخرة إلا إذا بُنيا على معرفة بالله صحيحة ومتينة ، قال تعالى :

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

(سورة يونس)

قيل لأحد العارفين : " من هو الولي ، أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال : لا ، قالوا : أهو الذي يطير في الهواء ؟ قال : لا ، قال : الولي كل الولي ، الذي تجده عند الحرام والحلال " .



أن يجدك حيث أمرك ، وأن يفتقدك حيث نهاك ، وقد لفت نظري أيها الأخوة ، كلمة قالها السيد الرئيس في الاتحاد الدولي للعمال العرب في عام واحد وثمانين ، قال : " إن القريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القريب بعمله ، بخلقه ، بقيمه ، بجهاده " ، هكذا علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .



الباب السادس: مكارم الأخلاق



01 - الحب في الله

02 - الإنسانية



01 - الحب في الله

الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذي جعل المحبة إلى الظفر بالمحبوب سبيلاً ، وجعل الطاعة والخضوع على صدق المحبة دليلاً ، وحرك بها النفوس إلى أنواع الكمالات إيثاراً بطلبها وتحصيلاً ، وفضل أهل محبته على سائر المحبين تفضيلاً ، فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسماوات وعليها فطرت سائر المخلوقات .

وأشهد أن لا إله وحده لا شريك له شهادة مقرًّا بوحدانية ربوبيته ، ووحدانية ألوهيته منقاداً إلى محبته ، مذعناً له بطاعته ، معترفاً بنعمته ، طامعاً في مغفرته ، بريئاً إليه من حوله وقوته إلى حوله وقوته .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، وأمينه على وحيه ، أقرب الخلق إليه ، وأحبهم لديه ، وأكرمهم عليه ، أرسله للإيمان منادياً والى الجنة داعياً ، والى الصراط المستقيم هادياً ، رفع الله له ذكره ، وشرح صدره ، وافترض على العباد محبته وطاعته ، فلا يؤمن عبد حتى يكون النبي أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين .

اللهم صلِّ ، وسلم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارض عنا وعنهم يا رب العالمين .

يقول أحد هؤلاء الأصحاب الكرام وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

" ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون ، وبنهاره إذ الناس يفرطون ، وبحزنه إذ الناس فرحون ، وبكائه إذ الناس يضحكون ، وبصمته إذ الناس يخلطون ، وبخشوعه إذ الناس يختالون "

[رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود]

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير

.



المحبة من أخصّ خصائص الإنسان وبطولة الإنسان أن يعرف من ينبغي أن يحب :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، موضوع الخطبة اليوم تلخصه هذه الحكاية القصيرة :

مرّ حكيم على رجل يبكي على قبر ، فسأله عن سبب بكائه ، فقال : إن لي حبيباً قد مات ، فقال له الحكيم : لقد ظلمت نفسك بحب حبيب يموت ، فلو أحببت حبيباً لا يموت لما تعذبت بفراقه .

أيها الأخوة المؤمنون ، المحبة من أخص خصائص الإنسان ، ولكن البطولة ليست في أن تحب ، ولكن البطولة كل البطولة في أن تعرف من ينبغي أن تحب ، هذا موضوع الخطبة

للإنسان عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، والإنسان مفطور على حبّ الكمال ، وحبّ الجمال ، وحبّ النوال (أي العطاء) ، وحينما يدرك العقل من خلال التفكر الدقيق في خلق السماوات والأرض أن الكون مسخر للإنسان تسخير تعريف وتكريم ، وحينما ينظر الإنسان في الحوادث التي هي أفعال الله ، فيرى أنها تنطق بالعدل والرحم ة والإحسان ، وحينما يفهم الإنسان الفهم القويم للنقل الصحيح ، حيث أخبر الله من خلاله أن الإنسان هو المخلوق الأكمل ، خلقه في أحسن تقويم ، وكرمه أعظم تكريم ، خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .

حينما يتفكر الإنسان في خلق الله ، وينظر في أفعال الله ، ويتدبر كلام الله ، يقوده عقله الذي هو أداته لإدراك الحقائق ، وتقوده فكرته التي جبلت على من أحسن إليها ، إلى محبة الله ذي الجلال والإكرام ، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((**أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً**)) .

[ورد في الأثر]



وقد ورد في الأثر أنه :

((لا إيمان لمن لا محبة له)) .

[ورد في الأثر]

إن الله جلّ ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، جعل هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها للخير والرشاد ، وشرها أوعاها للغي والفساد ، وسلط عليها الهوى لتنال بمخالفته جنة المأوى، وهيأها لأمر عظيم ، وأعدها لجنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم ، واقتضت حكمته جلّ شأنه ألاّ تصل النفس إليها إلا من طريق المصائب والنصب ، ولا تعبر إليها إلا على جسر من المشقة والتعب :

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْآخرة حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، و إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِشَهْوَةٍ)) .

[ضعيف عن عبد الله بن عباس]

المحبة قوت القلوب وغذاء الأرواح :

أيها الأخوة المؤمنون ، المحبة هي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وهي الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات ، وهي النور الذي من فَقَدَه فهو في بحار الظلمات ، وهي الشفاء الذي من عدمه حلت به الأسقام ، وهي اللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِ لَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)) .

[متفق عليه عن أنس بن مالك]



إذا عرف الإنسان ربه أحبه ، وإذا أحبه خطب ودَّه ، فاستقام على أمره ، وعمل الصالحات ابتغاء وجهه ، عندئذ يجد حلاوة الإيمان بعد أن ذاق جحيم الكفران ، يقول الله تعالى فيما رواه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه في حديث صحيح :

((لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولأن سألني لأعطينه ، ولأن استعاذني لأعيذنه)) .

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

المحبة معقد النسبة بين الرب وبين العبد :

أيها الأخوة المؤمنون ، المحبة معقد النسبة بين الرب وبين العبد ، فإنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد ، ومحض الربوبية من الرب ، والمحبة هي معقد هذه النسبة ، وهي روح الإيمان والأعمال ، وقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب ، فالمرء مع من أحب ، والمحبة هي الميل الدائم بالقلب الهائم ، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وموافقة المحبوب في المشهد والمغيب ، وهو استكثار القليل من التقصير ، واستقلال الكثير من الطاعة ، وهي أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منه شيء ، وهي أن تهب إرادتك ، وعزمك ، وأفعالك ، ونفسك ، ومالك ، ووقتك لمن تحب ، وتجعلها حبساً في مرضاه ومحابّه ، وقد جرت مسألة في المحبة بمكة المكرمة أيام الموسم ، فتكلم الشيوخ جميعاً ، وكان فيهم الجنيد ، كان الجنيد أصغرهم سناً ، قالوا : هاتِ ما عندك يا جنيد ، فقال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، فإذا تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فهو مع الله ، فهو بالله ولله ومع الله .



من علامات المحبين لربهم :

1 ـ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين :

أيها السادة الأعزاء ، آية كريمة في القرآن الكريم تؤكد هذه المحبة ، قال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤

(سورة المائدة) .

الذي أجمع عليه العارفون أن الله جلّ جلاله يحبهم ، وأنهم يحبونه ، فمحبة الرب لرسله وأنبيائه ولأوليائه صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه ، بل إن رحمته وإحسانه وعطاءه أثر لمحبته ، وموجب لها ، فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب ، ومحبة العبد لربه فوق كل محبة ، ولا نسبة بينها وبين سائر المحابِّ ، وهي حقيقة لا إله إلا الله ، ومن علامات المحبين لربهم أنهم أذلة أعزة ، أذلة على المؤمنين ، أي رحماء بهم ، مشفقون عليهم ، فهم للمؤمنين كالوالد لولده ، أعزة على الكافرين ، أي هم أشداء عليهم لا يداهنونهم ، ولا يرهبونهم .



2 ــ يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم وألسنتهم وأموالهم وأيديهم :

والعلامة الثانية أنهم يجاهدون في سبيل الله ، يجاهدون بأنفسهم، وبألسنتهم ، وبأموالهم ، وبأيديهم .

3 ــ لا تأخذهم بالله لومة لائم :

والعلامة الثالثة أنهم لا تأخذهم بالله لومة لائم ، لأن الله معهم ، وإذا كان الله معهم فمن يستطيع أن يكون عليهم ؟ قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

(سورة المائدة)



المؤمنون أشد حباً لله من حبّ المشركين لأندادهم الذين يحبونهم ويعظمونهم :

آية ثانية تؤكد هذه المحبة ، قال تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

(سورة البقرة)

لقد أخبر الله تعالى من خلال هذه الآية الكريمة أنه من أحب من دون الله شيئاً كما ينبغي أن يحب الله فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، إن هذا الند ند في المحبة والولاء ، لا ند في الخلق والإنشاء ، بل إن أكثر أهل الأرض اتخذوا أنداداً من دون الله في الحب والتعظ يم ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، أي إن المؤمنين أشد حباً لله من حبّ المشركين لأندادهم الذين يحبونهم ويعظمونهم ، ولو ترى هؤلاء المشركين في المحبة والتعظيم لأندادهم وآلهتهم ، لو تراهم وهم في النار ، وأندادهم معهم يقولون :

قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾

(سورة الشعراء)

بل إن هؤلاء المشركين في المحبة والتعظيم يحبون أندادهم وآلهتهم حباً من جنس حب المؤمنين لله ، وهو محبة ممزوجة بذل وتعظيم وتقديس يحملهم على عبادتهم بالدعاء ، وعلى طاعتهم فيما يشرعون لهم .



أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ
ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

(سورة الشورى)

على كل إنسان أن يعطي دليلاً على صدق محبته لله و لرسوله :

أيها الأخوة المستمعون ، أيتها الأخوات المستمعات ، لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى ، فلو يُعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي، فقيل لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة ، قال تعالى :

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

(سورة آل عمران)

فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه .

ثم طولبوا بتزكية البينة إذ أن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ، فهلموا إلى البيعة .



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ﴾

(سورة التوبة)

فلما رأوا عظمة الثمن وجلال المشتري ، ورأوا أن من أعظم الغبن أن يبيعوا أنفسهم وأموالهم لغير الله بثمن بخس ، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار ، فلما تمّ العقد ، وسلموا المبيع ، قِيل لهم : مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معها

إذا غرست شجرة المحبة بالقلب ، وسقيت بماء الإخلاص ، ومتابعة الحبيب ، أثمرت أنواع الثمار ، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها في السماء .

من الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها :

1 ـ قراءة القرآن بالتفهم والتدبر لمعانيه :

يا أيها الأخوة الأحباب ، من الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها ، قراءة القرآن بالتفهم والتدبر لمعانيه ، وما أريد به ، والتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ، فإنها توصل إلى درجة المحبوبية بعد المحبة ، ودوام ذكر الله على كل حال باللسان والقلب ، فنصيب العبد من المحبوبية على قدر نصيبه من الذكر ، وإيثار محاب الله على محاب العبد عند غلبات الهوى ، والتسنم إلى محابّه ، وإن صعب المرتقى .



2 ــ مطالعة القلب لأسماء الله وصفاته ومعرفتها ومشاهدة آثارها :

ومن الأسباب الجالبة للمحبة ، مطالعة القلب لأسماء الله ، وصفاته ، ومعرفتها ، ومشاهدة آثارها ، والتقلب في رياض هذه المعرفة ، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته أحبه لا محالة ، ومشاهدة بره ، وإحسانه ، وآلائه ، ونعمه الظاهرة والباطنة ، فإنها داعية إلى المحبة، والخلوة مع الله ، ومناجاته ، وتلاوة كلامه ، والتأدب بأدب العبودية بين يد يه ، ومجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما تنتقى أطايب الثمر ، ومباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل .

أوسع بابٍ إلى أن يكون العبد محبوباً عند الله أن يكون على شاكلة الذين يحبهم الله تعالى:

أيها الأخوة الكرام ، سالكو طريق المحبة إن أقصر طريق وأوسع بابٍ إلى أن يكون العبد محبوباً عند الله أن يكون على شاكلة الذين يحبهم الله جلّ جلاله ، وأن يبتعد عن الصفات التي لا يحبها الله في عباده .

فالله يحب الصابرين ، والله يحب التوابين ، والله يحب المتطهرين ، والله يحب المحسنين ، وإن الله يحب المتوكلين ، وإن الله يحب المقسطين ، ويحب المتقين .

والله لا يحب الظالمين ، ولا يحب المعتدين ، ولا يحب المفسدين ، ولا يحب المسرفين ، ولا يحب المستكبرين ، ولا يحب الفرحين – أي في الدنيا – ولا يحب الكافرين ، ولا يحب الخائنين ، ولا يحب من كان مختالاً فخوراً ، والسنة المطهرة طافحة بالنماذج الإيمانية التي يحبها الله .

فالله يحب إغاثة اللهفان ، وإتقان العمل والعدل بين الأولاد ولو في القبل ، ويحب أن يرى عبده تعباً في طلب الحلال ، ويحب حفظ الود القديم ، ويحب الرفق في الأمر كله ، ويحب



سمح البيع سمح الشراء ، ويحب السهل الطلق ، ويحب الشاب التائب ، ويحب المؤمن المحترف ، ويحب الفقير المتعفف ، ويحب الغيور ، ويحب القلب الحزين .

وإن الله يبغض البخيل ، والسائل الملحف ، والغني الظلوم ، والفاحش البذيء ، والوسخ والشعث ، ويبغض البذخين الفرحين المرحين ، ويبغض كل عالم بالدنيا ، جاهل بالآخرة ، ولا يحب الطلاق ، والعقوق ، ولا يحب كل فاحش متفحش .

أحب الأعمال إلى الله :

وأحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على المسلم ، والحب في الله ، والبغض في الله ، وحفظ اللسان ، والصلاة لوقتها ، وإطعام الطعام ، وأحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم ، وأحب البلاد إلى الله مساجدها ، وأحب الحديث إلى الله أصدقه ، وأحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيادي ، وأحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله ، وأحسنهم خلقاً ، وأبغض الرجال إلى الله الألد الخصم ، ومن كان ثوبه خيراً من عمله ، وأبغض الخليقة إلى الله الكذابون .

وفي الأثر القدسي :

((أحب ثلاثاً ، وحبي لثلاث أشد ، أحب الطائعين ، وحبي للشاب الطائع أشد ، أحب الكرماء ، وحبي للفقير الكريم أشد ، وأحب المتواضعين ، وحبي للغني المتواضع أشد، وأبغض ثلاثاً ، وبغضي لثلاثٍ أشد ، أبغض العصاة ، وبغضي للشيخ العاصي أشد ، وأبغض البخلاء ، وبغضي للغني البخيل أشد ، وأبغض المتكبرين ، وبغضي للفقير المتكبر أشد)) .

[ورد في الأثر]



الحب في الله و الحب مع الله :

أيها الأخوة أحباب الله ، هناك موضوع بالغ الدقة والخطورة ، هناك فرق كبير وخطير بين الحب في الله وبين الحب مع الله ، فالحب في الله هو من كمال الإيمان ، بينما الحب مع الله هو عين الشرك ، إذا تمكنت محبة الله في قلب العبد أوجبت هذه المحبة أن يحب العبد ما يحب الرب ، عندئذ يحب العبد رسل الله جميعاً ، وأنبياءه جميعاً ، وأولياءه ، والدعاة إليه ، وعامة المؤمنين ، ويبغض تبعاً لذلك ما يبغض الله عز وجل من العصاة ، والفجار ، والكفار ، وعلامة الحب في الله والبغض في الله ألاّ ينقلب البغض لبغيضِ الله حباً إذا أحسن إليك ، وقضى حوائجك ، وألاّ ينقلب الحب لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليك من جهته ما تكرهه ؛ إما خطأً ، أو عمداً ، مطيعاً لله فيه ، أو متأولاً ، أو مجتهداً ، أو باغياً .

الحب مع الله نوعان ؛ نوع يقدح في أصل التوحيد ونوع يقدح في كمال الإخلاص :

أيها الأخوة المؤمنون ، الدين كله يدور على أربع قواعد ، حب وبغض ، ويترتب عليهما فعل وترك ، فمن كان حبه ، وبغضه ، وفعله ، وتركه لله فقد استكمل الإيمان ، هذا هو الحب في الله ، وأما الحب مع الله فنوعان ، نوع يقدح في أصل التوحيد ، وهو شرك لا محالة ، ونوع يقدح في كمال الإخلاص ، ولا يخرج من الإسلام .

النوع الأول : حب كما يحب المشركون أوثانهم ، وأصنامهم ، وآله تهم التي يعبدونها من دون الله ، محبة تأله وميالات ، يتبعها خوف ورجاء ودعاء ، وهذه المحبة هي عين الشرك الذي لا يغفره الله .

والنوع الثاني : محبة ما زينه الله تعالى في النفوس ، من النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث ، فيحبها محبة شهوة كالجائع للطعام ، والظمآن للماء ، هذه المحبة ثلاثة أنواع ، إن أحبها لله توسلاً إليه بها ،



واستعانةً بها على طاعته ، ومرضاته ، أثيب عليها ، يقول أحد الأصحاب الكرام : " حبذا المال أصون به عرضي ، وأتقرب به إلى ربي " .

إن أحب هذه الأشياء توسلاً بها إلى الله ، وابتغاء مرضاته أثيب عليها ، وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه ، ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه ، بل نالها بحكم الميل الطبيعي ، كانت من المباحات ، ولم يعاقب عليها ، وإن أحبها وسعى جاهداً لتحصيلها ، والظفر بها ، وقدمها على ما يحب الله ، ويرضاه كان غارماً لنفسه متبعاً لهواه ، فالأولى محبة السابقين ، والثانية محبة المقتصدين ، والثالثة محبة الظالمين .

بطلان مسألة المحبة يبطل مقامات الإيمان و الإحسان :

أخوتنا الأكارم ، لو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان ، ولتعطلت منازل السير إلى الله ، فإنها روح كل مقام ، وكل منزلة ، وكل عمل ، وإذا خلا منها العمل كالميت لا روح فيه ، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها ، بل هي حقيقة الإخلاص ، بل هي الإسلام نفسه ، إذ أنه الاستسلام بالذل ، والحب ، والطاعة لله ، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة ، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ، وإن الإله الذي يؤلهه العباد حباً ، وذلاً ، وخوفاً ، وتذللاً له ، والعقول تحكم بوجوب تقديم محبته على محبة النفس ، والأهل ، والمال ، والولد ، فالعقل ، والفطرة ، والشرع ، والنظر كلها تدعو إلى محبته سبحانه ، بل إلى توحيده في المحبة ، وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر والعقول ، إن الله لا يحب القلب المشترك ، والعمل المشترك ، العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يقبل عليه .

قال بعض العلماء : "عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها ، قلب فارغ من محبة الله ، والشوق إليه ، والأنس به ، ومحبة لا تتقيد برضاء الله تعالى ، وامتثال أمره ، وعلم لا يعمل به ، وعمل لا إخلاص فيه ، ولا اقتداء ، وبدن معطل من طاعة الله ، وخدمة عباده ، وفكر يجول فيما لا ينفع ، ومال لا ينفق منه ، فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ، ولا يقدمه أمامه في الآخرة ،



ووقت معطل على اغتنام بر ، وقربة إلى الله عز وجل ، وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ، ولا تعود عليك بصلاح دنياك ، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله ، وهو أسير في قبضته ، ولا يملك ضراً ، ولا نفعاً ، ولا موتاً ، ولا حياةً ، ولا نشوراً ".

المعرفة تقود إلى الحب والحب يقود إلى الطاعة والطاعة ثمن الاستخلاف و النصر :

أيها الأخوة الأحباب ، المعرفة تقود إلى الحب ، والحب يقود إلى الطاعة ، والطاعة ثمن الاستخلاف ، والتمكين ، والنصر العزيز المؤزر ، وقد ورد في تاريخ الطبري الجزء السادس في الصفحة الواحدة بعد الخمسمئة ، وفي كتاب البداية والنهاية الجزء التاسع في الصفحة الواحدة والأربعين بعد المئة أن قتيبة بن مسلم ــ رحمه الله تعالى ــ توغل في بلاد المشرق فاتحاً ، وبعد أن فتح كشغر ، واقترب من الصين كتب إليه إمبراطور الصين أن ابعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ، ونسأله عن دينكم ، فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلاً ، لهم جمال ، وأجسام ، وألسن ، وشعور ، وبأس ، فكلمهم قتيبة وفاطنهم – أي امتحن ذكاءهم – فرأى عقولاً وجمالاً ، فأمر لهم بعدة حسنة من السلاح ، والمتاع الجيد ، وقد أمر عليهم الهبيرة بن المشمرج ، وكان مفوهاً طليق اللسان ، وقال لهم : سيروا على بركة الله ، وبالله التوفيق ، وإذا دخلتم على ملكهم فأعلموه أني قد حلفت ألاّ أنصرف حتى أطأ بلادهم ، وأجبي خراجهم ، فساروا وعليهم الهبيرة ، فلما قدموا إليه أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا عليه وقد لبسوا ثياباً بيضاً تحتها الغلائل ، ولبسوا النعال ، وتطيبوا ، دخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ، ولا أحد من جلسائه فنهضوا وانصرفوا ، وقال الملك لجلسائه : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوماً أشبه بالنساء ، فلما كان الغد أرسل إليهم ، فلبسوا الوشي ، وعمائم الخز ، والمطارف ، وغدوا عليه فلما دخلوا قيل لهم : ارجعوا ، فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ، هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى ، فلما كان اليوم الثالث أرسل



إليهم ، فشدوا عليهم سلاحهم ، ولبسوا البيض ، والمغافر ، وتقلدوا السيوف ، والرماح ، وتنكبوا القسي ، وغدوا فقيل لهم : ارجعوا قبل أن يدخلوا عليه لِما دخل قلبهم من الخوف ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط ، فلما أمسى أرسل إليهم الملك أن ابعثوا إلي زعيمكم ، وأفضلكم رجلاً ، فبعثوا إليه الهبيرة ، فقال الملك له حين دخل عليه ، قد رأيتم عظيم ملكي ، وأنه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في بلادي بمنزلة البيضة في كفي ، وأنا سائلك عن أمر ، فإن لم تصدقني قتلتكم جميعاً ، قال سل : قال : لِمَ صنعتم ما صنعتم من الزي في اليوم الأول ، والثاني والثالث ؟ فقال الهبيرة : أما زينا الأول فلباسنا في أهلنا ، وأما زينا في اليوم الثاني فإذا أتينا أمراءنا ، وأما زينا في اليوم الثالث فزينا لعدونا ، فقال الم لك : ما أحسن ما دبرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم قتيبة فقولوا له : لينصرف ، فإني عرفت حرصه ، وقلة أصحابه ، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه ، فقال له هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك ، وآخرها في نابت الزيتون ، وكيف يكون حريصاً من خلف الد نيا قادراً عليها ، وغزاك في عقر دارك ، وأما تخويفك إيانا بالقتل ، فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه ، قال : فما الذي يرضي صاحبك ، قال : إنه حلف ألاّ ينصرف حتى يطأ أرضكم ، قال : فإنا نخرجه من يمينه ، فنبعث إليه بتراب من أرضنا فيط أه ونبعث إليه بالمال الذي يطلب نظير أمننا وحمايتنا ، وهكذا نزل ملك الصين عند مطلب قتيبة من دون أن يخوض حرباً رهبةً وخوفاً :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى
ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى
شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة النور)



إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم :

وقد يدور في الأذهان سؤال لا يخفى عليكم ، أجاب عنه القرآن فقال :

۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾

(سورة مريم)

وقد يقول قائل : ما العمل ؟ يجيب القرآن الكريم :

وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾

(سورة الأنفال)

إِنَّ ٱللَّهَ

لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ

(سورة الرعد)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾

(سورة محمد)



02 - الإنسانية

القرآن الكريم ضمَّن الجهاد معنىً إنسانياً نبيلاً وفريداً وحدد له مقاصده العليا :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، نحن في السابع عشر من رمضان ، وفي مثل هذا اليوم لسنتين خلتا من الهجرة كانت موقعة بدر الكبرى ، وفيها انتصر المسلمون نصراً مؤزراً عزيزاً ، في أول مواجهة جماعية مع قوى الكفر والشرك ، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ١٢٣

(سورة آل عمران)

وقال تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ٣٩

(سورة الحج)

أيها الأخوة الكرام لقد ضمن القرآن الكريم الجهاد معنىً إنسانياً نبيلاً وفريداً ، وحدد له مقاصده العليا ، منزهةً عن الهوى ، منزهة عن الأغراض المادية العاجلة ، والمطامح الشخصية والعنصرية ، من شهوة العلو في الأرض أو التوسع فيها ، لتكون أمة هي أربى من أمة ، قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ١٩٣

(سورة البقرة)



الجهاد سند مكين للإسلام لنشر العدل و الإحسان :

وإن الإسلام أيها الأخوة لم يجعل الجهاد مفروضاً في أعلى مراتب الفرضية وأعظمها مثوبة من أجل الدفاع عن الوجود ، أو الحفاظ على مقوماته فحسب ، بل أولاه عناية فائقة ، إذ جعله سنداً مكيناً لدعوته التي تسعى إلى نشر رسالة السماء إلى الأرض ، لتتحقق خلافة الإنسان فيها عن طريق التمسك بمبادئ الحق والخير السامية ، وقيم العدل والإحسان الرفيعة ، فجعل ه الله جلّ جلاله خالصاً ، ومخلصاً لوجهه الكريم تعالى ، وابتغاء مرضاته ، ومرضاتُه أيها الأخوة لا تتم إلا إذا سادت تعاليمه ، وعلت في الأرض مُثله ، وحتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، ولا أدل على صحة هذه المبادئ ، وتلك المفاهيم من هذه السعادة التي تملأ جوانح الإنسان حينما يكتشف سرّ وجوده ، وجوهر رسالته ، وينطلق في الطريق الكبير الذي خلق من أجله .

كرم الله تعالى الإنسان بالخلافة على الأرض ومن مظاهر هذا التكريم :

1 ـ خلقه في أحسن تقويم وصوره فأحسن صوره :

أخوة الإيمان في كل مكان ، الإنسان في نظر الإسلام مخلوق متميز ، مكرم ، ميزه الله ، وكرمه ، وفضله على كثير من خلقه ، ومن مظاهر هذا التكريم استخلافه في الأرض ، قال تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

(سورة البقرة)



لقد كرمه الله تعالى بالخلافة على الأرض ، وهيأه بالعقل ، والعلم ، والإرادة ، والتكليف ، ومن مظاهر هذا التكريم أنه خلقه في أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صوره ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يكرر هذا الدعاء في سجوده ، كان يدعو ويقول :

((**سجد وجهي للذي خلقه ، وصوره ، وشق سمعه ، وبصره ، فتبارك الله أحسن الخالقين**)) .

[أخرجه الترمذي والنسائي عن عائشة]

2 ــ نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته إكراماً له :

ومن مظاهر هذا التكريم أن الله سبحانه وتعالى نفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته إكراماً له ، قال تعالى :

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾

(سورة الحجر)

وهذه النفخة ليست خاصة بآدم أبي البشر ، فإن بنيه ونسله قد نالهم حظ منها .

3 ــ سخر له ما في السماوات وما في الأرض تسخير تعريف وتكريم :

أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، ومن مظاهر هذا التكريم الإلهي للإنسان أنه سخر له ما في السماوات وما في الأرض تسخير تعريف وتكريم ، قال تعالى :

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

(سورة الجاثية)



وفي آية أخرى :

أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

(سورة لقمان)

ومعنى هذا التسخير أن الطاقات الكونية كلها مهيأة ومبذولة للإنسان ، لا يستعصي منها شيء عليه ، وأن الإنسان هو واسطة العقد في هذا العالم ، وإن صغر حجمه بالنسبة إلى المكان ، أو قصر عمره بالنسبة إلى الزمان ، فلا يجوز لهذا الإنسان أن يؤله شيئاً في هذا العالم ، أو أن يتعبد له رغباً أو رهباً ، والذين عبدوا بعض ما في الكون قلبوا الحقائق، فحولوا الإنسان من سيد سخر له الكون إلى عبد ذليل يسجد لنجم ، أو شجرة ، أو بقرة ، أو حجر ، أو غير ذلك .

4 ــ فتح له باب التقرب إليه أنى شاء ومتى شاء :

ومن دلائل تكريم الله للإنسان أنه فتح له باب التقرب إليه أنى شاء ، ومتى شاء ، قال تعالى :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ

(سورة البقرة)

يدعوه فيجده ، أقرب إليه من حبل الوريد ، دون وسيط أو شفيع ، قال تعالى :

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ

(سورة البقرة)



وليس هذا لخاصة الأولياء والصالحين دون العصاة المذنبين ، قال تعالى :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

(سورة الزمر)

5 ــ اعترف بكيانه كله جسماً ونفساً وعقلاً وقلباً ووجداناً وإرادةً :

ومن تكريم الإسلام للإنسان أنه اعترف بكيانه كله جسماً ، ونفساً ، وعقلاً ، وقلباً، ووجداناً ، وإرادةً ، لهذا أمره بالسعي في الأرض ، والمشي في مناكبها ، والأكل من طيباتها، والاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده ، وحثه على النظافة ، والتجمل ، والاعتدال ، ونهاه عن المسكرات ، والمفتِّرات ، وكل ما يضره تناوله وفاءً بحق جسده .

وأمره بعبادة الله وحده ، والتقرب إليه بأنواع الطاعات من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وزكاة ، وحج ، وعمرة ، وذكر ، ودعاء ، وإنابة ، وتوكل ، وخوف ، ورجاء ، وبر ، وإحسان ، وغير ذلك من أنواع العبادات وفاءً بحق نفسه ، وأمره بالنظر والتفكر في ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، وفي مصير الأمم وسنن الله في المجتمعات ، كما أمره بطلب العلم والتماس الحكمة ، وأنكر عليه الجمود وتقليد الآباء والكبراء كل ذلك وفاءً بحق عقله .

ولفته إلى جمال الكون بأرضه وسمائه ، ونباته وحيوانه ، وما زانه الله به من الحسن والبهجة ليشبع حاسة الجمال في نفسه ، وليشعره في أعماقه بعظمة ربه ، الذي أحسن كل شيء خلقه ، وذلك رعاية لجانب الوجدان والعاطفة فيه ، لقد اعترف به ، بكيانه كله ، جسماً ، ونفساً ، وعقلاً ، وعاطفة .

وقبل أن تسمع أذن الدنيا عن حقوق الإنسان لاثني عشر قرناً أو تزيد ، ويوم كان العالم كله لا ينظر إلى الإنسان إلا من جهة ما عليه من الواجبات يُطالب بأدائها ، وإلا كان عليه



من العقاب ما يستحق ، جاء الإسلام ليقرر جهرة أن للإنسان حقوقاً ينبغي أن تُرعى ، كما أن عليه واجبات يجب أن تؤدى ، وكما أنه يُسأل عما عليه يجب أن يعطى ماله ، لك واجب يقابله حق ، كما أن كل حق يقابله واجب ، ومن هذه الحقوق التي أعلنها الإسلام جهرة قبل خمسة عشر قرناً ، حق الحياة ، وحق الكرامة الإنسانية ، وحق التفكير ، وحق التدين ، وحق الاعتقاد ، وحق التعبير ، وحق التعلم ، وحق التملك ، وحق الكفاية ، وحق الأمن من الخوف .

الحقوق التي قدسها الإسلام للإنسان عديدة منها :

1 ــ حق الحياة :

أخوة الإيمان حضوراً ومستمعين ، لقد قدس الإسلام حقّ الحياة ، وحماه بالتربية والتوجيه ، وبالتشريع والقضاء ، وبكل المؤيدات النفسية والفكرية والاجتماعية ، وعدّ الحياة هبة من الله تعالى لا يجوز لأحد كائناً من كان أن يسلبها منه ، فالإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله .

وقد أنكر الإسلام على أهل الجاهلية قتلهم أولادهم سفهاً بغير علم ، قال تعالى :

وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾

(سورة التكوير)

ولم يفرق الإسلام في حق الحياة بين أبيض وأسود ، ولا بين شريف ومشروف ، ولا بين حر وعبد ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا وبين كبير وصغير ، حتى الجنين في بطن أمه له حرمة لا يجوز المساس بها ، ومن هنا جاء تحريم الإجهاض ، حتى الجنين الذي ينشأ من طريق حرام ، لا يجوز لأمه ولا لغيرها أن تسقطه ، لأنه نفس بريئة ، لا يحل الاعتداء عليها ،



فلا تزر وازرة وزر أخرى ، لذلك شُرع القصاص صوناً لحياة كل الأطراف ، وشرعت الدية والكفارة في القتل الخطأ ، وقد حمى الإسلام حياة الحيوان أيضاً إن لم يكن منه أذىً ، وفي الحديث الصحيح :

((دخلت النار امرأة في هرة حبستها حتى ماتت ؛ لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)) .

[مُتَّفَقٌ عَلَيْه عن ابن عمر]

2 ـ حق الكرامة و حماية العرض :

وأما حق الكرامة ، وحماية العرض فقد أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان ، مع حرمة الدماء والأموال ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن ذلك في حجة الوداع أمام الجموع المحتشدة في البلد الحرام والشهر الحرام ، واليوم الحرام فقال عليه الصلاة والسلام :

((إن الله حرم عليكم دماءكم وأعراضكم وأموالكم)) .

[متفق عليه عن ابن عمر]

فلا يجوز أن يُؤذى إنسان في حضرته ، ولا أن يهان في غيبته ، سواء أكان هذا الإيذاء للجسم بالفعل أم للنفس بالقول ، فربما كان جرح القلب بالكلام أشد من جرح الأبدان بالسياط أو بالسنان .

لقد حرم الإسلام أشد التحريم أن يُضرب إنسان بغير حق ، وأن يُجلد ظهره بغير حدّ ، وأنذر باللعنة من ضرب إنساناً ظلماً ، ومن شهده يضرب ولم يدفع عنه .

كما حرم الإسلام الإيذاء الأدبي للإنسان ، حرم الهمز ، وحرم اللمز والتنابز بالألقاب ، والسخرية ، والغيبة ، وسوء الظن بالناس ، وكفل الإسلام صون كرامة الإنسان بعد مماته ، ومن هنا جاء الأمر بغسل الميت ، وتكفينه ، ودفنه ، والنهي عن كسر عظمه ، أو الاعتداء عليه ، أو على جثته ،



وقد جاء في الحديث النبوي :

((كسر عظم المَيْت ككسره حياً)) .

[رواه أبو داود عن عائشة]

وكما حمى الإسلام جسم المَيْت بعد الموت حمى عرضه وسمعته لئلا تلوكها الأفواه ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((لا تذكروا موتاكم إلا بخير)) .

[رواه النسائي عن عائشة]

3 ــ حق الكفاية :

أخوة الإيمان في كل مكان ، وأما حق الكفاية التامة فمن حق كل إنسان أن تُهيأ له كفايته التامة من العيش ، حيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة ، من مأكل ، وملبس ، ومسكن ، وعلاج ، والأصل أن يكون للإنسان دخل كاف يحقق كفايته منه عن طريق مشروع؛ من زراعة ، أو تجارة ، أو صناعة ، أو وظيفة ، أو حرفة ، فإن لم يكن للإنسان دخل يكفيه كان على أقاربه الموسرين أن يحملوه لأنه جزء منهم ، قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

(سورة الأنفال)

فإن لم يكن له أقارب موسرون يستطيعون حمله وجبت كفايته من الزكاة التي فرضها الله على المسلمين ، تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم ، والزكاة فرضت لتحقيق تمام الكفاية للإنسان ، وذكر الفقهاء أن الزواج لمن لا زوجة له من تمام الكفاية ، وأن آلات الحرفة من تمام



الكفاية ، وأن كتب العلم من تمام الكفاية ، وهذه الكفاية التامة تجب للإنسان الفقير ، تجب له ولأسرته مدة عام بأكمله على مذهب ، ومدة العمر كله على مذهب آخر ، حيث يغدو آخذ الزكاة دافعاً للزكاة ، يقول عمر عملاق الإسلام رضي الله عنه : "إذا أعطيتم فأغنوا " .

من ثمرات الإنسانية في الإسلام :

1 ـ مبدأ الإخاء البشري :

أيها الأخوة المؤمنون ، من ثمرات الإنسانية في الإسلام مبدأ الإخاء البشري الذي نادى به الإسلام ، وأساس هذا المبدأ أن البشر جميعاً أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ، ضمتهم هذه البنوة الواحدة المشتركة ، والرحم الواصلة ، قال تعالى

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)

(سورة الأنفال)

و ربما فهمت كلمة الأرحام في هذه الآية بالمعنى الإنساني الواسع لتتسق مع بداية الخطاب ، و قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو دبر كل صلاة ويقول :

((اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك ، اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك ، اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة)) .

[الإمام أحمد في مسنده عن زيد بن أرقم رضي الله عنه]



ويزداد هذا الإخاء توثقاً إذا أضيف إليه عنصر الإيمان ، قال تعالى :

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الحجرات)

فالمسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ولا يحقره ، ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، لقد غسل الإسلام أرجاس الجاهلية ، وطهرها من الغل والحسد ، ونقاها من الأنانية والشح والبخل ، ومحا منها فوارق الجنس واللون والقبيلة والطبقة .

2 ــ مبدأ المساواة الإنسانية :

ومن ثمرات الإنسانية في الإسلام مبدأ المساواة الإنسانية ، أساس هذا المبدأ أن الإسلام يحترم الإنسان ، ويكرمه من حيث هو إنسان ، الإنسان من أية سلالة ومن أي لون من غير تفرقة بين عنصر وعنصر ، وبين قوم وقوم ، وبين لون ولون ، يقول الله تبارك وتعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

(سورة الحجرات) .

وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، وقال في معنى هذه الآية:

((**يا أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**)) . **[رواه ابن النجار عن أبي سعيد]**



العصر الإسلامي الأول عصر مبادئ لا عصر أشخاص :

أيها الأخوة ، في خلافة سيدنا عمر ــ رضي الله عنه وأرضاه ــ جاءه إلى المدينة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة يعلن إسلامه ، فيرحب به عمر أشد الترحيب ، وفي أثناء طواف هذا الملك حول الكعبة داس بدوي طرف إزار الملك الغساني ، فيغضب الملك ويلتفت إلى هذا البدوي فيضربه فيهشم أنفه ، فما كان من هذا البدوي من فزاره إلا أن توجه إلى الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ، فيستدعي عمر ــ رضي الله عنه ــ الملك الغساني إل ى مجلسه ، ويجري بينهما حوار صيغ على الشكل التالي :

قال عمر : جاءني هذا الصباح مشهد يبعث في النفس المرارة ، بدوي من فزارة بدماء تتظلم ، بجراح تتكلم ، مقلة غارت ، وأنف قد تهشم ، وسألناه فألقى فادح الوزر عليك بيديك ، أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟

قال جبلة : لست ممن ينكر أو يكتم شيئاً ، أنا أدبت الفتى ، أدركت حقي بيدي .

قال عمر : أي حق يا بن أيهم ؟ عند غيري يقهر المستضعف العافي ويظلم ، عند غيري جبهة بالإثم بالباطل تلطم ، نزوات الجاهلية ، ورياح العنجهية ، قد دفناها ، وأقمنا فوقها صرحاً جديداً ، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً .

أرضِ الفتى ، لابدّ من إرضائه ما زال ظفرك عالقاً بدمائه ، أو يهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك .



قال جبلة : كيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟ هو سوقة ، وأنا صاحب تاج ، كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً ؟ كان وهماً ما مشى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز ، أنا مرتد إذا أكرهتني .

قال عمر : عالم نبنيه كل صدع فيه بشبا السيف يداوى ، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى " .

أما جبلة فلم يستوعب هذا المعنى الكبير في الإسلام ، وفرّ من المدينة هارباً مرتداً ، ولم يبال عمر ولا الصحابة معه بهذه النتيجة ، لأن ارتداد رجل عن الإسلام أهون بكثير من التهاون في تطبيق مبدأ عظيم من مبادئه ، وخسارة فرد لا تقاس بخسارة مبدأ .

الدين كله لله :

أيها الأخوة الكرام عود على بدء ، انطلقت معركة بدر الكبرى ، ونحن في ذكراها من قوله تعالى :

وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

(سورة البقرة)

فإذا كان الدين كله لله ، كرم الإنسان هذا التكريم ، وحفظت حقوقه هذا الحفظ ، وساد الإخاء بين بني البشر محبة ، وألزم الناس بالمساواة عدلاً .

***



ارحموا عزيزاً ذلّ :

أيها الأخوة الكرام ، عقب بعض الغزوات عرض على النبي صلى الله عليه وسلم الأسرى فوقفت من بينهم امرأة أسيرة اسمها سفّانة ، وقالت بأدب جم : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد فامنن علي منّ الله عليك ، وخلِّ عني ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإن أبي كان سيد قومه ، يفك العاني ، ويعفو عن الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ويحمل الكَلَّ ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً ، أنا بنت حاتم طيِّئ .

فقال عليه الصلاة والسلام : ((يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً ، ثم قال : خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق)) .وقال عليه الصلاة والسلام : ((ارحموا عزيز قوم ذلّ ، وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بين الجهَّال)) .عندها استأذنته أن تدعو له ، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : ((اسمعوا وعوا)) . قالت : أصاب الله ببرك مواقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا جعلك سبباً في ردها ، ورجعت إلى أهلها ، وقالت لأخيها عدي بن حاتم : يا عدي ائت هذا الرجل فإني قد رأيت هدياً ، وسمتاً ، ورأياً ، يغلب أهل الغلبة ، ورأيت فيه خصالاً تعجبني ، رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ، فإن يكن نبياً فللسابق فضله ، وإن يكن ملكاً فلا تزال في عزّ ملكه ، قيل : وأسلمت .



الباب السابع: من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم



01 - المعجزة في الإسلام
02 - الهجرة
03 - رحمة الرسول
04 - شخصية الرسول



01 - المعجزة في الإسلام

الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذي أنعم علينا بنعم لا تحصى ، ودفع عنا من النقم ما لا يعد ولا يستقصى ، وسبحان الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به إلى السماوات العلا ، وأراه من آياته الكبرى ، فما كذب الفؤاد ما رأى ، وما زاغ البصر وما طغى .

يا رب قد عجز الطبيب فداونا ، يا رب قد عم الفساد فنجنا ، يا رب قلّتْ حيلة فتولنا ، ارفع مقتك وغضبك عنا ، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ولا تعاملنا بما فعل السفهاء منا ، توفنا وأنت راض عنا غير فاتنين ولا مفتونين ، اغفر ذنوبنا ، واستر عيوبنا ، واقبل توبتنا ، وأصلح قلوبنا ، وارحم ضعفنا ، وتول أمرنا .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب، ذو الطول ، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، وينادي إذا كان ثلث الليل الأخير : هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من سائل فأعطيه ، هل من طالب حاجة فأقضيها له ، ويقول عبدي لا تعجز منك الدعاء ، وعلي الاستجابة ، منك الاستغفار ، وعلي المغفرة ، منك التوبة ، وعلي القبول .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، خير نبي اجتباه وللعالمين أرسله ، زكى الله عقله فقال :

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾

(سورة النجم)

وزكى لسانه فقال :



وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣

(سورة النجم)

وزكى شرعه فقال :

إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤

(سورة النجم)

وزكى جليسه فقال :

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥

(سورة النجم)

وزكى فؤاده فقال :

مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١

(سورة النجم)

وزكى بصره فقال :

مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧

(سورة النجم)

وزكاه كله فقال :



﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾

(سورة القلم)

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، رهبان الليل ، وفرسان النهار ، بلغوا من العلم والعمل شأواً بعيداً ، حتى إن أحدهم قال : << والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً >> ، وقال آخر : << والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد من عملي >> .

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير .

مقدّمة : نظام السببية :

1 ــ نظام السببية تلازمُ شيئين وجوداً وعدماً :

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة وا لإسلام ، إن الله جل جلاله خلق الكون بسماواته وأرضه ، وخلق العوالم ، وعلى رأسها الإنسان وفق أنظمة بالغة الدقة ، ومن أبرز هذه الأنظمة نظام السببية ، وهو تلازم شيئين وجوداً وانعداماً ، أحدهما قبل الآخر ، فنسمي الأول سبباً ، ونسمي الثاني نتيجة ، ومما يكمل هذا النظام الرائع أن العقل البشري يقوم على مبدأ السببية ، أي أن العقل لا يفهم حدثا من دون محدث .



ومن رحمة الله بنا أن هذا النظام في الكون ، وذاك المبدأ في العقل يقودنا برفق إلى معرفة الله مسبب الأسباب ، الأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، أفسماء ذ ات أبراج ، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟

2 ــ ثبات الأشياء حاصلٌ بتلازم الأسباب مع النتائج :

ومن رحمة الله بنا أيضا أن تلازم الأسباب مع النتائج يضفي على الكون طابع الثبات ، ويمهد الطريق لاكتشاف القوانين ، ويعطي الأشياء خصائصها الثابتة ليسهل التعامل معها ، ولو لم تكن الأسباب متلازمة مع النتائج ، ولو لم تكن النتائج بقدر الأسباب لأخذ الكون طابع الفوضى العبثية ، ولتاه الإنسان في سبل المعرفة ، ولم ينتفع بعقله .

3 ــ حقيقة اتخاذ الأسباب :

لكن ، أقول : لكن ، استدراكا ، لكن من اعتقد أن الأسباب وحدها تخلق النتائج ، ثم اعتمد على الأسباب وحدها فقد أشرك ، لذلك يتفضل الله على هذا الإنسان الذي وقع بالشرك الخفي فيؤدبه بتعطيل فاعلية الأسباب التي اعتمد عليها ، فيفاجئ بنتائج غير متوقعة ، ومن ترك الأخذ بالأسباب متوكلاً في زعمه على الله فقد عصى ، لأنه لم يعبأ بهذا النظام الذي ينتظم الكون ، ولأنه طمع بغير حق أن يخرق الله له هذه السنن .

أما المؤمن الصادق فيأخذ بالأسباب من دون أن يعتقد أنها تصنع النتائج ، وبالتالي من دون أن يعتمد عليها ، يأخذ بها ، وكأنها كل شيء ، ويعتمد على الله صانع كل شيء معتقداً أنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأن الأسباب وحدها لا تقود إلى النتائج إلا بمشيئة الله ، وهذا التوحيد الإيجابي الذي يغيب عن كثير من المؤمنين فضلاً عن غير المؤمنين ، قال تعالى :



وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

(سورة يوسف)

قال بعض المفسرين هذا هو الشرك الخفي .

4 ــ خرقُ نظام السببية :

ولكنْ يا أيها الإخوة المؤمنون ، لكنَّ هذا النظام نظام السببية يخرق أحيانا متى وكيف ؟ حينما يأتي إنسان ، ويقول : إنه رسول من عند الله ، جاء ليبلغ منهج الله ، فلابد أن يطالبه الناس ببرهان ، على أنه رسول الله ، وعلى أن الكتاب الذي جاء به هو من عند الله ، وهنا تأتي المعجزة لتكون برهاناً على صدق إرسال النبي ، ومصداقية منهجه .

والمعجزة أيها الإخوة في بعض تعاريفها خرق لنواميس الكون ولقوانينه ، ولا يستطيعها إلا خالق الكون ، لأنه هو الذي وضع القوانين والنواميس ، يعطيها لرسله لتكون برهاناً على صدقهم في إرسالهم ، وصدقهم في إبلاغهم عن ربهم ، والمعجزة ممكنة عقلاً غير مألوفة عادة ، فهناك فرق بين أن يحكم العقل على شيء باستحالته ، وبين أن يعلن عجزه عن فهم هذا الشيء ، فعدم العلم بشيء ليس علماً بعدم ذلك الشيء .

4 ــ عدمُ حرق النار لإبراهيم خرقٌ لقانون السببية :

أيها الإخوة المؤمنون حضورا ومستمعين ، تأكيداً لهذه الحقيقة ، فقد جاء قوم سيدنا إبراهيم عبدة الأوثان ، جاؤوا بسيدنا إبراهيم عليه السلام بعد أن حطم أصنامهم ، وأوقدوا له ناراً هائلةً ليحرقوه ، ليحرقوه أمام آلهتهم ليكون انتقامهم من سيدنا إبراهيم انتقاماً تباركه آلهتهم ، جاؤوا بالحطب ، فأوقدوا النار العظيمة ، كل شيء مُعدٌ لتمجيد آلهة غير الله ،



سبحانه وتعالى ، والسؤال هنا : لماذا سمح الله لهم أن يأتوا بإبراهيم ليحرقوه بالنار أمام آلهتهم ، وهو رسول الله ؟

كان من الممكن أن يختفي إبراهيم عليه السلام ولا يظهر ، وعندئذ ينجو إبراهيم من الحرق ، ولكنْ لو حدث هذا لقالوا : لو قبضنا على إبراهيم لأحرقناه ، وعندئذ ستظل قوة الآلهة المزيفة مسيطرة على عقولهم ، وأنها تنفع من يعبدها ، وتضر من يؤذيها ، لذلك لابد أن يقع سيدنا إبراهيم في أيديهم ليشهد القوم عجز آلهتهم المزعومة أمام قدرة الله ، وكان من الممكن أن يطفأ الله النار بسبب أرضي ، كأن ينزل الأمطار فتنطفئ النار ، ولو حدث هذا لقالوا : إن آلهتنا قادرة على أن تحرق إبراهيم ، ولكن السماء أمطرت ، ولو أن السماء لم تمطر لانتقمت آلهتنا منه بالحرق ، ما الذي حدث ؟ الذي حدث لحكمة بالغة أن إبراهيم عليه السلام لم يختف ، بل وقع في أيديهم ، وأن النار لم تنطفئ ، بل ازدادت اشتعالاً ، ثم ألقوا بإبراهيم في النار ، فإذا الله سبحانه وتعالى يعطل فاعلية الأسباب ، ويبطل إحراق النار ، وتكون النار بردا وسلاماً على إبراهيم ، قال تعالى :

قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

(سورة الأنبياء)

ولنسأل إخوتنا المستمعين والحاضرين ، ماذا سيكون لو أن الله تعالى قال :

قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

(سورة الأنبياء)



وماذا سيكون لو أن الله تعالى قال : يا نار كوني بردا وسلاماً ، ولم يقل على إبراهيم ، ابحثوا أيها الإخوة عن الجواب ؟ أو اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

الإسراء والمعراج :

1 ـ القرآن يصرّح بالإسراء والمعراج :

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، إلى موضوع الخطبة ، إنه الإسراء والمعراج ، قال تعالى مشيراً إلى الإسلام بدلالة قطعية :

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ

(سورة الإسراء)

وقال تعالى مشيراً إلى المعراج بدلالة ظنية رحمة بنا :

وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ
ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ
فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ
قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا
رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾

(سورة النجم)



2 ـ حكمة الإسراء والمعراج :

أما حكمة الإسراء فقد أجملها الله تعالى في قوله :

لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَـٰتِنَآۚ

وأما حكمة المعراج ، لقد أجملها الله تعالى في قوله :

لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾

وقفة تأمّل مع الآية الأقلى من سورة الإسراء :

إنّ كلمة : ﴿ **سُبْحَانَ** ﴾ في الآية تفيد أن الإسراء والمعراج لا يخضعان لقوانين الأرض ، ولا لقوانين الزمان والمكان ، وهو من الموضوعات الإخبارية التي لا يستطيع العقل أن يخضعها لمبادئه ومقاييسه .

وحينما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لِنُرِيَهُ** ﴾ ، ولم يقل : لنريهم ، أراد أن تكون هذه المعجزة تكريماً لنبيه علية الصلاة والسلام بأن يريه ما شاء من آيات قدرته ، وعجائب صنعته ، وعظيم ملكه ، ومصائر خلقه ، ليطمئن قلبه ، وتستنير بصيرته ، ويزداد يقينه ، وليكون عالم الغيب بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم مشهوداً ، وليكون اليقين به يقيناً حسياً لا إخباريا ، فهناك فرق بين علم اليقين ، وهو اليقين الإخباري ، وحق اليقين ، وهو اليقين الشهودي ، وعين اليقين ، وهو يقين المعاينة .



وأما كلمة : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ فتفيد أن الإنسان مهما خرقت له العادات ، ومهما نال من الله أعظم المكرمات لا يمكن إلا أن يكون عبداً لخالق الأرض والسماوات .

وأما كلمة : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ فلها قصة تأتي بعد حين .

3 ـ الإسراء والمعراج مسحٌ لجراح النبي وتطمين لمستقبل دعوته :

أيها الإخوة المؤمنون في كل مكان ، لقد كان الإسراء والمعراج بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم مسحاً لجراح الماضي ، وتثبيتاً لقلبه ، وتطميناً له على مستقبل الدعوة ، وتعويضاً عن جفوة الأرض بحفاوة السماء ، وعن قسوة عالم الناس بتكريم الملأ الأعلى .

لقد كان الإسراء والمعراج تكريماً فريداً من نوعه للنبي صلى الله عليه وسلم ، لقد عرف الله نبيه بعد محنة الطائف أنه سيد ولد آدم ، وأنه سيد الأنبياء والمرسلين ، ولقد أراه ملكوت الأرض والسماوات ، وما تؤول إليه الخلائق بعد الممات ، لقد كان الإسراء والمعراج عقب عام الحزن، ففي هذا العام توفيت السيدة خديجة صديقة النساء التي حنت عليه ساعة العسرة ، وواسته في أيام الشدة بنفسها ومالها ، في هذا العام أيضاً توفي عمه أبو طا لب الذي أظهر من النبل في كفالته ، ومن البطولة في الدفاع عنه الشيء الكثير .

وقد نالت قريش من النبي صلى الله عليه وسلم ما لم تنل منه في أي وقت مضى ، وفي هذا العام بالذات خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس هداية أهلها ، ونصرتهم ، فردوا دعوته رداً منكراً ، وأغلظوا له بالقول ، وأغروا به سفهاءهم ، لقد تحمل النبي صلى الله عليه وسلم في هذا العام من الشدائد ما لا يحتمله بشر على الإطلاق ، إلا أن يكون نبياً .



4 ــ امتحان النبي قبل الإسراء والمعراج تعليم للمسلمين خُلقَ الصبر :

أيها الإخوة المؤمنون في كل مكان ، إذا كان الإسراء والمعراج تكريماً عظيماً للنبي صلى الله عليه وسلم بعد نجاحٍ باهر في امتحان صعب ، فما هذا الامتحان الصعب الذي اجتازه النبي حتى استحق هذا التكريم الفريد ؟ إنه امتحان الطائف .

أيها الإخوة المؤمنون ، إن ما لاقاه النبي صلى الله عليه وسلم من مختلف ألوان المحنة، ولاسيما هذا الذي رآه في ذهابه إلى الطائف ، إنما كان من جملة أعماله التبليغية للناس ، فكما أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء يبلغنا العقيدة الصحيحة عن الكون ، وخالقه ، وحقيقته ، وعن الحياة ، وعن الإنسان ، ورسالته ، وعن أحكام العبادات والمعاملات ، وعن مكارم الأخلاق ، كذلك جاء ليبلغ المسلمين عن طريق السلوك العملي ، أن ما كلفهم الله به من واجب الصبر والمصابرة يجب أن يكونوا في مستواه ، فقال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

(سورة آل عمران)

فكما أن الني صلى الله عليه وسلم علّم الناس بأقواله كذلك علمهم بأفعاله ، وكما أنه قال للناس :

((وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي)) .

[البخاري عن مالك بن الحوريث]

و :

((خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ)) . **[مسلم]**



كذلك قال لهم بلسان حاله : اصبروا كما رأيتموني أصبر ، وربما توهم متوهم أن النبي صلى الله عليه وسلم غُلب على أمره في الطائف ، وأن الضجر نال منه ، لذلك توجه لله بالدعاء والشكوى .

والحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُغلبْ على أمره ، ولم يضجر ، وإنما استقبل هذه المحن راضياً ، وتجرع تلك الشدائد صابراً محتسباً ، لأنه كان بوسعه أن ينتقم من الذين آذوه ومن الزعماء الذين أغروا به أولئك السفهاء ، والدليل ما رواه الإمام البخاري و مسلم من أن جبريل عليه السلام جاء النبي صلى الله عليه وسلم في قرن الثعالب (مكان) ، فعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ قَالَ : لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَقَالَ : ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)) .

[أخرجه البخاري]

انظروا أيها الإخوة الكرام ، لم يتخل النبي عن قومه قال : ((**قومي**)) ، ودعا لهم فقال : ((**اللهم اهد قومي**)) ، واعتذر عنهم ، فقال : ((**فإنهم لا يعلمون**)) .

[البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عبيد بن عمير مرسلاً]

ورجا أن تكون ذريتهم عابدة لله موحدة ، هذه مادة من مواد الامتحان الصعب الذي وُفِق بها النبي عليه الصلاة والسلام ، وصدق الله العظيم حينما وصف نبيه الكريم بأنه على خلق عظيم .



5 ــ لا تناقض بين الصبر والشكوى إلى الله :

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، ليس بين الصبر على الشدائد والتضرع إلى الله تعالى بالشكوى أو الدعاء أيٌّ تعارض أو تناقض ، فالشكوى إلي الله تعبد ، قال تعالى :

قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾

(سورة يوسف)

والضراعة له والتذلل على بابه عز وجل تلبِس العبد جلباب العبودية ، ولقد علّم نا النبي صلى الله عليه وسلم في حياته كلا الأمرين ، كان بصبره الشديد على المصائب والمحن يعلمنا أن على المسلمين عامة والدعاة خاصة أن يصبروا ، وأن يصابروا ، وكان بطول دعائه وضراعته والتجائه إلى الله يعلمنا أن هذا من لوازم العبودية لله عز وجل ، وهل من دعاء أكثر دلالة على عبودية النبي صلى الله عليه سلم من هذا الدعاء الذي دعاه في الطائف :

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك)) .

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]



6 ـ النبي يتألم كما يتألّم البشر :

أيها الإخوة الأكارم ، النفس الإنسانية مجبولة في أصل فطرتها على الإحساس والشعور ، الشعور بلذة النعيم ، والشعور بألم العذاب ، وهي مجبولة على الركون إلى الأول والفزع من الثاني ، وحينما يوطن الإنسان نفسه على تحمل كل أنواع الضر والعذاب ، وهو يؤدي رسالة ربه مبتغياً بهذا وجهه ورضوانه ، لا يعني هذا أنه لا يتألم للضر ، ولا يستريح للنعيم ، فالنفس مهما تسامت لا تخرج عن دائرة بشريتها ، ولكن حينما يفضل الإنسان الضر مهما تكن آلامه على النعيم مهما تكن لذائذه إرضاء لوجه ربه ، وأداء للرسالة التي أنيطت به عندئذ يستحق جنة ربه إلى أبد الآبدين ، حيث يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر .

7 ـ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

أيها الإخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، حين يتأمل الإنسان في سيرة النبي مع قومه يجد أنه لاقى من قومه من الأذى ما لا يحتمله بشر على الإطلاق ، بيد أن الإنسان يجد أيضاً مع كل نوع من أنواع الأذى ، ومع كل مرحلة من مراحله رداً إلهياً على هذا الإيذاء مواساةً ، وتطميناً ، وإكراماً ، وتأييداً ، حتى لا يتجمع في النفس من عوامل التألم والضجر ما قد يدخل إليها اليأس ، وما الإسراء والمعراج في حقيقته إلا ردٌّ إلهي تكريمي على المحنة القاسية التي كشفت حقيقة الحرص النبوي على هداية قومه ، وكشفت صبره الجميل على إيذائهم ، وموقفه النبيل والرحيم منهم حينما عرض عليه ملك الجبال أن يطبق عليهم الجبلين ، وهو الرد الإلهي على دعائه في الطائف ، ولعل معنى قوله تعالى في آخر آية الإسراء :

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾

(سورة الإسراء)



أي سمع الله دعاءك يا محمد في الطائف ، وعلم منك حرصك على هداية قومك الذين بالغوا في الإساءة إليك .

أيها الإخوة الكرام ، هذه الحقيقة يمكن أن تنسحب على المؤمن بشكل أو بآخر ، فقوله تعالى :

فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞

(سورة الشرح)

هذا قانون ، فشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر بعد ضيق الأمر هي سنة الله في خلقه .

ربنا سبحانه وتعالى نكر كلمة يسراً تنكير تعظيم ، المراد به اليسر العظيم ، أو يسر الدارين ، وكلمة مع تفيد الإشعار بمجيء اليسر كأنه مقارن للعسر ، والتكرير يفيد التأكيد ، أو يفيد أن يسر الآخرة يأتي بعد يسر الدنيا ، وفي اللغة العربية أن المعرف إذا كُرِّر يكون الثاني عين الأول ، وأن المنكر إذا كُرر يكون الثاني مغايراً للأول ، فصار في الآية يسران وعسر واحد ، لذلك بناء على هذه القاعدة أثر عن النبي أنه قال : ((**لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**)) .

[أخرجه مالك في الموطأ عن عمر بن الخطاب]

كن عن همومك معرضـــا وكِلِ الأمور إلى القـــضا
و أبشر بخير عاجـــــــل تنسَ به ما قد مضـــــى

فلرب أمر مسخـــــــــط لك في عواقبـــه رضـــى

ولربما ضاق المضيـــق ولربما اتسع الفضـــــــا

الله يفعل ما يشـــــــاء فلا تكن معتــرضــــــاً

الله عودك الجميـــــــل فقس على ما قد مضـــى



درس من أحداث الطائف قبل الإسراء والمعراج :

أيها الإخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، درسٌ آخر نتعلمه من رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، وهو في الطائف ، فعندما سأله زيد بن حارثة متعجباً ، يا رسول الله كيف تعود إلى مكة وقد أخرجوك ، فأجابه النبي ، يا زيد ، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ، ومظهر نبيه .

كلّ هذا الذي رآه النبي في الطائف من أهوال التكذيب ، ومن أهوال السخرية والإيذاء ، كل هذا الذي كان قد رآه في مكة من كفر وجحود ، وتنكيل وإخراج ، كل هذا على كثرته ، وعلى شدته ، وعلى قسوته لم يكن له أي تأثير على ثقته بالله تعالى ، وعلى قوة عزيمته الإيجابية في نفسه ، فما كان الله ليتخلى عن دينه ، وعن نبيه ، وعن المؤمنين مهما بدت هجمة أعداء الدين قوية وشاملة ، فالباطل عقيدة أو قوة إلى انهيار محقق ، قال تعالى :

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

(سورة الإسراء)

ومن ظن أن الله سبحانه وتعالى لا ينصر رسله ، ولا يتم أمره ، ولا يؤيد جنده ، ولا يعليهم ، ولا يظهرهم على أعدائهم ، وأنه لا ينصر دينه وكتابه ، وأنه يديل الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً ، من ظن ذلك فقد ظن بالله ظن السوء ، ونسبه إلى ما لا يليق بكماله وجلاله ، وأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، فإن عزته وحكمته تأبى ذلك ، ويأبى أن يذل أولياءه ، وأن يكون النصر المستقر والظفر الدائم لأعدائه ، فمن ظن به ذلك فما عرفه ، ولا عرف أسماءه ، ولا عرف صفاته .سبحانك إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت .

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً والحمد لله رب العالمين .



1 ـ إذا كان أصل الاعتقاد ضعيفا فلا عبرة بالحديث عن المعجزة :

أيها الإخوة الكرام ، كلمة قصيرة عن حقيقة المعجزة ، بادئ ذي بدئ لا معنى للحديث عن المعجزات التي هي خرق للنواميس والعادات ، وعن جزئياتها ، وعن وقوعها أو توهمها ، إذا كان أصل الدين الذي يتلخص في الإيمان بالله ، موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، والإيمان أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وفعال لما يريد ، إذا كان هذا الأصل محل إنكار أو شك فلا معنى للحديث عن المعجزات أصلاً ، فالناس يخاطبون عادة بأصول الدين ، والمؤمنون يخاطبون بفروع الدين ، والحديث عن المعجزات من فروع الدين ، فإذا كان الأصل مهتزاً فلا جدوى من الحديث عن المعجزات .

2 ـ الكون كلّه معجزة :

ثم إن الكون بمجراته وكازاراته ، بكواكبه ومذنباته بالمسافات البينية والسرعات الضوئية بحجوم النجوم وسرعاتها ، بدورانها ، وتجاذبها ، والأرض بجبالها ، ووديانها ، وسهولها ، وقفارها ، ببحارها ، وبحيراتها ، بينابيعها ، وأنهارها ، بحيواناتها ، ونباتاتها ، بأسماكها ، وأطيارها ، بمعادنها ، وثرواتها ، والإنسان بعقله ، وعاطفته ، وأعضائه ، وأجهزته ، بفطرته ، وطباعه ، بزواجه ، وذريته هذه كلها معجزات ، وأية معجزات ، الكون بسماواته ، وأرضه هو في وضعه الراهن من دون خرق لنواميسه ، ومن دون خروج عن نظامه ، هو في حد ذاته معجزة وأية معجزة ، والدليل قوله تعالى :

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ
قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾

(سورة آل عمران)



3 ــ جسم الإنسان كلّه معجزة :

أيها الأخ الكريم ، جسمك الذي هو أقرب شيء إليك إنه معجزة :

ــ **ففي رأس الإنسان** ثلاثمائة ألف شعره لكل شعرة ، بصلة ووريد وشريان وعضلة وعصب وغدة دهنية وغدة صبغية ، أليست هذه معجزة ، في شبكية العين عشر طبقات ، في أخراها مائة وأربعون مليون مستقبل للضوء ما بين مخروط وعصية ، ويخرج من العين إلى الدماغ عصب بصري يحوي خمس مائة ألف ليف عصبي ، ولو درجنا اللون الأخصر مثلاً ثمان مائة ألف درجة لاستطاعت العين السليمة أن تميز بين درجتين أليست هذه معجزة ؟

ــ **وفي الأذن** ما يشبه شبكية العين ، وفيها ثلاثون ألف خلية سمعية لنقل أدق الأصوات ، وفي الدماغ جهاز يقيس التفاضل الزمني لوصول الصوت إلى كل من الأذنين ، وهذا التفاضل يقل عن جزء من ألف وستمائة جزء من الثانية وهو يكشف للإنسان جهة الصوت ، أليست هذه معجزة ؟

ــ **وعلى سطح اللسان** تسعة آلاف نتوء ذوقي لمعرفة الطعم الحلو والحامض ، والمر والمالح ، وإن كل حرف ينطقه اللسان يسهم في تكوينه سبع عشرة عضلة ، فكم حركة تحرّكتها عضلات اللسان في خطبة تستغرق ساعة من الزمن ، أليست هذه معجزة .

ــ **وفي الإنسان مضخة** تعمل دون كلل أو ملل ، تضخ ثمانية أمتار مكعبة من الدم في اليوم الواحد ، وتضخ في العمر المتوسط ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم ، إنه القلب أليس القلب معجزة ؟

ــ **وفي دماغ الإنسان** أربعة عشر مليار خلية قشرية ، ومائة مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد ، بل إن دماغ الإنسان أعقد ما في الإنسان ، وهو عاجز عن فهم ذاته أليس الدماغ معجزة ؟



ـــ **وفي جدار المعدة** مليار خلية تفرز من حمض كلور الماء ما يزيد على عدة أمتار في اليوم الواحد ، وقد جهد العلماء في حل هذا اللغز ، لَمَ لا تهضم المعدة نفسها ؟ أليست المعدة معجزة ؟

ـــ **وفي الأمعاء** ثلاثة آلاف وستمائة زغابة معوية للامتصاص في كل سم مربع وهذه الزغابات تتجدد كلياً في كل ثمان وأربعين ساعة ، أليست الأمعاء الدقيقة معجزة وتحت سطح الجلد يوجد حوالي ستة عشرة مليون مكيف لحرارة البدن هي الغدد العرقية ، أليست هذه الغدد معجزة ، وفي الكبد ثلاث مائة مليار خلية يمكن أن تجدد كلياً خلال أربعة أشهر ووظائف الكبد كثيرة وخطيرة ومدهشة في الإنسان ، حيث لا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات ، أليس الكبد معجزة ؟

ـــ **وفي الكُليتين** مليونا وحدة تصفية طولها مجتمعة مائة كيلومتر يمر فيها الدم في اليوم مرات كثيرة أليست الكلية معجزة ؟

أيها الإخوة الكرام ، غير أن الإنسان لانهماكه بمشاغله ، وغفلته عن خالقه ، ولطول إلفته لما حوله ينسى وجه الإعجاز فيما حوله ، وعظمة الخالق فيما خلق ، فيحسب جهلا منه ، وغرورا أن المعجزة هي تلكم التي تفاجئ ما ألفه واعتاده ، ثم يمضي هذا الإنسان الجاهل يتخذ مما ألفه ، واعتاده مقياساً لإيمانه بالأشياء ، أو كفره بها ، وهذا ج هل عجيب في الإنسان، مهما ارتقى في مدارج المدنية والعلم ، تأمل يسير من الإنسان يوضح له بجلاء أن الخالق جل وعلا الذي خلق معجزة هذا الكون كله ليس عسيراً عليه أن يزيد فيه معجزة أخرى ، أو أن يبدل ، أو أن يغير في بعض أنظمته التي أنشأ العالم عليها .

يقول بعض العلماء الغربيين : القدرة التي خلقت العالم لا تعجز عن حذف شيء منه ، أو إضافة شيء إليه ، ولو لم يكن هذا العالم موجودا ، وقيل لواحد ممن ينكر المعجزات والخوارق : سيوجد عالم كذا وكذا ، فإنه سيجيب فوراً : هذا غير معقول ، ولا متصور ، ويأتي إنكاره هذا أشد بكثير من إنكار بعض المعجزات .



02 - الهجرة

الحمد لله رب العالمين ، يا رب يا كاشف الأسرار ويا مسبل الأستار ويا واهب الأعمار ويا منشأ الأخبار ويا مولج الليل في النهار ، يا معافي الأخيار ، ويا مستدرج الأشرار ، يا منقذ الأبرار من العار ، والنار جد علينا بصفحك عن زلاتنا ، كن لنا ، وإن لم نكن لأنفسنا ، متِّعنا بالنظر إلى نور وجهك ، لا تضلنا بعد هديك ، لا تبعدنا بعد قربك ، لا تكربنا بعد رحمتك ، قد عادينا أعداءك فيك فلا تشمتهم بنا لتقصيرنا في حقك ، ووالينا أصفياءك لك فلا توحشْنا منهم لسهونا عن واجبك ، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له .

سل الواحة الخضراء والماء جاريـــــا ... وهذي الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى ... سل الليل و الإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسمـــــا ... وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا

***

الشمس و البدر من أنوار حكمـــتـــــه ... والبر و البحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والـــــزرع قدســـــــــه ... والموج كبره والحوت ناجــــاه
و النمل تحت الصخور الصم مجــــده ... و النحل يهتف حمدا في خلايــــاه
رب السماء و رب الأرض قد خضعت ... انـــــس و جن وأملاك لعليـــــاه
الناس يعصونه جهــرا فيسترهــــــم ... العبد ينسى وربي ليس ينســــاه

***



وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، يا سيدي يا رسول الله :

أدعوك عن قومي الضعاف لأزمة   في مثلهـــا يلقى عليك رجاء

رقدوا و غرهم نعيم باطــــــــــل   و نعيم قوم في القلوب بـــلاء
المصلحون أصابع جمعت يـــــدا   هي أنت بل أنت اليد البيضاء
أدَرى رسول الله بأن نفوسهـــــم   ركبت هواها و القيود هـــواء
يتفككـــــون فما تضم نفسهم ثقـــة   ولا جمع القلوب صفــــــــاء

***

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين أمناء دعوته وقادة ألويته ، وارض عنا ، وعنهم يا رب العالمين .

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير .

مقدمة :

1 ــ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، تتميز حياة النبي صلى الله عليه وسلم عن حياة العظماء من القادة والمصلحين بأن حياته صلى الله عليه وسلم كل ما فيها من أقوال ، أو أفعال ، أو إقرار ، أو مواقف تعد قدوةً وتشريعاً ، فقد عصمه الله جل جلاله عن الخطأ في أقواله ، وفي أفعاله ، وفي مواقفه ، فهو لا ينطقُ عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، لذلك أمرنا الله جل جلاله بالأخذ عنه ، قال تعالى :

وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

(سورة الحشر)



وجعل الله جل جلاله إتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وتطبيق سنته دليلا عمليا على محبة الله ، قال تعالى :

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

(سورة آل عمران)

2 ـ مهمة النبي التبليغ والتبيين ومهمة القدوة والأسوة :

لهذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم ولسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين مهمتان كبيرتان ، مهمة التبليغ والتبيين ، قال تعالى :

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

(سورة المائدة)

والمهمة الثانية مهمة القدوة والأسوة ، قال تعالى :

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

(سورة الأحزاب)



3 ـ ظروف النبي قبل الهجرة مقدَّرة بعناية كبيرة :

أيها الإخوة المؤمنون في كل مكان ، إن الظروف التي أحاطت بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والأحداث التي واجهها هي ظروفٌ وأحداثٌ خُلقت ، وقُدرت بعنايةٍ تامة ، وبحكمةٍ بالغة ، ليقف النبي صلى الله عليه وسلم منها الموقف الكامل الذي ينبغي أن يقفه الإنسان ليؤكد إنسانيته ، وليحقق غاية وجوده ، إن هذه الظروف وتلك الأحداث من شأنها أنها تكرر بسبب أن طبيعة النفس واحدة ، قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ

(سورة الأعراف)

وبسبب أن معركة الحق والباطل ، والخير والشر ، والإيمان والكفر معركة قديمة ومستمرة ، وأن الإنسان هو الإنسان في أي زمان ومكان ، أنه يكرر نفسه في ارتفاعه وانحطاطه ، في قوته وفي ضعفه ، في إيمانه وفي كفره .

لذلك أيها الإخوة / كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الظروف التي أحاطت به ، ومن الأحداث التي واجهته هو الموقف الذي يريدنا الله أن نقفه إذا أحاطت بنا مثل تلك الظروف ، أو واجهتنا مثل تلك الأحداث .

4 ـ الإنسان فطر على حب الأرض التي وُلِد فيها :

أيها الإخوة المؤمنون ، أيتها الأخوة المؤمنات ، والإنسان فطر على حب الأرض التي وجد فيها والتعلق بالمعالم التي لابست نشأته ، حينما ينتزع الإنسان من بيئته التي ترعرع فيها، ويخرج من أرضه التي أحبها تتمزق نفسه ، ويعظم همُّه ، وربما آثر الموت على هذا الخروج الذي هو اقتلاع من جذوره ،



لذلك أشارت الآية الكريمة إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾

(سورة النساء)

5 ـ مهمة الإنسان عبادة الله :

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، الإنسان مكلفٌ أن يعبد الله تعالى من خلال التعرف إليه ، والتعرف إلى منهجه ، ومكلف أن يعبد الله عز وجل من خلال أدائه فروض العبودية ، من صيام، وصلاة ، وحج ، ومن خلال التزامه بالأمر ، والنهي ، ومن خلال الأعمال الصالحة التي هي ثمن سعادته في الآخرة الأبدية ، قال تعالى :

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

(سورة البقرة)



6 ـ الأرض التي تمنع المسلم من عبادة الله يجب الهجرة منها :

هاتان حقيقتان أساسيتان ينشأ عنهما معا أن الإنسان إذا وُجد في أرض حالت قوى الشر فيها بينه وبين أن يستجيب لنداء فطرته في عبادة ربه ، وحالت بينه وبين أن يصغيَ لصوت العقل في تطبيق منهج خالقه ، وكان هذا الإنسان من الضعف حيث لا يستطيع أن يقنع هذه القُوى بالكف عنه ، ولا أن يقف في وجهها فيلزمها ماذا يفعل ؟ أيخسر سعادته الأبدية من أجل النوازع الأرضية ؟ قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾

(سورة النساء)

هذا هو الجواب ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وهذا هو المنطلق الفلسفي لهجرة النبي عليه الصلاة والسلام ، ونحن في مناسبة الهجرة .

الهجرة دروس وعبر :

1 ـ إيثار الجانب الأسمى على النوازع النفسية :

إخوةَ الإيمان في كل مكان ، تُعَلِمنا الهجرة أولاً إن الإنسان إذا تنازعت فيه النوازع الأرضية ، والنـــداءات السماوية عليه أن يُؤثِر الجانبَ الأسمى والأبقى ، فلا أحدٌ يستطيع أن ينجيه من عذاب الله ، ولا عذر له فيما يرديه .



2 ــ هجران للباطل وانتماء للحق :

إن الهجرة في حقيقتها موقفٌ نفسي قبل أن تكون رحلة جسدية ، إنها هجران للباطل وانتماء للحق ، إنها ابتعاد عن المنكرات ، وفعل للخيرات ، إنها ترك للمعاصي ، وانهماك في الطاعات .

3 ــ انتقالٌ من دار الكفر إلى دار الإسلام :

ثم إنها فضلاً عن كل ذلك انتقالٌ من دار الكفر إلى دار الإسلام ، قال عليه السلام فيما رواه البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ)) .

[البخاري ومسلم]

4 ــ باب الهجرة مفتوح :

يا أيها الإخوة المؤمنون ، يا أيتها الأخوات المؤمنات ، إذا كان باب الهجرة من مكة إلى المدينة قد أُغلق بعد الفتح ، لقول النبي علية الصلاة والسلام :

((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ...)) .

[البخاري عن ابن عباس ، ومسلم عن عائشة]

فان باب الهجرة مفتوحٌ بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة زمن الهجرة ، بل إن أبواب الهجرة من مجتمع الكفر إلى مجتمع الإيمان مفتوحةٌ على مصاريعها إلى يوم القيامة ، بل إن عبادة الله في زمن كثرت فيه الفتن ، واستعرت فيه الشهوات ، وعمَّ فيه الفساد ، إن عبادة الله المخلصة الصادقة في هذه الأجواء الموبوءة تُعد هجرة خالصة إلى الله ورسوله.



عن مَعْقِلِ بن يسار رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

((**العِبَادَةُ في الهَرْجِ** ــ أي في زمن الفتن ــ **كَهِجْرَةٍ إليَّ**)) .

[رواه مسلم والترمذي]

5 ــ استحقاق التأييد الإلهي لا يعني التفريط في استجماع أسبابه :

أيها الإخوة المؤمنون في كل مكان ، وتعلمنا الهجرة ثانياً من خلال الخطة المحكمة التي رسمها النبي صلى الله عليه وسلم ، أن استحقاق التأييد الإلهي لا يعني التفريط قيد أنملة في استجماع أسبابه ، وتوفير وسائله ، لقد وضع النبي صلى الله عليه وسلم لهجرته خطةً محكمةً ، حيث كتم تحركه تضليلاً للمطاردين ، واستأجر دليلاً ذا كفاءة عالية ، واختار غار ثور الذي يقع جنوب مكة لإبعاد مظنة الوصول إليه ، وحدد لكل شخص مهمة أناطها به ، فمن واحد لتقصي الأخبار ، وآخر لمحو الآثار وثالث لإيصال الزاد ، ثم إنه بعد كل ذلك كلف سيدنا عليا كرم الله وجهه أن يرتدي برده ، ويتسجى على سريره تمويها على المحاصرين الذين أزمعوا قتله .

إخوتي المؤمنين ، لقد أعد النبي لكل أمرٍ عدتَه ، ولم يدعْ مكاناً للحظوظ العمياء ، لقد اتخذ الأسباب ، وكأنها كل شيء في النجاح ، ثم توكل على الله ، لأنه لا قيام لشيء إلا بالله ، إن هذه التدابير التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم على كثرتها ، ودقتها ليست صادرةً عن خوف شخصي ، بل كانت طاعة لله عن طريق الأخذ بالقوانين التي قننها الله ، وبالسنن التي سنها الله ، وتشريعاً لأمته من بعده ، ثم إنه في الوقت نفسه لم يعتمد عليها ، بدليل أنه كان في غاية الطمأنينة حينما وصل المطاردون إليه ، فعَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ :

((**لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**)) .

[متفق عليه]



((مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

يا أيها الإخوة المؤمنون في كل مكان ، حينما فهم المسلمون الأوائل التوكل على الله هذا الفهم الصحيح ، وبهذه الطريقة رفرفت راياتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، واحتلوا مركزاً قيادياً بين الأمم والشعوب ، واليوم إذا أراد المسلمون أن ينتصروا على أعدائهم وما أكثرهم ، وأن يستعيدوا دورهم القيادي بين الأمم لينشروا رسالة الإسلام الخالدة ، رسالة الحق والخير والسلام ، إذا أراد المسلمون ذلك فعليهم أن يستوعبوا جيداً هذا الدرس البليغ الذي علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال هجرته ، ونحن نحتفل في هذه الأيام بذكرى هجرته صلى الله عليه وسلم .

وملخص القول أن التوكل هو الأخذ بالأسباب من دون الاعتماد عليها ، وافتقارٌ إلي تأييد الله ، وحفظه ، وتوفيقه من دون تقصير في استجماع الوسائل

6 ـ من يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغماً كثيراً وسعةً :

إخوة الإيمان في كل مكان ، وتعلمنا الهجرة من خلال النتائج الباهرة التي حققها المهاجرون ، أنه من يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغماً كثيراً وسعةً تُيَسر أموره ، يحفظه الله عز وجل ، يوفر الله له حاجاته ، وأنه ما ترك عبد شيئاً لله عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه ، وأنه من شغلته طاعةُ الله عن تحقيق مصالحه الدنيوية أعطاه الله خير الدنيا والآخرة ، وقد ورد في الحديث القدسي :

((عبدي ، أنت تريد ، وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وان لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد)) .

[تخريج إحياء علوم الدين]

و : **((من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً)) .**

[ورد في الأثر]



قصة هجرة عقبة بن عامر الجهني :

يقول عقبة بن عامر الجهني أحد أصحاب رسول الله رضي الله عنه : " قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأنا في الفلوات أرعى غنيمات لي ، فما إن تناهى إلي خبر قدومه حتى تركتها ، ومضيت إليه لا ألوي على شيء ، فلما لقيته قلت له : يا رسول الله أتبايعني ، فقال عليه الصلاة والسلام : فمن أنت ، قلت : أنا عقبة بن عامر الجهني ، قال : يا عقبة ، أيهما أحب إليك أن تبايعني بيعةً أعرابية أم بيعة هجرةٍ قلت : بل بيعة هجرة ، وكنَّا اثني عشر رجلاً ممن أسلموا نقيم بعيداً عن المدينة لنرعى أغنامنا في بواديها ، فقال بعضنا لبعض : لا خير فينا ، والله إذا نحن لم نقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بعد يوم ليفقهنا في ديننا ، ويُسمعنا مما ينزل عليه من وحي السماء ، فليمض كل يوم واحد منا إلى يثرب ، وليترك غنمه لنا فنرعاها له ، فقلت : اذهبوا أنتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً بعد آخر ، وليترك لي الذاهب غنمه ، لأني كنت شديد الإشفاق على غنيماتي من أن أتركها لأحد ، ثم طفق أصحابي يغدو الواحد منهم بعد الآخر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويترك لي غنمه أرعاها له ، فإذا جاء أخذت منه ما سمع ، وتلقيت عنه ما فقه ، لكنَّني ما لبثت أن رجَعت إلى نفسي ، وقلت لها : ويحك يا نفس ، أمنْ أجل غنيمات لا تُسمن ولا تغني تفوِّتي عليك صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخذ عنه مشافهةً من غير واسطة ، ثم تخليت عن غنيماتي ، ومضيت لأصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[كنز العمال]

أيها الإخوة المؤمنون حضوراً ومستمعين ، لم يكن عقبة بن عامر الجهني ، يخطر له على بال حين اتخذ هذا القرار ، قرار صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك غنيماته، لم يكن يخطر له على بال حينما اتخذ هذا القرار الحاسم والحازم أنه سيغدو بعد عِقد من الزمان عالماً من أكابر علماء الصحابة ، وقارئاً من شيوخ قرَّائها ، وقائداً من قوَّاد الفتح المرموقين ووالياً من ولاة الإسلام المعدودين ، ولم يكن يخطر له على بالٍ أيضاً ، وهو



يتخلى عن غنيماته ، ويمضي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سيكون طليعةَ الجيش الذي يفتح أمَّ الدنيا وقتها دمشق ، ويتخذ لنفسه داراً بين رياضها النضرة عند باب توما ، ولم يكن يخطر له على بال أنه سيكون أحد القادة الذين سيفتحون زمردة البلاد مصر ، وأنه سيغدو والياً عليها ، ويتخذ لنفسه فيها داراً في سفح جبلها المقطن ، وبعدها اشترك هذا الصحابي الجليل في قيادة حملة بحرية لفتح جزيرة رودس في البحر الأبيض المتوسط .

ماذا نقول ؟ لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما قال :

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه)) .

[ابن عساكر عن ابن عمر]

وقد ورد في الحديث القدسي :

((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ)) .

[الترمذي عن أبي سعيد]

الهجرة في سبيل الشيطان :

1 ـ معالم الهجرة في سبيل الشيطان :

يا أيها الإخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، هذا عن الهجرة في سبيل الرحمن ، فماذا عن الهجرة في سبيل الشيطان ، موضوع آخر .

حينما يرفض المرء الحق وأهله ، وينضم إلى الباطل وأهله ، حينما يؤثر المرء الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، حينما يفضل الرجل مصالحه على مبادئه وحاجاته على قيمه ، حينما تكون الهجرة ابتغاء دنيا يصيبها الرجل ، أو ابتغاء مال وفير يحصله على حساب مصيره الأبدي .



حينما تكون الهجرة بذلاً للخبرات والطاقات لغير بلاد المسلمين ، حينما تكون الهجرة إضعافاً للمسلمين ، وتقويةً لأعدائهم ، حينما تكون الهجرة هروباً من تحمل المسؤولية ، وفراراً من البذل والتضحية .

حينما تكون الهجرة تمكيناً للعدو من احتلال الأرض ، واستثمار خيراتها .

حينما تكون الهجرة من بلد تقام فيه شعائر الدين إلى بلد فرغت منه كل القيم ، وحينما تكون الهجرة تضييعاً للعرض والدين ، وكسباً للدرهم والدينار فهي هجرة في سبيل الشيطان ، وشتان بين الهجرتين .

1 ــ جبلة بن الأيهم مثال حيٌّ عن الهجرة في سبيل الشيطان :

أيها الإخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، لقد قدم جبلة بن الأيهم أحد ملوك الغساسنة على سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، معلناً إسلامه ، وقد رحب به عمر أشد الترحيب ، وأنزله منزلته ، وفيما جبلة بن الأيهم ، ه ذا الملك الغساني يطوف حول الكعبة داس بدوي من فزارة خطأً على طرف ردائه ، فأزاحه عن كتفه ، فالتفت جبلة إليه ، وضربه ضربةً هشّمت أنفه ، فما كان من هذا البدوي من فزارة إلا أن يتجه إلى عمر بن الخطاب ليشكوا جبلة ، فاستدعى عمر جبلة ، وقال له ، يا ابن أيهم ، جاءني هذا الصباح مشهد يبعث في النفس المرارة ، بدوي من فزارة بدماءٍ تتظلم ، بجراح تتكلم ، مقلةٌ غارت ، وأنف قد تهشَّم ، وسألناه ، فألقى فادح والوزر عليك ، بيديك .

أصحيح ما قاله هذا الفزاري الجريح ؟

قال جبلة : لست ممن ينكر أو يكتم شيًّا ، أنا أدَّبت الفتى أدركت حقي بيدي .

قال عمر : أي حق يا ابن أيهم ، عند غيري يقهر المستضعف العافي ويظلم ، عند غيري جبهةٌ بالإثم بالباطل تلطم ، نزوات الجاهلية ورياح العنجهية ، قد دفنَّاها ، وأقمنا فوقها صرحاً جديداً ، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً .



يا جبلة أرضِ الفتى ، لابد من إرضائه ، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه ، أو يُهشمن الآن أنفك ، وتنال ما فعلته كفك .

فقال جبلة : كيف ذاك يا أمير المؤمنين ، هو سوقة ،وأنا صاحب تاج كيف ترضى أن يخرَّ النجم أرضاً ، كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعزُّ ، أنا مرتدٌ إذا أكرهتني .

فقال عمر : عالم نبنيه كل صدع فيه بشبا السيف يداوى ، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى .

يا إخوة الإيمان في كل مكان ، لقد ارتد جبلة عن الإسلام ، وأخذته العزة بالإثم ، وأبى أن يخضع لحكم الله ، وتسلَّل في جنح الظلام من المدينة مُتَّجهاً نحو الشمال ، نحو أعداء المسلمين لينضم إليهم ، ويمضي عمره بالمعاصي والآثام ، وحينما دنا أجله ، تقطع قلبه ندماً على ما فعل ، فقد باع آخرته بدنياه ، وقال بعض الأبيات :

يا ليت أمي لم تلدني وليتنـــــي رجعت إلى الأمر الذي قاله عمـــر
ويا ليتني أرعى الشياه بقفــــرة و كنت أسيراً في ربيعة أو مضـــر
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشـــة أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

هذه هجرة في سبيل الشيطان ، ولكن متى عرف الحقيقة ، بعد فوات الأوان .

أيها الإخوة الأكارم ، كل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمولُ
فإذا حملت إلى القبور جنــازةً فاعلم بأنك بعدها محـــــمولُ





لذلك حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا ، فلنتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني .

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، والحمد لله رب العالمين .

الخطبة الثانية : قريش تتبع أثر النبي في الهجرة لقتله :

1 ـ سراقة بن مالك يريد أسرَ النبي طمعا في المال :

إخوة الإيمان في كل مكان ، لا زلنا في موضوع الهجرة ، بعد أن صعقت قريش حينما علمت أن محمداً صلى الله عليه وسلم خرج من مكة ، أعلنت في القبائل أنه من يأتيها بمحمد صلى الله عليه وسلم حياً أو ميتاً ، فله مائة من كرائم الإبل ، وكان سراقة بن مالك فارساً من فرسان قومه المعدودين ، طويل القامة عظيم الهامة بصيراً باقتفاء الأثر ، صبوراً على أهوال الطريق ، فلما سمع بالنوق المائة ، اشرأبت إليها أطماعه ، واشتد عليها حرصه ، فلبس لأمته – أي درعه – وتقلد سلاحه ، وامتطى جواده ، وطفق يغذُّ السير ليدرك محمداً صلى الله عليه وسلم قبل أن يسبقه أحدٌ إليه ، وإلى الجائزة ، ومضى يطوي الأرض طياً .

2 ـ عصمة الله لنبيّه :

سراقة بن مالك أدرك محمداً وصاحبه ، فمد يده إلى قوسه ، فجمدت في مكانها ، لأنه رأى قوائم فرسه تسيخ في الأرض – أي تغوص – ويتصاعد الغبار من بين يديها ، ويغطي عينيه وعينها ، فالتفت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، وقال بسوط ضارع : يا هذان ، ادعوا لي ربكما ليطلق قوائم فرسي ، ولكما علي أن أكف عنكما ، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، فأطلق الله له قوائم فرسه ، لكن أطماعه ما لبثت أن تحركت من جديد ، فدفع فرسه نحوهما مرةً ثانيةً ، فساخت قوائمها أكثر من ذي قبل ، فاستغاث بهما مرةً ثانية ، وقال إليكما



زادي ، وإليكما متاعي ، وإليكما سلاحي فخذاه ، ولكما علي عهد الله ، أن أردَّ عنكما من ورائي من الناس ، فقالا له ، لا حاجة لنا بزادك ومتاعك، ثم دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان ارحم الخلق بالخلق ، دعا له ربه مرةً ثانية فانطلقت فرسه .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

(سورة المائدة)

هذه عصمة الله عز وجل .

3 ــ النبيّ يبشّر سراقة بن مالك بفتح مدائن كسرى :

ولما همّ سراقة بالانصراف قال له النبي صلى الله عليه وسلم : كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى ، قال سراقة كسرى بن هرمز صاحب القصر الأبيض في المدائن ، قال عليه السلام كسرى بن هرمز ــ وكان من أقوى الأقوياء في عصره ــ ودارت الأيام دورتها فإذا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي خرج من مكة طريداً شريداً مستتراً بجنح الظلام مهدوراً دمه يعود إليها سيداً فاتحاً تَحُفُّه الألوف المؤلفة من بيض السيوف ، وسمر الرماح ، ويأتي سراقة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعلن إسلامه بين يديه ، ويتراءى له ذلك اليوم الذي هم فيه بقتل محمد صلى الله عليه وسلم من أجل مائة من النوق ، وبعد أن أسلم أصبح حت نوق الدنيا لا تساوي عنده قلامةً من ظفر النبي صلى الله عليه وسلم .

ودارت الأيام دورتَها كرةً ثانية وآل أمر المسلمين إلى الفاروق عمر رضوان الله تعالى عليه ، وفي ذات يوم من آخر أيام خلافته قَدِم على المدينة رُسُلُ سعد بن أبي وقاص ، يبشرون عمر بالفتح ، ويحملون إلى بيت مال المسلمين الغنائم ، وكان من بين هذه الغنائم تاج كسرى المرصع بالدر ، وثيابه المنسوجة بخيوط الذهب ، ووشاحه المنظوم بالجوهر ،



وسواراه ، وما لا حصر له من النفائس ، نظر عمر إلى هذا كله في دهشة ، وجعل يقلبها بقضيب كان بيده زهداً بها ، ثم قال : إن قوماً أدوا هذا لأمناء ، وكان في حضرته سيدنا علي كرم الله وجهه ، قال يا أمير المؤمنين : أعجبت من أمانتهم ، لقد عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا ، وهنا دعا الفاروقُ عمر سراقة بن مالك فألبسه قميص كسرى ، ووضع على رأسه تاجَه ، وألبسه سواريه ، ثم قال عمر لسراقة : بخٍ بخٍ أعيرابي من بني مدلج على رأسه تاج كسرى ، وفي يديه سواره ، ماذا قال الله عز وجل ؟ قال الله :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة النور)

وقال تعالى :

۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾

(سورة مريم)



4 ـ اللبيب بالإشارة يفهم :

وفهمكم أيها الإخوة يغني عن كثرة الشرح ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

لقد رويتُ لكم هذا القصة باختصار شديد نظراً لضيق الوقت ، ولعل اختصاري لها ، وتركي التفاصيل أخلّ بروعتها ودلالتها ، فعودوا إليها مفصلة في كتب السيرة ، ففيها دلائل كثيرة على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى صدق وعد الله للمؤمنين بالاستخلاف والتمكين والتأمين .

أيها الإخوة المؤمنون روى أبو نعيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله دعا ربه .

الحمد لله الذي خلقنا ولم نكن شيئا ، اللهم أعِنَّا على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأيام ، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا ، وبارك لنا فيما رزقتنا ، ولك فذللنا ، وعلى صالح الخلق فقومنا ، وإليك ربنا فحببنا ، والى الناس فلا تكلنا ، رب المستضعفين ، وأنت ربنا ، نعوذ بنور بوجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تحل علينا غضبك ، وتنزل بنا سخطك ، ونعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نقمتك ، وتحول عافيتك ، وجميع سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك.

03 - رحمة الرسول

حقائق يجب علينا الالتزام بها تجاه نبينا الكريم :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، قبل أيام أطلت علينا ذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحسن بنا وقد جعلت ذكرى مولده موضوعاً لهذه الخطبة أن نضع بين أيدي إخوتنا الكرام الحقائق التالية :



1ـ معرفة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والعملية فرض على كل مسلم :

أولاً : معرفة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والعملية فرض على كل مسلم ، القولية والعملية فرض عين على كلم مسلم ، لأن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، وقد أمرنا ربنا جل جلاله أن نأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، وأن نأتمر به ، وأن نأخذ نهيه ، وأن ننتهي عنه ، وأن يكون صلى الله عليه وسلم لنا أسوةً وقدوةً ، أي أمرنا أن نتبعه وأن نقتدي به ، قال تعالى :

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

(سورة الأحزاب)

كيف نأتمر بما أمر ، وننتهي عما نهى عنه وزجر ؟ وكيف يكون لنا قدوةً وأسوة إن لم نعرف أحاديثه الشريفة الصحيحة ، وسيرته الطاهرة الموثقة ؟ فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، هذه الحقيقة الأولى .

2ـ أُمِرنا أن نطيع النبي ونقتدي به لأنه معصوم بمفرده بينما أمته معصومة بمجموعها :

الحقيقة الثانية : أن الله سبحانه وتعالى ما أمرنا أن نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن نقتدي به إلا لأنه معصوم في أقواله ، وأفعاله ، وإقراره ، وأحواله ، معصوم بمفرده ، بينما أمته المتبعة له معصومة بمجموعها ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

((**لا تجتمع أمتي على ضلالة**)) .

[رواه الترمذي والحاكم وحسنه الغماري]



فهو صلى الله عليه وسلم فيما يصفه به القرآن الكريم لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، لذلك عدَّ علماء الأصول القرآن وحياً مَتلواً ، وعدُّوا أقواله صلى الله عليه وسلم التشريعية وحياً غير متلوٍ ، وهو الأصل الثاني بعد القرآن الكريم .

3ـ الاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي عين الاستجابة لله :

الحقيقة الثالثة : الاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي عين الاستجابة لله، وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي عين طاعة الله ، وإرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عين إرضاء الله ، وإليكم الأدلة من القرآن الكريم ، قال تعالى :

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

(سورة القصص)

وقال :

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا

(سورة النساء)

وقال :

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

(سورة التوبة)

بضمير المفرد .



4ــ دليل محبة الله سبحانه اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم :

الحقيقة الرابعة : الله جل جلاله لا يقبل دعوى محبته إلا بالدليل ، فكل امرئ يستطيع أن يدعي محبة الله ، لكن ما كل مدعٍ بمستطيع أن يقدم الدليل ، لقد جعل الله جل جلاله دليل محبته اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى :

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

(سورة آل عمران)

5ــ قصته صلى الله عليه وسلم تنور العقول وتطمئن القلوب لأنه أكمل خلق الله أجمعين :

الحقيقة الخامسة : قال تعالى :

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

(سورة هود)

إذا كان قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق يزداد ثبوتاً بسماع قصة نبي دونه في المرتبة ، فكيف بمؤمن يستمع إلى قصة سيد الخلق ، وحبيب الحق ، إن قصته صلى الله عليه وسلم تنور العقول ، وتطمئن القلوب ، وتسعد النفوس ، وتبعث في الإنسان روح البطولة ، لأنه أكمل خلق الله أجمعين .

وأجمل منك لم تر قط عيني   وأكمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيـــــب   كأنك قد خلقت كما تشاء



6ـ معرفة السيرة العملية والسنة القولية للرسول فرض عين على كل مسلم مدى الحياة :

الحقيقة السادسة : نخلص من هذا كله أن معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة سنته القولية الصحيحة ، ومعرفة سيرته العملية الموثقة فرض عين على كلم مسلم ، وهي من صلب الدين ، لا في شهر المولد فحسب ، بل في كل أعوام الحياة .

أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾

(سورة المؤمنون)

رحمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم :

أيها الأخوة الكرام ، هذه مقدمة والى الموضوع الأساسي :

في تاريخ البشرية كلها بروادها ، بصفوتها ، بقادتها لا نكاد نعرف حياةً نقلت إلينا أنباؤها ، وحفظت لنا وقائعها في وضوح كامل ، وتفصيل عميم شامل كما حفظت ، وكما نقلت إلينا حياة محمد بن عبد الله ، رسول الله رب العالمين ، ورحمته المهداة إلى الناس أجمعين ، فكل كلمة قالها ، وكل خطوة خطاها ، وكل بسمة تألقت على محيّاه ، وكل دمعة تحدرت من مآقيه ، وكل نفس تردد في صدره ، وكل مسعىً سار لتحقيق أمره ، كل مشاهد حياته حتى ما كان منها من خاصة أمره ، وأسرار بيته وأهله ، كل ذلك نقل إلينا بحروف كبار ، موثقاً بأصدق ما عرف التاريخ الإنساني من وسائل وبينات ، لقد رحل النبي صلى الله عليه وسلم عن دنيانا من قرابة ألف وأربعمئة عام وزيادة ، ومع هذا فنحن إذ نقرأ سيرته وتاريخه اليوم لا نحس أننا نقرأ عنه ، بل كأننا نسمعه ونراه ونعيش المشاهد نفسها التي نطالعها مكتوبة ومسطورة ، ولا عجب في هذا فمادام الله قد اختاره ليختم به النبوة والأنبياء ، فمن الطبيعي أن تكون حياته منهجاً جليلاً لأجيال لا



منتهى لأعدادها ، وأن تكون هذه الحياة بكل تفاصيلها أشد وضوحاً وتألقاً من فلق الصبح ورابعة النهار ، لا بالنسبة إلى عصره فحسب بل بالنسبة إلى كل العصور والأجيال .

أيها الأخوة الكرام ، حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وشمائله ، وجوانب شخصيته ، ونتائج دعوته لا تستوعبها مجلدات ولا خطب في سنوات ، فالرحمة مهجته ، والعدل شريعته ، والحب فطرته ، والسمو حرفته ، ومشكلات الناس عبادته ، وحسبنا في هذه الخطبة أن نقف عند الفقرة الأولى من هذه المقولة ، رحمته صلى الله عليه وسلم ، هذا هو الموضوع المحدد لهذه الخطبة .

الرحمة عند النبي الكريم خير من الإفراط في العبادة وأزكى :

لقد قال صلى الله عليه وسلم عن نفسه :

((**إنما أنا رحمة مهداة**)).

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

لكنها رحمة الأقوياء الباذلين لا رحمة الضعفاء البائسين ، لقد حدث عنها ح ديث خبير بقيمها محيط بجوانبها فقال عليه الصلاة والسلام :

((**الراحمون يرحمهم الله**)) .

[الترمذي عن عبد الله بن عمرو]

وحدَّثَ عن ربه فقال :

((**إن كنتم تحبون رحمتي فارحموا خلقي**)).

[الديلمي عن أبي بكر]

لقد أعلن النبي الكريم أن الرحمة عنده خير من الإفراط في العبادة وأزكى ، لقد خرج صلى الله عليه وسلم عام الفتح إلى مكة في رمضان حتى بلغ موضعاً يدعى كراع الغنيم فصام



وصام الناس ، ولما رأى صلى الله عليه وسلم بعض الناس قد شق عليهم الصيام بسبب جهد السفر ، دعا بقدح من ماء ، فرفعه حتى نظر الناس جميعاً إليه ثم شرب ، ولما قيل له : إن بعض الناس لا يزال صائماً ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**أولئك العصاة**)) .

[رواه مسلم والترمذي عن جابر بن عبد الله]

إن مشقة السفر عذر مبيح للإفطار في رمضان ، إن الرفق بالنفس يفوق في ميزان النبي صلى الله عليه وسلم كل شيء ، هؤلاء الذين صاموا في السفر حتى أدركهم العياء ، فلم يتخلوا عن صيامهم يدمغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعصيان ، لأنهم رفضوا رخصة أرحم الراحمين ، إنهم حولوا العبادة إلى تعذيب ، إنهم تخلوا عن أعظم فضائل الإنسان ألا وهي الرحمة ، ولا سيما الرحمة بالنفس ، واستبقاء عافيتها وقوتها ، لأنها رأس مالها .

أيها الأخوة الكرام ، لا شيء يكشف عن قيمة الرحمة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن توضع الرحمة والعبادة في كفتي ميزان عندئذ ترجح كفة الرحمة أيّما رجحان.

أحاديث تُظهر رحمته عليه الصلاة والسلام بالنفس والوالدين والأهل والزوجة :

رجل يسرع الخطى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يغشاه الفرح الكبير ، تغمره الفرحة العارمة ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة معه ، وعلى الجهاد في سبيل الله تحت رايته ، يقول له النبي الكريم :

((**هل من والديك أحد حي** ؟ قال الرجل : **نعم كلاهما حي** ، فقال عليه الصلاة والسلام : **فارجع إلى والديك وأحسن صحبتهما**)) .

[متفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص]



يسأله رجل آخر يا رسول الله إني أشتهي الجهاد معك ولا أقدر عليه ، فيقول عليه الصلاة والسلام :

((**هل بقي من والديك أحد ؟ فيقول الرجل : نعم يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : قابل الله في برهما فإن فعلت فأنت حاج ومعتمر ومجاهد**)) .

[رواه أبو يعلى في مسنده والطبراني في معجميه الأوسط والصغير عن أنس]

إن بسمة تعلو شفتي أبٍ حنون ، وتكسو وجه أمٍ ملهفة لا تقّدر عند محمد صلى الله عليه وسلم بثمن ، حتى حينما يكون الثمن جهاداً في سبيل الله يثبت الدعوة ، وينشر الراية في الآفاق ، وإذا كانت العبادة تتحول إلى تعذيب حينما تكون على حساب الرحمة بالنفس فإنها ــ أي العبادة ــ تتحول إلى عقوق إذا تمت على حساب الرحمة بالوالدين ، هذا عن رحمته بالنفس ، وعن رحمته بالوالدين ، فماذا عن رحمته بالأهل والزوجة .

أما رحمته بالأهل فشيء عجيب ، لقد ربط صلى الله عليه وسلم الخيرية المطلقة برحمة المرء بأهله وإحسانه إليهم ، فقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح :

((**خيركم خَيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**)) .

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

وقال عليه الصلاة والسلام :

((**استوصوا بالنساء خيراً**)) .

[متفق عليه عن أبي هريرة]

وقال عليه الصلاة والسلام :

((**اتقوا الله في الضعيفين المرأة واليتيم**)) .

[أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر]



وقال عليه الصلاة والسلام :

((أكرموا النساء فو الله ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم ، وفي زيادة لهذا الحديث ، يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون كريماً غالباً)) .

[ابن عساكر عن علي بسند فيه مقال كبير]

ويقول عليه الصلاة والسلام :

((خَيرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي)) .

[ابن ماجه عن ابن عباس]

رحمة النبي الكريم في :

1 ـ الأزواج و الزوجات :

وتتجلى رحمته صلى الله عليه وسلم بالأزواج من خلال هذه القصة القصيرة :

((أتينا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيماً بنا رفيقاً ، فلما ظن أنا قد اشتقنا لأهلنا ، سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه ، فقال : ارجعوا إلى أهليكم ، فأقيموا فيهم ، وعلموهم ، ومروهم ، وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها ، وصلوا كما رأيتموني أصلي ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم)) .

[متفق عليه عن أبي قلادة رضي الله عنه]



تتجلى رحمته بالزوجات من خلال زوجة الصحابي الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنه إذ دخلت على السيدة عائشة تشكو بثها وحزنها ، فعثمان زوجها مشغول عنها بالعبادة ، يقوم الليل ويصوم النهار ، لقي النبي عليه الصلاة والسلام عثمان بن مظعون فقال له : يا عثمان أما لك بي أسوة ؟ قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ماذا قال عليه الصلاة والسلام تصوم النهار وتقوم الليل ، قال : إني لأفعل هذا ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((**إن لربك عليك حقاً ، و لنفسك عليك حقاً ، و لأهلك عليك حقاً ، فأعطِ لكل ذي حق حقه**)) .

[أخرجه البخاري عن عون بن أبي جحيفة]

امتثل عثمان نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتزم أمره ، وقرر أن يؤدي حق أهله ، وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت زوجة عثمان إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم عطرة نضرة كأنها عروس ، واجتمع حولها النسوة ، وأخذن يتعجبن من فرط ما طرأ عليها من بهاء وزينة ، قلن لها : ما هذا يا زوج بن مظعون ، فقالت وهي تضحك : أصابنا ما أصاب الناس .

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم وعد المرأة التي تحسن تبعُّل زوجها بأن لها درجة عند الله تعدل درجة المجاهد في سبيل الله ، والجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام .

قال صلى الله عليه وسلم مجيباً عن سؤال لها :

((**اعلمي أيتها المرأة وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله**)) .

[ورد في الأثر]



2 ـ الأولاد :

هذا عن رحمته بالأهل والزوجة فماذا عن رحمته بالأولاد ، كان صلى الله عليه وسلم إذا رأى طفلاً يظهر له البشر والسرور إيناساً له ، كان يأخذ أطفال أصحابه بين يديه يحملهم ويداعبهم ، كان إذا مر بصبية يقرئهم السلام ، يقول : السلام عليكم أيها الصبية .

حدث جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى صبية يتسابقون فجرى معهم تطييباً لهم ، وكان يلقى الصبي وهو يركب ناقته ، فيدعوه إلى ركوب الناقة ليدخل السرور على قلبه . قالت عائشة رضي الله عنها :

((**جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أتقبلون الصبيان ، نحن لا نقبلهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : وماذا أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة**)) .

[متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها]

مات لإحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم طفل صغير ، فلما رفع إليه فاضت عيناه ، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ما هذا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :

((**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**)).

[أخرجه البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنه]

ورد عنه أنه أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي ، قلت : من هذه يا جبريل ، قال : هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً صغاراً فأبت الزواج من أجلهم " ، هذا المقام الرفيع الذي حظيت به هذه المرأة بسبب رحمتها بصغارها ، فكم هي رحمته بالصغار . وورد عنه أيضاً :

((**أن لاعب ولدك سبعاً وأدبه سبعاً وراقبه سبعاً ثم اترك حبله على غاربه**)) .

[ورد في الأثر]



3 ـــ الصغار و الجيران :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، هذا عن رحمته بالأولاد فماذا عن رحمته بالصغار عامةً ، يقول بن سويد : " رأيت أبا ذر رضي الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**هم أخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه**)) .

[متفق عليه عن الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ]

أرأيتم إلى رحمته بالصغار عامة إذا كانوا مستخدمين في مكان ما ، وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم بصحابي يضرب غلاماً له ، فقال له : اعلم أبا ذر أن الله أقدر عليك منك عليه . وكأنه بهذا ينهاه عن ضربه .

وقد سأله رجل يا رسول الله عندي يتيم أفأضربه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " مم تضرب منه ولدك " ، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم ينفي عن المرء انتماءه للإسلام إن لم يرحم الصغير ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ**)) .

[أحمد عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ]

وعن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((**إني لأقوم إلى الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه**)) .

[البخاري عن أبي قتادة]



هكذا كانت رحمته صلى الله عليه وسلم ، فماذا عن رحمته بالجيران ؟ من رحمته صلى الله عليه وسلم أنه حرص على أن يشيع الأمن والاستقرار بين المؤمنين ، فالإساءات قلما تقع بين أناس متباعدين ، إنها تقع نتيجة الاحتكاك اليومي ، ومن يحتك مع أخيه يومياً ؟ إنهم الجيران ، لذلك يوصي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجار :

((**مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيُوَرِّثُهُ**)) .

[متفق عليه من حديث ابن عمر]

يشدد النبي عليه الصلاة والسلام في وصيته تلك لئلا يطغى الجار القوي على الجار الضعيف ، فكان عليه الصلاة والسلام ينفي الإيمان نفياً أكيداً عن كل جار يخافه جاره ، ولا يأمن شروره ، قال عليه الصلاة والسلام :

((**والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن ، كررها ثلاثاً ، : قيل من هو يا رسول الله ، قال من لا يأمن جاره بوائقه**)) .

[متفق عليه من حديث أبي هريرة]

قيل له يوماً : يا رسول الله ، إن فلانة تذكر أنها تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، فماذا كان جواب النبي ؟ قال : هي في النار " ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام ليشير إلى حقوق الجار مطلق الجار فكيف بالجار المسلم ؟ فكيف ب الجار المسلم القريب ؟ فكيف بالجار المسلم القريب الأدنى ؟ يقول عليه الصلاة والسلام فيما يروى عنه : أتدرون ما حق الجار إن استعان بك أعنته وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن مرض عدته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته، وإن مات شيعته ، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له منها فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقُتار قدرك إلا أن تغرف له منها .



4 ــ الإنسان :

هذه رحمته بالجيران فكيف رحمته بالناس عامة ؟!

الرحمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ صاحب هذه الذكرى ــ ليست نافلة من نوافل البر ، بل هي واجب من واجبات الرشد ، وتبعة من تبعات الحياة ، لهذا تعبر عن نفسها في كثير من صور الخير والمشاركة والأعمال النافعة ، يقول أبو ذر رضي الله عنه : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ماذا ينجي العبد من النار ؟ قال عليه الصلاة والسلام : الإيمان بالله ، فقال أبو ذر : يا نبي الله أمع الإيمان عمل ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أن تعطي مما رزقك الله ، قلت : يا نبي الله فإن كان فقيراً لا يجد ما يعطي؟ قال عليه الصلاة والسلام : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، قال : فإن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ، ولا يستطيع أن ينهى عن المنكر ، فقال عليه الصلاة والسلام : فليعن الأخرق ــ أي ضعيف الرأي ــ ، قلت : يا رسول الله أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع ، قال : فليعن مظلوماً ، قلت : فإن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً ؟ فتعجب النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال : أما تريد أن تترك لصاحبك من خير ليمسك أذاه عن الناس ؟ قلت : يا رسول الله أو إن فعل هذا يدخل الجنة ؟ قال : ما من عبد يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة " .

5ــ الحيوان :

بقي شيء قد لا يخطر ببالكم ، رحمته عليه الصلاة والسلام بالحيوان ، هل وقفت رحمة محمد صلى الله عليه وسلم عند الإنسان وحده ؟ لا لقد شملت كل كائن حي لتدفع عنه الغوائل والشرور ، هذه المخلوقات الضعيفة يفيض قلب النبي صلى الله عليه وسلم الكبير رحمة بها ، يؤكد حقها في الحياة والرزق ، بل لعلها أحق من غيرها لأنها لا تملك أن تشكو أو أن تتوجع ، كان صلى الله عليه وسلم لا يطيق أن يرى دابة تحمل فوق طاقتها كان يقول :

((**عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت لا هي أطعمتها وسقتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**)). [مُتَّفَقٌ عَلَيْه عن ابن عمر] .



وفي رواية أخرى لهذا الحديث :

((**دخلت امرأة النار في هرة حبستها**)) .

من فرط إحساس النبي صلى الله عليه وسلم بحاجة الحيوان إلى الرحمة كان كأنه يستمع إلى شكوى الحيوان المعذب وكأنه نداء النجدة ، يقول عبد الله بن جعفر : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بستاناً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ، فما إن رأى النبي صلى الله عليه وسلم حتى حن إليه ، وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفريه فسكن الجمل ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام :

((**من صاحب هذا الجمل ؟ قال فتى من الأنصار : هو لي يا رسول الله ، قال له النبي الكريم : ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه**)) . أي تتعبه .

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .



الحرص على وحدة الأمة :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، أما رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته من بعده فقد كان حريصاً على وحدتهم من بعده ، فكل ما من شأنه أن يوحد أمته من بعده ، وأن يجمع شملها ، وأن يرص صفوفها أمر به ، وكل ما من شأنه أن يفرقها ، أو أن يشتتها ، أو أن يضعفها نهى عنه ، ما من منهج دعا إلى الأخوة الحقيقية التي تتجسد في الاتحاد ، والتضامن ، والتساند ، والتآلف ، والتآزر ، والتعاون ، والتكاتف إلا منهج النبي عليه الصلاة والسلام ، لقد حذر من التفرق ، والاختلاف ، والعداوة ، والبغضاء ، والتشرذم ، هذا من صلب منهج النبي عليه الصلاة والسلام ، يتبدى ذلك من سنته القولية والعملية ، حدث في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جاهلياً في المدينة المنورة غاظه ما رأى من ألفة المسلمين ، غاظه ما رأى من صلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم من العداوة والبغضاء في الجاهلية ، أمر شاباً على شاكلته أن يجلس مع الأوس والخزرج ، وأن يذكرهم بيوم بعاث ، يوم اقتتالهم ، وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوه فيه من أشعار ، فتفاخر القوم ، ثم تنازعوا ، ثم تواثب رجلان من الحيين وتقاولا ، فقال أحدهما : إن شئتم رددناها الآن جذعةً ، أي حامية ، وغضب الفريقان ، وكادت تقع فتنة ، بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم غاضباً فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ أبعد أن هداكم الله إلى الإسلام ، وأكرمكم به، وقطع به عنكم دعوى الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ، فعرف القوم أنه ا نزغة من الشيطان ، وكيد من عدو لهم ، وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين .

لقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم الخصومة بالكفر ،



ثم إن الله جل جلاله أنزل بهذه الحادثة قرآناً فقال :

وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ
رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ
﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم
بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ
أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ
مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾
يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ
أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾



وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾
تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ
﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ
﴿١٠٩﴾ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ
عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا
لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

(سورة آل عمران)

ورد في أسباب النزول أن هذه الآيات نزلت في تلك الحادثة التي كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، صدق الله العظيم .

حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على وحدة أمته من بعده :

قال تعالى :

لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم
بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ
عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

(سورة التوبة)

لقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على وحدة أمته من بعده ، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :



((لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)) .

[البخاري عَنْ جَرِيرٍ]

وحينما نحتفل بمولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن نذكر حرصه صلى الله عليه وسلم على وحدتنا ورفعتنا بعده ، فما من مرحلة في تاريخ أمتنا المعاصر تشتد فيها الحاجة إلى رأب الصدع ، ولمِّ الشمل ، وتضميد الجراح ، ورصّ الصفوف كهذه المرحلة التي نحن فيها ، ولن نستطيع أن ننتزع حقنا وأرضنا إلا بالتعاون ، والتضامن ، والتساند ، والتكاتف ، والتآزر ، والتآلف ، وهذا ما يسعى إليه بلدنا الطيب ، وأما السلام الذي ندع ى إليه فنحن حريصون عليه راغبون فيه على أن يكون سلاماً عادلاً تسترد قبله الأرض ، وتتوافر فيه الكرامة ، هذا بعد أن نستوعب مضمون الآية الكريمة وأن نعمل بها :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

(سورة محمد)

04 - شخصية الرسول

الجانب الإنساني في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، موضوع الخطبة اليوم الجانب الإنساني في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن رحمته إلى عدله ، من محبته إلى سموه ، ومن سموه إلى حرصه .

أخوة الإيمان في كل مكان ، إننا نرى في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الإنسان الحاني الرحيم ، الذي لا تفلت من قلبه الذكي شاردة من آلام الناس وآمالهم إلا لباها و رعاها ، وأعطاها من ذات نفسه كل اهتمام وتأييد ، نرى فيه الإنسان الذي يكتب إلى ملوك الأرض طالباً إليهم أن ينبذوا غرورهم الباطل ، ثم يصغي في حفاوة ورضىً إلى أعرابي حافي القدمين يقول



في جهالة : "اعدل يا محمد ، فليس المال مالك ، ولا مال أ بيك " ، نرى فيه العابد الأواب الذي يقف في صلاته ، يتلو سورةً طويلةً من القرآن في انتشاء وغبطة لا يقايض عليها بملء الأرض تيجاناً وذهباً ، ثم لا يلبث أن يسمع بكاء طفل رضيع كانت أمه تصلي خلفه في المسجد فيضحي بغبطته الكبرى ، وحبوره الجياش ، وينهي صلاته على عجل رحمة بالرضيع الذي كان يبكي ، وينادي أمه ببكائه .

نرى فيه الإنسان الذي وقف أمامه جميع الذين شنوا عليه الحرب والبغضاء ، وقفوا أمامه صاغرين ، ومثّلوا بجثمان عمه الشهيد حمزة ، ومضغوا كبده في وحشية ضارية، فيقول لهم ، وهو قادر على أن يهلكهم :

((**اذهبوا فأنتم الطلقاء**)).

[السيرة النبوية]

نرى فيه الإنسان الذي يجمع الحطب لأصحابه في بعض أسفارهم ، ليستوقدوه ناراً تنضج لهم الطعام ، ويرفض أن يتميز عليهم .

نرى فيه الإنسان الذي يرتجف حين يبصر دابةً تحمل على ظهرها أكثر مما تطيق .

نرى فيه الإنسان الذي يحلب شاته ، ويخيط ثوبه ، ويخصف نعله .

نرى فيه الإنسان ، وهو في أعلى درجات قوته ، يقف بين الناس خطيباً فيقول : " من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقدْ منه " .

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله ، نشهد أنك أديت الأمانة ، وبلغت الرسالة، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت في الله حق الجهاد ، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد .



الرحمة خير من الإفراط في العبادة :

أيها الأخوة الأكارم حضوراً ومستمعين ، من ومضات رحمته صلى الله عليه وسلم أنه قال عن نفسه :

((**إنما أنا رحمة مهداة**)) .

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

وقد روى عن ربه في الحديث القدسي :

((**إن كنتم تحبون رحمتي فارحموا خلقي**)).

[الديلمى عن أبى بكر]

وبين صلى الله عليه وسلم أن الراحمين يرحمهم الله ، وأرشد المؤمنين إلى التزام الرحمة فقال لهم :

((**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**)).

[الترمذي عن عبد الله بن عمرو]

وبيّن أيضاً أن الرحمة خير من الإفراط في العبادة ، فقد خرج صلى الله عليه وسلم عام الفتح إلى مكة في رمضان ، حتى بلغ موضعاً يدعى كراع الغميم فصام ، وصام الناس ، ولما رأى بعض الناس قد شقّ عليهم الصيام بسبب وعثاء السفر دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس إليه ، ثم شرب ، ولما قيل له : إن بعض الناس لا يزال صائماً ، قال:

((**أولئك العصاة**)) .

[مسلم عن جابر]

رجل يسرع الخطا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يغشاه الفرح الكبير ، تغمره الفرحة العارمة ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة معه ، وعلى الجهاد في سبيل الله



تحت رايته ، يقول له : " يا رسول الله جئت أبايعك على الهجرة والجهاد ، وتركت أبواي يبكيان " فيقول له عليه الصلاة والسلام :

((ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما)) .

[النسائي عن عبد الله بن عمرو]

إن بسمة تعلو شفتي أبٍ حنون ، وتكسو وجه أمٍ متلهفة ، لا تقّدر عند محمد صلى الله عليه وسلم بثمن ، حتى حينما يكون الثمن جهاداً في سبيل الله ، يثبت دعوته ، وينشر في الآفاق البعيدة رايته ، وحينما تتم العبادة على حساب رحمة الوالدين تتحول إلى عقوق ، والنبي صلى الله عليه وسلم يركز على الرحمة تركيزاً شديداً كلما اشتدت إليها الحاجة .

النبي صلى الله عليه وسلم جعل الرحمة فوق الفضائل الإنسانية كلها :

هؤلاء المساكين الذين تسوقهم ضرورات العيش إلى الدين ، ثم تعجزهم ضحالة الدخل عن السداد ، فيعانون من أجل الديون همّ الليل وذلّ النهار ، هؤلاء يأسو جراحهم النبي صلى الله عليه وسلم ، إنه لا يملك أن يقول للدائن : تنازل عن حقك ، فمحمد صلى الله عليه وسلم خير من يصون الحقوق ، لكنه يهب الدائن شفاعته ، وقلبه ، وحبه إذا هو أرجأ مدينه ، وصبر عليه حتى تحين ساعة فرج قريب ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((من أنظر معسراً أو وضع له ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله)) .

[أحمد و الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً]

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً :

((من أراد أن تستجاب دعوته ، وأن تكشف كربته ، فليفرج عن معسر)) .

[أحمد عن ابن عمر]



ويجعل النبي صلى الله عليه وسلم الرحمة فوق الفضائل الإنسانية كلها ، فيجعل كل عمل رحيم عبادةً من أزكى العبادات ، فعند النبي صلى الله عليه وسلم أن أعمالنا الرحيمة التي نسديها للآخرين إنما يراها الله قُربات توجه إليه ذاته ، فإذا زرت مريضاً فأنت إنما تزور الله ، وإذا أطعمت جائعاً فكأنما تطعم الله ، يقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه :

((**يا بن آدم مرضت ولم تعدني ، قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ، قال أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لوعدته لوجدتني عنده ، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي**)) .

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

ويصور النبي صلى الله عليه وسلم رحمة الله بصورة باهرة أخَّاذة حينما رأى أماً تضم طفلها إلى صدرها في حنان بالغ ، ورحمة بالغة ، فالتفت إلى أصحابه وقال لهم :

((**أترون هذه طارحةً ولدها في النار ؟ قال أصحابه : لا والله يا رسول الله ، قال لَله أرحم بعبده من هذه بولدها**)) .

[مسند البزار عن عمر بن الخطاب]

النبي الكريم حطم كل معالم التمايز بينه وبين الناس :

أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، ذات يوم تقدم منه أعرابي في غلظة وجفوة ، وسأله مزيداً من العطاء ، وقال : اعدل يا محمد ، ويبتسم عليه الصلاة والسلام ، ويقول له :

((**ويحك يا أعرابي من يعدل إن لم أعدل**)) .

[صحيح مسلم عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]



أيها الأخوة الكرام إن الطمأنينة التي دفعت هذا الأعرابي إلى هذا الموقف المسرف في الجرأة ، هذه الطمأنينة وحدها تصور عدل محمد صلى الله عليه وسلم ، فما كان هذا الأعرابي قادراً على أن يقول مقالته تلك لو كان محمد صلى الله عليه وسلم أقام بينه وبين الناس حجباً ، وبث في نفوسهم الخشية والرهبة ، لكن هذا النبي الكريم حطم كل معالم التمايز بينه وبين الناس ، وحينما دخل عليه رجل غريب يختلج ، بل يرتجف من هيبته ، استدناه وربت على كتفه في حنان وفرط تواضع ، وقال له قولته الشهيرة :

((هون عليك فإني ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة)) .

[ابن ماجه عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ]

لقد هيأه تفوقه صلى الله عليه وسلم ليكون واحداً فوق الناس ، فعاش واحداً بين الناس ، يسأله أعرابي يوماً ، في بداوة جافة ، يا محمد هل هذا المال مال الله أم مال أبيك ؟ ويبتدره عمر يريد أن يؤنبه ، فيقول عليه الصلاة والسلام : " دعه يا عمر إن لصاحب الحق مقالاً ".

وانطلاقاً من قيم العدل التي آمن بها صلى الله عليه وسلم ، ودعا إليها ، يبين عليه الصلاة والسلام ويقول :

((كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه)) .

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

وأن :

((لزوال الدنيا جميعاً أهون على الله من دم سفك بغير حق)) .

[البيهقي]

((إنَّما أَهلك الذين قبلكم : أنَّهمْ كانوا إذا سَرقَ فيهم الشَّريفُ تَرَكُوه ، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ . وَأيْمُ اللَّهِ لَوْ أنَّ فاطمةَ بنْتَ محمدٍ سَرَقَت لقطعتُ يَدَهَا)) .

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين]



لو أن إنساناً استطاع بطلاقة لسانه وقوة حجته أن ينتزع من فم النبي صلى الله عليه وسلم حكماً ، ولم يكن محقاً فيه لا ينجو من عذاب الله ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا**)) .

[متفق عليه عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

ومضات من محبته صلى الله عليه وسلم :

أيها الأخوة الأكارم حضوراً ومستمعين ، إلى ومضات من محبته صلى الله عليه وسلم .

محمد صلى الله عليه وسلم محب ودود ، أطاع الله كثيراً ، لأنه أحبه كثيراً ، بر الناس كثيراً ، لأنه أحبهم كثيراً ، أحبّ عظائم الأمور ، وترك سفسافها ودنيها ، أحبّ عظائم الأمور ، ومارسها في شغف عظيم ممارسة محب مفطور ، لا ممارسة مكلف مأمور ، لقد سجد ، وأطال السجود ، وسُمع وجيبُ قلبه ، ونشيج تضرعه وبكائه ، لأنه في غمرة شوق جارف ، ومحبة أخَّاذة ، كان ينتظر الصلاة على شوق ، فإذا دخل وقتها قال :

((**أرحنا بها يا بلال**)) .

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

أرحنا بها لا أرحنا منها ، وهذا هو الفرق بين الحب والواجب .

ذات يوم كان في الطائف يدعو قومها إلى الله ، فقابلوه بالتكذيب والسخرية والإيذاء ، أغروا به سفهاءهم ، ألجؤوه إلى حائط ، رفع رأسه إلى السماء ، وناجى ربه فقال :

((**يا رب ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي**)) .

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]



أي إنه لا يخشى العذاب والألم إلا إذا كان تعبيراً عن تخلي الله عنه .

ثم أدرك صلى الله عليه وسلم أنه لا ينبغي للمحب الصادق أن يشغله استعذاب التضحية عن رجاء العافية ، فيستدرك ويقول : لكن عافيتك هي أوسع لي .

أيها الأخوة الأكارم حضوراً ومستمعين ، ذات يوم أقبل على محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً فظاً غليظاً ، لم يكن قد رآه من قبل ، غير أنه سمع أن محمداً يسب آلهة قريش والقبائل كلها ، فحمل سيفه ، وأقسم بالله لَيُسَوِّيَنَّ حسابه مع محمد ، ودخل عليه ، وبدأ حديثه عاصفاً مزمجراً ، والنبي صلى الله عليه وسلم يبتسم ، وتنطلق مع بسماته أطياف نور آسر ، وما هي إلا لحظات حتى انقلب المَغِيظُ المتجهم محباً يكاد من فرط الوجد والحياء يذوب ، وانكفأ على يدي محمد صلى الله عليه وسلم يقبلهما ودموعه تنحدر غزيرةً ، ولما أفاق قال : يا محمد والله لقد سعيت إليك وما على وجه الأرض أبغض إلي منك ، وإني لذاهب عنك وما على وجه الأرض أحب إلي منك .

ما الذي حدث ؟ لقد أحب محمد الرجل من كل قلبه ، فخرّ جبروت هذا الرجل صريع حب وديع ، قلب محمد صلى الله عليه و سلم مفتوح دائماً لكل الناس ، الأصدقاء والأعداء ، وحينما اقترب الرجل من رسول الله صلى الله عليه وسلم مسَّته شعاعة من فيض قلبه الكبير ..! معذورة قريش حينما لم تدرك هذا السر ، فقالت : إن محمداً لساحر .

توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم في الحبّ والود :

أيها الأخوة الكرام ، من توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم في الحب والود :

((والذي نفس محمد بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا)).

[مسلم عن أبي هريرة]



((إذا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُعْلِمْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ)) .

[أحمد و البخاري عن المقدام بن معد يكرب]

((وإذا آخى الرجلُ الرجلَ ، فليسأله عن اسمه ، واسم أبيه ، وممن هو ؟ فإنه أوصل للمودة)) .

[الترمذي عن ن يزيد بن نعامة الضبي]

((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه))

[مسلم عن أبي الربيع]

((من هجرة أخاه سنة فهو كسفك دمه)) .

[أحمد عن أَبِي خِرَاشٍ السُّلَمِيِّ]

((وكفى بك ظلما ألا تزال مخاصماً))

[البيهقي عن ابن عباس]

((من أتاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلاً)) .

[أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا]

((ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : الذين لا يقيلون عثرةً ولا يقبلون معذرة ولا يغفرون ذنباً)) .

[الطبراني عن ابن عباس]

((صل بين الناس إذا تفاسدوا ، وقرب بينهم إذا تباعدوا)) .

[البزار عن أنس]



جهاز المناعة :

يا أيها الأخوة الكرام ، ما دام الحديث عن الحب ، فإليكم هذا الموضوع العلمي ، والمطلوب من الأخوة المستمعين أن يبحثوا عن علاقة هذا الموضوع العلمي بالحب .

هناك في الإنسان جهاز خاص للشفاء الذاتي ، لم تأت على ذكره فهارس كتب الطب أو قواميسه ، فهناك حالات مرضية مستعصية شفيت بشكل غامض ودون سبب واضح، وهذا الجهاز المسؤول عن الشفاء الذاتي هو جهاز المناعة ، وهو من الأجهزة الرائعة التي أبدعها الخالق جلّ وعلا ، ليس لهذا الجهاز مكان تشريحي ثابت ، بل هو جهاز جوال ، مبرمج على أن يتعرف على أية خلية غريبة عن خلايا الجسد ليقوم بتميزها ، وأهم ما في هذا الجهاز ذاكرته العجيبة ، فهو لا ينسى أبداً أي سلاح واجه به عدواً من أمد طويل ، ولولا هذه الذاكرة العجيبة لما كان هناك من فائدة إطلاقاً من التلقيح ضد الأمراض ، تُصنع عناصر هذا الجهاز في نقي العظام ، ويتم إعدادها القتالي في الغدة الصعترية " التيموس "، معهد إعداد المقاتلين ، وعناصر هذا الجهاز موزعة بين مهمات الاستطلاع وتصنيع المصل المضاد والقتال والخدمات ، لكن فيروس الإيدز يدخل إلى الجسم متخفياً بشكل مشابه لعناصر هذا الجهاز ، ثم يقضي عليها تماماً ، لكن من بين عناصر هذا الجهاز فرقة المغاوير ، ذات كفاءة عالية جداً ، وقد اكتُشفت في أواخر السبعينات ، وتستطيع عناصر هذه الفرقة التعرف على الخلايا السرطانية ، وتتجه إليها وتدمرها ، أخطر ما في هذا الجهاز أن القوة التي تشكله وتطوره وتأمره ليست من داخل الجسم بل من خارجه ، إنه الله جلّ جلاله ، وأخطر ما في هذا الجهاز أيضاً أن الاكتئاب ، والح زن ، والتوتر ، والقلق ، والحقد ، والشدة النفسية ، تضعف من قوة هذا الجهاز ، وأن الأمل ، والحب ، والهدوء ، والتفاؤل ، تقوي إمكانات هذا الجهاز ، ومن هنا يعد التوحيد صحةً بالمعنى الدقيق للكلمة ، ويعد الشرك سبباً للخوف والقلق، والخوف والقلق سبب لإضعاف جهاز المناعة الذي أبدعه الله من أجل الشفاء الذاتي .



قال الله تعالى :

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

(سورة الشعراء)

أيها الأخوة ، ابحثوا عن علاقة الراحة النفسية الناتجة عن التوحيد بالشفاء ، وعن علاقة الشدة النفسية الناتجة عن الشرك الخفي بالوباء .

قصة جابر بن عبد الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أيها الأخوة المؤمنون ، أيها الأخوات المؤمنات ، إليكم قصة جابر بن عبد الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذه القصة تصور مودة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه، ورفقه بهم ، واهتمامه بمشكلاتهم ، وتواضعه ، ومؤانسته لهم :

عن جابر بن عبد الله ، قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع ، مرتحلاً على جمل لي ضعيف ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت الرفاق تمضي (أي تسبقني) ، وجعلت أتخلف (لأن جمله ضعيف) حتى أدركني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما لك يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا ، قال : فأنِخْهُ ، وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم جمله ، ثم قال : أعطني هذه العصا من يدك ، ففعلت ، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخس بها الجمل نخسات (أي وخزه بها) ، ثم قال : اركب ، فركبت ، فانطلق جملي ، والذي بعثه بالحق صار جملي يجاري ناقة رسول الله ، وتحدث معي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أتبيعني جملك هذا يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله بل أهبه لك ، قال : لا ولكن بِعنيهُ ، قلت : فسُمْني به ، قال : أخذته بدرهم ، (هكذا قال عليه الصلاة والسلام) ، قلت : لا ، إذاً يغبنني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (درهم قليل) قال : فبدرهمين ، قلت : لا ، فلم يزل يرفع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم الثمن حتى بلغ



الأوقية ، فقلت : قد رضيت ، قال : قد رضيت ، قلت : نعم هو لك ، قال : قد أخذته ، ثم قال لي : يا جابر هل تزوجت ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : أثيباً أم بكراً ؟ قلت : بل ثيباً ، قال : أفلا تزوجت بكراً ؟ قلت : يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد ، وترك بنات له سبعاً ، فتزوجت امرأة جامعةً تجمع رؤوسهن ، وتقوم عليهن ، فقال : قد أصبت إن شاء الله ، ثم قال : أخبرت امرأتي الحديث ، وما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : سمعاً وطاعة (أي بع جملك لرسول الله) قال : فلما أصبحت أخذت برأس الجمل ، فأقبلت به حتى أنَخْته على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جلست في المسجد قريباً منه ، قال : وخرج النبي عليه الصلاة والسلام ، فرأى الجمل ، قال : ما هذا ؟ قالوا : هذا جمل جاء به جابر ، قال : فأين جابر ؟ فدعيت له ، فقال : تعال يا بن أخي خذ برأس جملك فهو لك ، ودعا بلالاً فقال : اذهب بجابر ، وأعطه أوقية ، فذهبت معه ، وأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً ، قال : فوالله ما زال ينمو هذا المال عندنا ونرى مكانه في بيتنا .

يا أيها الأخوة الأكارم ، أرأيتم إلى ملاطفته ، إلى رقته ، إلى رفقه بأصحابه ، إلى تواضعه لهم ، هكذا كانت أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

(سورة القلم)

ومضات من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه :

أيها الأخوة الأكارم في دنيا العروبة والإسلام ، إلى ومضات من حرصه على أصحابه .



كان من بين أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام صحابي جليل هو عثمان بن مظعون ، وكان عثمان متبتلاً غير مشفق على نفسه ، حتى لقد همّ ذات يوم أن يتخلص كلياً من نداء غريزته ، وذات يوم دخلت زوجته على السيدة عائشة رضي الله عنه ، فوجدتها عائشة رثَّة الهيئة مكتئبة ، فسألتها عن أمرها ، فقالت : إن زوجي عثمان صوام قوام، أي يصوم النهار ، ويقوم الليل ، فأخبرت السيدة عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحال هذه المرأة ، امرأة عثمان بن مظعون فالتقى النبي عليه الصلاة والسلام بعثمان وقال له : يا عثمان، أما لك بي من أسوة ؟ قال عثمان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ماذا فعلت ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال عثمان : إني لأفعل ، قال عليه الصلاة والسلام : لا تفعل ، إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه .

وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت زوجة عثمان إلى بيت النبوة عطرة نضرة ، كأنها عروس ، واجتمع حولها النسوة اللاتي كانت تجلس بينهن بالأمس رثة بائسة ، وأخذن يتعجبن من فرط ما طرأ عليها من بهاء وزينة ، قلن لها : ما هذا يا زوج بن مظعون ؟ قالت وهي مغتبطة : أصابنا ما أصاب الناس .

إنسانية النبي عليه الصلاة والسلام لم تحتمل حال زوجة يؤرقها هجر زوجها ، فذكَّر زوجها بما لها عليه من حق ، كان عليه الصلاة والسلام أرحم الخلق بالخلق ، فمن أقواله المؤكدة لهذه الحقيقة : "لأن أمشي مع أخ في حاجته أحب إلي من أن أعتكف في مسجدي هذا شهراً ".

سئل صلى الله عليه وسلم :

((يا رسول الله أي الناس أحبهم إلى الله ؟ قال : أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس))

.

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر]

وقال صلى الله عليه وسلم :



((إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس ، يفزع الناس إليهم في حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله)) .

[رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عمر]

ويقول أيضاً :

((من كان وصلة لأخيه إلى ذي سلطان في مبلغ بر أو إدخال سرور رفعه الله في الدرجات العلى من الجنة)) .

[رواه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي الدرداء]

ويقول أيضاً :

((إن لله أقواما اختصهم بالنعم لمنافع العبد و يقرها فيهم ما بذلوها فإذا منعوها نزعها عنهم و حولها إلى غيرهم)) .

[شعب الإيمان عن ابن عمر]

ويقول أيضاً :

((من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين))

[الحاكم في المستدرك عن ابن عباس]

((إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيع ؟)) .

[النسائي عن أنس]

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، والحمد لله رب العالمين .



محمد صلى الله عليه وسلم رحمة مهداة ونعمة مزجاة :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، هذا جانب واحد من جوانب شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الجانب الإنساني ، إنه محمد صلى الله عليه وسلم ، سيد الخلق ، وحبيب الحق ، إنه الرحمة المهداة والنعمة المزجاة ، إنه أرحم الخلق بالخلق ، أحرض الخلق على هداية الخلق ، سيد الأنبياء والمرسلين ، أقسم الله بعمره الثمين ، فقال :

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة الحجر)

وأثنى على خلقه القويم ، فقال :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

(سورة القلم)

أيها الأخوة الأكارم ، حضوراً ومستمعين ، إن النبي صلى الله عليه وسلم في نظر المنصفين من خصومة الإنسان الأول من بين المئة الأوائل في تاريخ البشرية كلها ، من حيث قوة التأثير ، ومن حيث نوع التأثير ، ومن حيث امتداد أمد التأثير ، ومن حيث اتساع رقعة التأثير .

وأجمل منك لم تر قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرّأً من كل عيـــــب كأنك قد خلقت كما تشاء
وأسدت للبرية بنت وهب يداً بيضاء طوقت الرقاب
لقد وضعته وهّاجاً منيراً كما تلد السماوات الشهاب



المسلمون يحترمون أنفسهم و تعاليم دينهم فلا يقابلون الأشياء المشينة بمثلها :

أيها الأخوة الأكارم ، ومع أن النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم ألزم أتباعه المسلمين باحترام جميع الأنبياء والمرسلين ، وجعل الإيمان بهم شرطاً لصحة الإيمان ، ومع وفرة هذه الحقائق الناصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم التي يقر بها القاصي والداني ، والعدو والصديق ، تطالعنا الأخبار أن فتاةً إسرائيلية حاقدةً وجاهلة ، تسيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم أيما إساءة ، وتطعن في كتابنا العزيز أيما طعن ، إنها تعبر عن قومها أصدق تعبير ، وإنها مرحلة متطورة وإجرامية ، من مراحل صراعنا مع الصهيونية ، إن ما فعله الصهاينة مؤخراً ، من الإساءة إلى النبي صلى الله عليه وسلم والتطاول عليه يعد عملاً خسيساً يقوض عملية السلام ، ويوتر العلاقات ، ويستفز المشاعر الدينية ، ولا يخدم أحداً ، وهو عمل جبان ، وإجرامي ، لا يمكن أن يصدر إلا عن حاقد مريض ، م اذا ننتظر من قتلة الأنبياء ؟ وماذا ننتظر من قوم لا يحترمون شرائع السماء ؟ إن تاريخهم القديم والحديث مليء بالمواقف، والأعمال ، والأقوال المخزية ضد الإسلام والمسلمين ، فمن إحراق المسجد الأقصى المبارك ثاني القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين ، ومروراً بالحفريات المتزايدة تحته بقصد هدمه ، ونقض بنيانه ، ثم العدوان الصهيوني على المصلين في الحرم الإبراهيمي الشريف ، ثم فتح النفق أسفل المسجد الأقصى المبارك ، إن استعراض هذه الأعمال الإجرامية يجعلنا ندرك عن يقين أن هذا العمل الشائن الأخير لن يكون الأخير في سلسلة الأعمال الشائنة ضد الإسلام والمسلمين .

وإننا نحن المسلمين نُجل الأنبياء ، ونحترمهم ، ونوقرهم ، ونؤمن بهم جميعاً ، ولا يمكن أن نقابل هذا التصرف المشين بمثله لأننا نحترم أنفسنا ، ونحترم تعاليم ديننا ، وندرك أن من يتطاول على الأنبياء والمرسلين إنما يرتد سيفه إلى نحره ، ويكون تدميره في تدبيره ، والدائرة تدور عليه .



ونحن ندع العالم العربي والإسلامي إلى مزيد من الوعي ، واليقظة ، والتماسك ، وإزالة أسباب الخلافات فيما بين المسلمين حتى يتفرغوا بحق لمواجهة المكائد والمؤامرات التي تحاك ضدهم وضد دينهم ، وضد مستقبل أبنائهم فضلاً عن حاضرهم وتراثهم .

يقول السيد الرئيس : (لا يمكن لإنسان عاقل أن يعتقد أن الله جلّ جلاله قال لمجموعة من الناس ، لشعب ، لأي شعب : سأعطيكم أراضٍ من هنا إلى هناك ، وسأطرد أمامكم هذه الشعوب ، نحن نتصور أن الله قوة عدل مطلقة تسير هذا الوجود ، الله لنا جميعاً ونحن له جميعاً) .

ويتابع حديثه قائلاً : نحن نعتز بالإسلام اعتزازاً لا حدود له ، ونقاوم الذين يشوهون هذا الإسلام ، ونحن سندافع عن الإسلام ، سندافع عنه كما جاء إسلام الصحابة ، إسلام عمر وعلي ، إسلام العدل ، إسلام المساواة ، إسلام المحبة) .



الباب الثامن: موضوعات معاصرة



1 - الإيدز
2 - الدخان



1 - الإيدز

الوقاية من مرض الإيدز لا يكون إلا بالتزام منهج الله القويم وصراطه المستقيم :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، موضوع الخطبة اليوم حول خطر داهم يهدد العالم بأسره ، ينتشر بمتوالية انفجارية ، ولا سبيل إلى الوقاية من هذا الخطر إلا بالتزام منهج الله القويم ، وصراطه المستقيم الذي ارتضاه لعباده .

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، يقول الله تعالى :

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

(سورة الروم)

صنع الله متقن غايةَ الإتقان ، محكم غاية الإحكام ، كامل غاية الكمال قال تعالى :

صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ

(سورة النمل : الآية 88)

قال تعالى :

فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾

(سورة الملك)



معنى الفساد :

قال تعالى :

ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾

(سورة الملك)

ذلك لأن كمال الخالق يظهر في كمال الخلق ، وكذلك علمه وقدرته وحكمته ، أما الفساد ففي تعريفه الدقيق : هو خروج الشيء عن كمال خصائصه ، وصفاته ، فخصائص الماء مثلاً الكاملة أنه لا لون له ، ولا طعم له ، ولا رائحة له ، ففساده تلوثه بعناصر غريبة عنه ، وجراثيم فتاكة لشاربه ، وكذلك فساد الهواء ، وكذلك فساد الأخلاق ، وكذلك فساد العلاقات ، فساد الشيء خروجه عن كمال خصائصه وصفاته .

الفساد مستحيل في أصل الخلق ، لأن كمال الله مطلق ، ولكن الفساد ممكن من جهة المخلوق ، حيث أودعت فيه الشهوات ليرقى بها صابراً أو شاكراً إلى رب الأرض والسماوات ، الفساد ممكن من جهة مخلوق منح حرية الاختيار ليُثَمَّن علمه ، ووضعَ له منهج دقيق ، إذا تحرك من خلاله وقاه الضلال والشقاء ، قال تعالى :

فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(سورة طه)

بعض أسباب الفساد :

لكن الإنسان حينما جهل حقيقته ، وشرد عن ربه جعل شهوته هدفاً ، بل إلهاً عبدها من دون الله.



قال تعالى :

أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

(سورة الفرقان)

وجعل حريته تفلتاً من كل قيد ، قال تعالى :

إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

(سورة الفرقان)

وجعل المنهج القويم الذي أنزله الله على رسوله جعله وراء ظهره ، ولم يعبأ به :

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾

(سورة الفرقان)

وقال :

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ
وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

(سورة الجاثية)

هذه هي أسباب الفساد مخلوق تفلت من منهج ربه ، واستخدم حرية الاختيار ليفعل ما يشاء ، وجعل شهوته هدفاً عبدها من دون الله .

ما من مصيبة تحل بالبشرية إلا بسبب خروج الإنسان عن منهج ربه :

من النتائج الحتمية لاتباع الهوى بغير هدى من الله أن الإنسان الضال يظلم نفسه فيشقيها ، ويظلم مجتمعه فيفسده ويشقيه ، ويظلم البيئة فيلوثها .



قال تعالى :

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ
ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

(سورة القصص)

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى قال في محكم تنزيله :

﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾
وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى
يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ

(سورة الشعراء)

لقد عزي الخلق إلى الله ، وعزيت الهداية إلى الله ، وعزي الرزق إلى الله ، ولكن المرض عزي إلى الإنسان بسبب خروجه عن منهج الله :

﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾
وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى
يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ

(سورة الشعراء)

بل إنه ما من مصيبة تحل بالبشرية إلا بسبب خروج الإنسان عن منهج ربه ، قال تعالى :

وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾

(سورة الشورى)



علاقة المعصية بنتائجها :

الفساد يستحيل أن يكون في أصل الخلق ، بل هو طارئ من كسب الإنسان ، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة :

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

(سورة الروم)

لحكمة بالغةٍ بالغة جُعلت علاقة المعصية بنتائجها علاقةً علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، ففي كل معصية بذور نتائجها ، وهذا ما يليق بالتشريع الإلهي ؛ تشريع الخبير الذي هو في حقيقته تعليمات الصانع ، لكن هذه النتائج الوبيلة للمعاصي ليست هي كل النتائج ، بل بعضها ، فالعاصي فضلاً عن أنه يخسر الدنيا يخسر الآخرة ، وفضلاً عن أنه يعذب في الدنيا يعذب في الآخرة ، لكن عذاب الدنيا ليس بشيء إذا قيس بعذاب الآخرة ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة :

لِيُذِيقَهُم بَعْضَ

ٱلَّذِى عَمِلُوا۟

(سورة الروم)

قال : بعض الذي عملوا ، ولم يقل : كل الذي علموا ، كل هذا من أجل أن نرجع إلى الله في الوقت المناسب ، وقبل فوات الأوان ، قال تعالى :

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

(سورة السجدة)



هناك باعثان وراء كل أعمال الإنسان :

أيها الأخوة في كل مكان ، آية أخرى قال تعالى :

فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠

(سورة القصص)

هناك باعثان وراء كل أعمال الإنسان ؛ باعث العقل أو باعث الشهوة ، باعث المبدأ أو باعث الحاجة ، باعث الآخرة أو باعث الدنيا ، باعث إرضاء الله تعالى أو باعث إرضاء الذات ، باعث الخير أو باعث الشر ، هذه الثنائية في البواعث ليس لها ثالث ، لذلك قال تعالى ــ ودققوا في هذه الآية ــ :

فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠

(سورة القصص)

حكماً ، وقال أيضاً :

وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠

(سورة القصص)



انهيار المجتمعات وشقاء البشرية يتأتى من اتباع الهوى بغير هدى من الله :

يُفْهَم من معاني الآية السابقة أنه من اتبع هواه وفق هدى الله ومنهجه وشرعه فلا شيء عليه ، فمن أراد أن يقضي وطره من الجنس الآخر تزوج ، لأن الزواج كما قال عليه الصلاة والسلام :

((**أغض للبصر وأحصن للفرج**)) .

[رواه البخاري عن علقمة]

فلا شيء عليه ، إنه اتبع هواه وفق هدى الله وشرعه ، ومن أراد أن يحوز المال الذي زين للناس تملكه فسلك في كسبه الطرق المشروعة فلا شيء عليه ، لأنه اتبع الهوى وفق هدى الله ومنهجه وشرعه ، لكن انهيار المجتمعات وشقاء البشرية يتأتى من اتباع الهوى بغير هدى من الله .

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، حينما يصبح الهوى هدفاً يسعى إليه الإنسان فلا بد أن عدواناً على الآخرين يقع بسببه ، يقع على حقوقهم ، وعلى أموالهم ، وعلى أعراضهم ، وهذا من أشد أنواع الظلم ، قال تعالى بعد أن قال :﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ** ﴾ ، قال :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

(سورة القصص)

ثمن الجنة مخالفة الهوى :

الإنسان بين هدفين متعاكسين في الاتجاه ، فكلما اقترب من أحدهما ابتعد حكماً عن الآخر ، فإذا اقترب من الهوى ابتعد عن سبيل الله ، وإذا اقترب من سبيل الله ابتعد عن الهوى ،



قال تعالى :

وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

(سورة ص)

بل إن الجنة التي خلق الإنسان لها والتي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، إن هذه الجنة التي لا تعلم ما أخفي لها من قرة أعين فيها ، إن هذه الجنة ثمنها مخالفة الهوى ، قال تعالى :

﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

(سورة النازعات)

هذا الإنسان أعقد آلة في الكون ، هو المخلوق الأول ، هو المخلوق المكرم ، هو المخلوق المكلف ، في خلاياه ، وأنسجته ، وأعضائه ، وأجهزته من التعقيد والدقة والإتقان ما يعجز عن فهم بنيتها وطريقة عملها أعلم علماء الطب ، وفي هذا الإنسان نفس تختلج فيها المشاعر والعواطف ، وتصطرع فيها الشهوات ، والقيم ، والحاجات ، والمبادئ ، حيث يعجز عن إدراك خصائصها أعلم علماء النفس ، وفي هذا الإنسان عقل فيه من المبادئ والمسلمات ، والقوى الإدراكية والتحليلية والإبداعية ما أهَّله ليكون سيد المخلوقات .

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم فلما انحرف عن منهج ربه رددناه إلى أسفل سافلين :

لقد خص الله عز وجل الإنسان بأجهزة دفاع بالغة الدقة ، أولى هذه الأجهزة : الجلد ، وهو درع سابغة على البدن ترد عنه الجراثيم والأخطار ، وهو خط الدفاع الأول ، وخص المولى عز وجل كل عضوٍ ، وكل جهازٍ ، وكل حاسةٍ بجهاز دفاع خاص به ، فللعين مثلاً الأهداب والأجفان والدمع ، وهذه الأجهزة الخاصة بكل عضو وبكل جهاز هي خط الدفاع الثاني ، وأما خط الدفاع الثالث هو الدم وجنوده ، كريات الدم البيضاء ، وعددها خمسة وعشرون مليون كرية



في أيام السلم ، ويتضاعف هذا العدد في أيام الاستنفار ، وقد يصل إلى مئات الملايين في حال القتال ، في فترة زمنية لا تتجاوز الساعات والأيام .

لهذه الجيوش الجرارة من الكريات البيضاء سلاح إشارة مؤلف من بضع مواد كيماوية ، يُعد هذا السلاح وسيلة التفاهم فيما بينها ، أما خطة جهاز المناعة في الدفاع عن الجسم فهي من الدقة والتنسيق والفعالية حيث يصعب تصديقها ، ذكية جداً خلايا الدم البيضاء ــ كما يقول بعض العلماء ــ سواء في نظام عملها ، أو في توزيع الأدوار القتالية على أفرادها ، أو في تحقيق المهمات المنوطة بها ، فبعد ثوان معدودات من اجتياز أي جسم غريب لخطوط الدفاع الأولى والثانية تتوجه هذه الكريات البيضاء إلى الجسم الغريب بمهمة استطلاعية فقط ، حيث تأخذ الشيفرة الكيماوية من هذا الجسم الغريب ، وتحتفظ بها ، ثم تنقلها إلى المراكز اللمفاوية مراكز تصنيع السلاح ، وهنا تنتهي مهمتها ، وفي المراكز اللمفاوية تقوم الكريات البيضاء الأخرى ؛ الكريات المحصنة الصانعة بتفكيك رموز هذه الشيفوة تمهيداً لصنع المصل المضاد ، وهذه الكريات البيضاء اسمها الكريات المصنعة المحصنة ، وبعد صنع المصل المضاد تنتهي مهمتها ، ثم تأتي الكريات المقاتلة ، وتحمل هذا المصل المضاد والسلاح الفعال وتتوجه به لتهاجم الجسم الغريب ، وتنشب المعركة بين هذه الكريات المقاتلة وهذا العدو المهاجم إلى أن تصرعه ، وعندئذ تنتهي مهمتها ، ثم تأتي الكريات اللاقمة لتنظف ساحة المعركة من جثث الأعداء .

كريات مستطلعة ، وكريات مصنعة ، وكريات مقاتلة ، وكريات منظفة ، وهذه الكرية لا يزيد قطرها عن خمسة عشر مكروناً وفي الميليمتر المكعب هناك سبعة آلاف كرية.

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ

(سورة التين)

لكن الإنسان حينما ينحرف عن منهج ربه ، ويستجيب لنداء غريزته من دون ضابط من شرع ، أو رادع من فطرة ، أو زاجر من عقل يبطل عمل هذا الجهاز ، ويموت الإنسان لأدنى سبب ، وما مرض نقص المناعة المكتسب بالإثم ــ الإيدز ــ إلا تأكيد لهذه الحقيقة ، ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ فلما انحرف عن منهج ربه رددناه إلى أسفل سافلين .



من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام :

لو نظرت إلى شاب مصاب بهذا المرض الخطير ، مرض نقص المناعة المكتسب بالآثام :

لرأيته صار إلى فتـــــىً هــــزيل الجـــســـم منجرد
متلجلج الألفاظ مضطرب متواصل الأنفـــــاس مطّرد
عيناه عالقتان في نفـــــق كســـراج كـــوخ نصف متقد
تهتز أنمله فتحسبهـــــــا ورق الخريف أصيب بالبرد
ويمج أحياناً دماً فعلـــــى منديله قطع مـــــن الكبــــد
قطع تقول له : تموت غداً وإذا ترق تقـــول بعد غــــد

* * *

الموت الزؤام هو المصير المحتوم لكل مسرف مصاب بهذا المرض :

مات الفتى فأقيم في جدث مستوحش الإرجاء منفرد
كتبوا على حجراته بـــدم سطر به عظة لذي رشد
هذا قتيل هوى ببنت هوىً فـــإذا مررت بأختها فحد

أيها الأخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام ، من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام ما رواه ابن ماجه والبيهقي واللفظ له عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((**يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم**)) .

[ابن ماجه والبيهقي واللفظ له عن ابن عمر رضي الله عنهما]

هذا الحديث الشريف من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم :

((**ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم يأخذ بعض ما في أيديهم**)) .

[رواه ابن ماجه والحاكم في المستدرك وقال هذا حديث صحيح الإسناد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]



أوامر الدين ضمان لسلامتنا وليست قيوداً لحريتنا :

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، لقد عمَّ العالم مرض وبائي معد سببه فيروس لم يكن معروفاً من قبل ، وبحسب إحصائيات منظمة الصحة العالمية قبل ستة أشهر هناك أربعة وثلاثون مليون مصاب في العالم ، لكن هناك خبراء يؤكدون أن العدد الحقيقي قد يكون ضعف هذا العدد أو أكثر ، ومما يزيد الحالة سوءاً عجز العالم بكل مؤسساته وهيئاته العلمية وإمكاناته المالية عن صنع لقاح مضاد لهذا المرض ، إن هذا الفيروس لا ينتشر في أكثر حالاته إلا من خلال الإباحية ، والفوضى الجنسية ، والإدمان على المخدرات ، ومن خلال انتشار السياحة من أجل الجنس ، أي إنه ــ وهذه حكمة الخالق ــ مرتبط بالسلوك الشخصي ، في الدرجة الأولى ، وهناك مفارقة حادة يختص بها هذا الوباء ، فبينما نجد أن معالجته مستعصية إلى درجة الاستحالة فالموت الزؤام مصير كل مصاب به ، نجد في الوقت نفسه أن الوقاية منه سهلة إلى درجة أن كل إنسان لم يصب بهذا المرض يملك الوقاية التامة من خلال التزامه بالمنهج الإلهي من حيث العفة والاستقامة ، فكل شهوة أودعها الله بالإنسان جعل الله لها قناةً نظيفة تتحرك فيها ، وأوامر الدين ضمان لسلامتنا ، وليست قيوداً لحريتنا .

أيها الأخوة الكرام حضوراً ومستمعين ، الشيء المحير أن هذا الفيروس يستطيع أن يغير شكله في أي وقت ، فلو أنفقت ألوف الملايين في البحث العلمي عن لقاح مضاد له تذهب هذه الأموال ، أو تلك الجهود أدراج الرياح حينما يغير هذا الفيروس شكله ، فضلاً عن أن لهذا الفيروس سلالات عديدةً ، فمن نجا من سلالة أردته أخرى ، وكأن الله جل جلاله يريد من الإنسان المتفلت أن ينجو من هذا المرض بالعفة والاستقامة لا باللقاح والدواء قال تعالى :

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

(سورة الروم)



شيء آخر يقوله العلماء وهو : أنه لو افترض جدلاً ، وهذا أقرب إلى المستحيل ، أن جهود العلماء في السنوات الخمس القادمة توصلت إلى لقاح مضاد لهذا الفيروس ، فإن تكاليف معالجة المريض الواحد تزيد عن عشرة ملايين .

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

(سورة الروم)

الإيدز آية صارخة تدل على أن الله جعل هذا المرض الفتاك عقاباً على السلوك الإباحي :

أيها الأخوة الكرام حضوراً ومستمعين ، في دراسة إحصائية دقيقة أجريت في بلد تفاقم فيه انتشار هذا المرض بسبب الإباحية والفوضى الجنسية وجدوا أنه في كل عشر ثوانٍ يموت إنسان بهذا المرض ، وأُذيعت هذه الدراسة في بعض الإذاعات العالمية ، ذلك بأن هذا المرض ينتشر بمتوالية هندسية ، ويبدو أن المتوالية الهندسية لا تعبر عن حجم انتشاره ، ينبغي أن نقول : إن هذا المرض ينتشر بمتوالية انفجارية مخيفة ، وهناك دراسات إحصائية أخرى تتوقع أن يكون عدد المصابين في العالم في عام ألفين مئة وعشرين مليون مصاب ، نشر هذا في صحيفة تصدر في دمشق ، وهناك من يعتقد أن هناك مصاباً بهذا المرض وحاملاً له ، لكنه وجد أن الحامل لفيروس هذا المرض مصاب به حتماً ، لكنه لا يزال في دور الحضانة ، وأما أعراضه المرعبة ففي طريقها إلى الظهور ، فلا معنى للتفريق بين المصاب والحامل لأن الفرق بينهما فرق وقت لا فرق نوع .

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام ، من المفارقات الحادة أن العالم كله ، ولاسيما الدول المتقدمة بمقياس العصر المادي ، العالم كله بكل إمكانياته المادية والعلمية يقف عاجزاً مكتوف اليدين أمام أضعف فيروس حتى الآن ، يفتك بالملايين الذين انحرفوا بأخلاقهم عن المنهج القويم ، وكأن هذا الفيروس جند من جنود الله ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، جعله الله عقاباً عاجلاً لمن خرج عن الفطرة السليمة فضلّ وأضل ، وفسّد وأفسد ، إذ لا سبيل إلى الخلاص منه إلا بالعودة إلى المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، ومما يؤكد ذلك وهذا ما حير العلماء أن



البعوضة تغرس خرطومها في جسم مصاب بهذا المرض ، وتأخذ من دمه الملوث ، ثم تنتقل إلى إنسان سليم من هذا الفيروس ، وتغرس خرطو مها في دمه النظيف ويختلط دم السليم بدم المصاب ، ولا ينتقل المرض ، أليست هذه آية صارخة تدل على أن الله جل جلاله جعل هذا المرض الفتاك عقاباً على السلوك الإباحي ليس غير ، ولم يجعل الإصابة به عشوائية .

درهم وقاية خير من قنطار علاج :

أيها الأخوة الكرام ، لو أن بلدةً تشرب ماءً ملوثاً ، فظهر في أبنائها الأمراض والأوبئة فهل من العقل والحكمة أن ندع الماء الملوث يفتك بأبناء هذه البلدة ، ثم نبحث عن المصل المضاد واللقاح الشافي ، وأن نستقدم الأطباء ، ونشيد المشافي ، ونستورد الأجهزة ، أم العقل والحكمة يقتضي أن نوقف الماء الملوث ، أو أن نطهره من التلوث ، وعندها نطوق المشكلة ونحد من انتشارها ، ثم نلتفت إلى معالجة المصابين .

أيها الأخوة الكرام ، من المؤسف أن هذا ما لا يجري في العالم كله ، إنهم لا يقفون في وجه أسباب المرض ، بل يحاولون أن يمنعوا أعراضه ونتائجه ، إن درهم وقاية خير من قنطار علاج .

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

(سورة الجاثية)

الشاب الذي يبحث عن عمل ، ثم يبحث عن زوجة ، هو في الظاهر يبحث عن كفايته ، ويقضي حاجته ، وهو في الحقيقة يسهم في بناء أمته ، لأن الأسرة النظيفة المتماسكة هي الخلية الأولى في جسم المجتمع السوي المتقدم ، والشاب الذي يهمل عمله ، ويقضي وطره من طرق غير مشروعة ، ومع فتيات ساقطات ، يسهم من حيث يريد أو لا يريد ، من حيث يعلم أو لا يعلم في تدمير نفسه ، وأسرته ، ومجتمعه ، وهل الأمة إلا بشبابها الأصحاء الأقوياء المستقيمين وشاباتها .



يا بنات الجيل هيـــــا حصنوا هذا البناء
احفظوا جيل الشـــباب أرشدوهم للصواب
فهم النبع الغزيـــــــر ولك عذب الشراب
حصنوا كل الشبـــاب لينيروا كالبــــدور
يسروا أمر الــزواج لا تغالوا بالمـــهــور
واحذروا داء التباهي بالأثاث و القصـــور
إنما نبع السعـــــادة كامن ضمن الصدور

* * *

احذروا الفيروس فهو الآن جمر يختفي تحت الرمــــــاد
إن تجاهلنا الحقيقة فاجأتنا النار يوماً واكتوى كل العباد
بددوا الجهل بعلـــــــــم أيقظوا أهل الرقـــــــــــاد
توجوا العلم بطـــــــهر صادق فهو العمــــــــــاد
هاهو الفيروس يغتـــــال الضحايا قاصداً كل البــلاد
وهو أعمى عن شبـــاب طاهر يأبى الفســـــــــــاد

* * *

إنما العفة ماء بارد عذب زلال ، يطفئ الجمر ، ويروي كل من طلب الحلال .

لكن أيها الأخوة ينبغي أن ننوه أنه بفضل الله علينا ، وبســبب تمسك مجتمعنا بمبادئ دينه القويم ، فإن هذا المرض الخطير الذي يعد الخطر الأول في العالم كله لا يعد مشكلة في بلدنا الطيب ، فالإصابات لا تزيد عن مئة أو أكثر بقليل ، وأكثر هذه الإصابات من الوافدين من بلاد أجنبية ، وهناك إجراءات حازمة تحد من انتشاره :

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(سورة طه)

وقال :

فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

(سورة البقرة)

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه ولا يندم على ما فات ولا يخشى مما هو آت .



2 - الدخان

التبغ أيها الإخوة يتكون من ثلاثمائة مادة تختلف بحسب نوع التبغ أما السم الأساسي النيكوتين ، هذا السم يُعد من أهم مكونات التبغ .

لو أننا حقنا كلباً بواحد على عشرة من الغرام لمات فوراً .

لو أن قطرة من هذا السم حُقنت في دم الإنسان لمات فوراً .

لو أن أربع قطرات حقنت في وريد حصان لمات بعد أربع دقائق .

هذا سم خطير .

هناك سم آخر في الدخان ، يحتوي على مائتي ضعف مما تسمح به منظمات الصحة والهيئات الصحية في موضوع الغذاء .

هناك سم آخر متعلق بكريات الدم الحمراء ، هذا السم يتحد مع كريات الدم الحمراء فيعيق تبادل الأكسجين مع غاز الفحم ، وهذا الذي يتعب المدخن .

أيها الإخوة الكرام ، قبل الحديث عن الحكم الشرعي وسآتي عليه بعد قليل ، ولكن أضع بين أيديكم هذه الحقائق العلمية المقطوع بها ، والتي هي منشرة في كل بقاع العالم .

في الدخان غاز أو غازان سامان ، هذان الغازان مسرطنان ، وفي هذين الغازين أيضاً فحوم مسرطنة أيضاً ، هذا البحث العلمي مأخوذ من أوثق المصادر الرصينة ، هناك كلام لإعلام وكلام للاستهلاك ، وهناك بحوث علمية رصينة منها أُخذ هذا الموضوع .

أيها الإخوة الكرام ، إحصاء رسمي في أمريكا ، هناك ألف وفاة كل يوم بسبب الدخان . بينما هذا العدد يزيد سبعة أضعاف عن الذين يموتون في حوادث السير مع أن أعلى نسبة يموت فيها الناس في حوادث السير ، والدخان تزيد نسبة الوفيات بسببه عن حوادث السير بسبعة أضعاف .

تقول منظمة الصحة العالمية : إن التدخين يُعد سبباً حتمياً لأمراض مميتة ، كلام دقيق واضح كالشمس .

وهناك من يتوهم أن هناك دخان مصفى ودخان غير مصفى ، الدخان المصفى عن طريق الفلتر ، الحقيقة العلمية الصارخة أن الفلتر يمنع دخول القطران إلى الرئتين ، بينما كل السموم التي في الدخان تنتقل عبر الفلتر ، فهذا الوهم أن هناك دخاناً مفلترًا هذا وهم لا يقوم على حقيقة إطلاقاً .



أخطر ما في الدخان أن أضرار الدخان لا تنحصر في المدخن نفسه ، بل تنتقل إلى من حوله ، من زوجة وأولاد وزملاء في العمل ، فإذا كنت جالساً في غر فة أربع ساعات فيها مدخن فكأنما دخنت عشر سيجارات هذا اسمه المدخن السلبي ، هو لا يدخن لكن يجالس مدخناً ، فهذا الذي يدخن ويستمتع بحسب عقليته بفوائد الدخان يؤذي غيره وهو لا يدري .

أيها الإخوة الكرام ، حتى يكون الموضوع علمياً ، هناك حالات نادرة جداً ، إنسان يدخن ولا يصاب بشيء ، هذه الحالات النادرة هل بإمكانك أن تتأكد أنك أحدها طبيب لامع جداً ، له أب تجاوز الثمانين ، وهو يدخن ، ولم يصب بأذى توهم هذا الطبيب من خلال هذه التجربة التي أمامه أن الدخان لا يؤذيه فأفرط في الدخان ، وفي الثانية والخمسين أصيب بأمراض عضال في قلبه وأوعيته ، فلما عاد من أمريكا وقد أجرى عملية زرع الشرايين والدسامات سُئل كيف تدخن وأنت الطبيب اللامع ؟ فقال من خلال والدي تيقنت أن الدخان لا يضر .. هل أنت متأكد أنك أحد هذه الحالات النادرة التي لا يؤثر بها ؟

الحقيقة الثابتة أيها الإخوة أنه لا الطبيب ولا المدخن يستطيع أن يتنبأ بأنه سينجو من أخطار التدخين ، وأقول لكم مرة ثانية حالات نادرة ، يعني إذا من حولك من يدخن ولم يصب بشيء فهذه حالات نادرة لا يُقاس عليها ، لها عدة تأويلات معقدة جداً .

شيء آخر لا ترونه في هذه الأيام ، هو أن السعوط ومضغ أوراق الدخان له مفعول التدخين نفسه .

لو أردنا أن نستعرض أجهزة الجسم واحدة واحدةً .

جهاز التنفس :

ما علاقته بالدخان ، قال العلماء إن أشد الأجهزة تأثراً بالتدخين هو جهاز التنفس ، لأن جهاز التنفس كعنقود العنب ، كل حبة هي حويصل رئوي ، الحويصل فراغ ، تتم في هذا الفراغ مبادلة غاز الفحم بالأكسجين هذه المبادلة الحيوية الأساسية جداً تتم في الحويصلات الرئة ماذا يفعل التدخين في هذه الحويصلات ؟

التدخين يخرب الأنسجة المبطنة للأسناخ الرئوية .

وفي القصبة الهوائية أهداب مزروعة في كل جدرانها ، هذه الأهداب تتحرك نحو الأعلى دائماً لطرد أية مادة غريبة ، مادة إنتانية مادة التهابية قشع أشياء كثيرة ، هذه الأهداب تدفعها نحو الأعلى دائماً ، سم النيكوتين يشل عمل هذه الأهداب ، لذلك تجتمع هذه القطوع ، هذه الإنتانات هذه المخلفات في القصبة الهوائية وتتخذها موطناً .



لماذا اتخذت هذه القطوع ، وهذه الإنتانات القصبة الهوائية موطناً ؟ لأن جهاز الطرد نحو الأعلى مُعطل .

المدخن معرض أكثر من غيره بالإصابة بمرض ذات القصبات وذات الرئة ، ومرض انتفاخ الرئة ، وهناك علاقة إيجابية جداً بين التدخين وبين الإصابة بسرطان الرئة .

الإحصائيةُ العلمية الدقيقة أنه من خلال ألف مدخن ستين شخص يُصاب بسرطان الرئة ، من بين ألف غير مدخن شخصان فقط يُصابان بسرطان الرئة .

مرة ثانية إحصاءات علمية رصينة تمت في أرقى الجامعات ، ألف رجل مدخن فيهم ستين إنسان مصاب بسرطان الرئة ، وألف رجل غير مدخن فيهم رجلان فقط مصابان بسرطان الرئة ، فالعلاقة إيجابية بين التدخين وبين سرطان الرئة .

قال بعض العلماء : سموم الدخان تسبب طفرات في الخلية ، والطفرة في الخلية تسبب التخرش وهو أحد أسباب سرطان الأنسجة ، هذا في جهاز التنفس ، فماذا عن جهاز القلب .

إن معظم الإصابات القلبية والوعائية القاتلة معظمها يعود إلى التدخين.

أخ كريم يعمل جراحاً للقلب ، أقسم لي أنه في خمس سنوات من عمله الجراحي في هذا البلد الطيب ما أجرى عملية قلب مفتوح إلا لمدخن تمنى أن يجري عملية واحدة لإنسان غير مدخن ، في خمس سنوات تقريباً في الأسبوع عمليتان أو أكثر أو أربع عمليات كل هؤلاء المصابون بقلوبهم وشرايينهم وأوعيتهم ودساماتهم ، إنما هم مدخنون من الطراز الأول.

طبيب آخر يعالج الأنف والأذن والحنجرة ، من باب الطرفة حينما يأتيه إنسان مصاب بسرطان الحنجرة إلا ويضع يده فجأة على صدره فإذا فيها علبة دخان ، يقول هذا السرطان من هذه العلبة .

السبب الأول لهذه الأمراض العضالة أن سم النيكوتين يتحد مع خضاب الدم ، فيمنع أخطر وظيفة حيوية وهي تبادل الأكسجين بغاز الفحم .

أيها الإخوة الكرام ، حقيقة خطيرة جداً وهي ، أن الإنسان ربنا جل جلاله تكريماً لهذا الإنسان وحفظاً له جهزه بآليات بالغة التعقيد في حفظه من الأخطار فلو أن أحدنا شاهد شيئاً مخيفاً أفعى مثلاً ، ماذا يحدث ؟ صورة الأفعى تنطبع على شبكية العين إحساساً ، وشبكية العين تنقلها إلى الدماغ إدراكاً والدماغ ملك الجهاز العصبي يخاطب ملكة الجهاز الهرموني الغدة النخامية عن طريق ضابط اتصال هو الجسم تحت السرير البصري هذه الغدة النخامية تتلقى أمراً من الدماغ بالتصرف ، هي ملكة وعندها عناصر فعالة ، ترسل هذه الغدة النخامية



أمراً إلى الكظرين بإفراز خمس هرمونات ، الأول يسرع القلب ، والثاني يزيد وجيب الرئتين ، والثالث يضيق الأوعية والشرايين من أجل أن يتوفر الدم إلى العضلات لا إلى الجلد ، أو يضيق الأوعية المحيطية في الجسم ، والرابع يزيد سكر الدم والخامس يزيد هرمون التجلط . يعني الخائف قلبه مضطرب ويلهث وأصفر اللون وفي دمه سكر زائد وفيه هرمون التجلط ، هذه الآلية سم النيكوتين يفعل الآلية نفسها فالمدخن دائماً ؛ تسرع في قلبه ، وجيب رئتيه أعلى ، وضيق في شرايين المحيطية يبدوا أصفر اللون ، وفي دمه هرمون التجلط ، فهو معرض أكثر من غيره بثمانية أضعاف بالجلطة في القلب ، هذه حقيقة مسلم بها .

أيها الإخوة الكرام ، أحد أسباب مرض الموات الغرغرين ، هو الدخان ، لأن الدخان يرفع نسبة اللزوجة في الدم ، فإذا ارتفعت نسبة اللزوجة صار من الصعب أن يسلك في أدق الشرايين ، عندئذ تصاب أطرافه السفلية والعلوية بالموات لا تأتيها التروية ، تموت الخلايا فيصاب المدخن بمرض الموات والاسم الاصطلاحي بمرض الغرغرين .

أيها الإخوة الكرام ، الدخان يسبب مرضاً نادراً اسمه التهاب الأوعية الانسدادي ، الأوعية حينما تلتهب أو بعض الأوعية حينما تلتهب تسد لمعتها ، وانسداد هذه اللمعة ينشأ مرض الموات أيضاً .

وهناك مرض يصيب المدخنين ، وهو زرقة الجلد ، واحمرار اليدين ، وهذا من أمراض التدخين .

أيها الإخوة الكرام ، الدماغ البشري هو أنبل عضو في الإنسان فيه مائة وأربعين مليار خلية لم تُعرف وظيفتها بعد ، وفيه أربعة عشر مليار خلية قشرية ، هذا العضو النبيل الذي عجز عن فهم نفسه ، هذا العضو النبيل هو أعقد ما في الكون على الإطلاق ، لقد كُرم الإنسان به ، ماذا يفعل التدخين به ؟

سموم التدخين المنحلة في الدم إذا وصلت إلى الدماغ يتلقفها الدماغ بسهولة فائقة وبنهم كبير ، هذا الدماغ حينما يأتيه هذا السم الإنسان يشعر بشيء من الخدر ، بشيء من الفتور ، هذا النيكوتين المنحل في الدم والذي يصل إلى الدماغ يعطي الإنسان شعوراً بالهدوء تارةً وشعوراً باليقظة تارةً أخرى ، فالدخان مهدئ ومنشط في آن واحد وهذا هو سر الإدمان .

أيها الإخوة الكرام ، هذا السم في الدماغ يضعف تروية الأعصا ب ، وحينما يضعف تروية الأعصاب تصاب الأعصاب بالالتهاب ، يكون تأثير هذا السم في الأعصاب رجفان في



الأضلاع ، فالمدخن ترجف يديه ورجليه ، هذا الرجفان بسبب أن أعصاب الدماغ التهبت ، والتهابها بسبب ضعف ترويتها .

أيها الإخوة الكرام ، حاسة الذوق تضعف عند المدخنين .

صداع وآلام عصبية في الأطراف .

الدخان يضعف الذاكرة ، المدخن كثيرة النسيان .

فتور النشاط العقلي ، غير المدخن أذكى من المدخن ، وأسرع استجابة من المدخن .

دراسة علمية شملت ستة آلاف وثمانمائة حالة ، هناك علاقة واضحة جداً بين الدخان وبين ضعف الذكاء ، ضيق أوعية الدماغ تؤدي إلى التهاب أعصاب الدماغ .

هذا عن الدماغ ، وقبلها عن جهاز التنفس ، وقبلها عن القلب وعن الأوعية ، فماذا عن العيون .

الدخان أيها الإخوة يسبب التهاباً في الملتحمة ، وجفافاً في بالأجفان ويصيب العصب البصري بالالتهاب ، ويسبب نقص فيتامين 12 هذا التدخين يتلفه الدخان ، وأما في جهاز الهضم .. دققوا الآن :

إن تسعين بالمئة من سرطان الشفة تصيب المدخنين ، تقرحات اللثة واللسان والتهاب الغدد اللعابية ، وتضخم هذه الغدد وتلوثها كله بسبب التدخين ، تكثر عند المدخنين سرطانات اللسان والمريء وعسر البلع أحياناً ، بل إن الدخان يؤدي إلى تسمم الخلية الكبدية ، وقصور الكبد أو تشمعه ثم سرطان الكبد ، هذا كله من الدخان .

وأما **الجهاز التناسلي** :

فالدخان أحد أكبر أسباب إصابة الرجل في الضعف الجنسي ، وتشوه النطف ، يؤدي إلى العقم عند الرجال والعقم عند النساء ، وينفر العلاقة بين الزوجين ، وأكثر حالات الإجهاض والإملاص (أن يولد الجنين ميتاً) بسبب الدخان ، والولادة قبل الأوان بسبب الدخان ، ونقص الوزن بسبب الدخان ، وكثرة وفاة الرضع بسبب خان أمه طبعاً ، التشوهات الخلقية والوفاة في المهد ، وربو الأطفال ، والصمم كله يعزى إلى دخان الأم إلى الأم المدخنة .

أما الشيء الذي لا يصدق أن هذا السم القاتل يشربه الطفل المولود حديثاً مع حليب أمه ، فحليب الأم فيه هذا السم القاتل ، لذلك من أعراض الطفل الذي يرضع من أم مدخنة ؛ إقياءاته المتكررة ، وتشنجاته وتسرع في قلب الوليد ، وكثافة سموم الدخان في ثدي المرأة يؤدي إلى تخرش الثدي ، وهذا التخرش يؤدي إلى سرطان الثدي .



هذا كله عن الجهاز التناسلي ، وعن الأم المدخنة ، وعن أثر الدخان في الرضيع ، وعن أثر الدخان في جهاز الهضم وعن أثر الدخان في العيون وفي الدماغ وفي القلب وفي جهاز التنفس .

أيها الإخوة الكرام ، العالم الإسلامي عرف التدخين منذ عدة قرون ، وأول ما ظهر التدخين في أمريكا في جزيرة معينة ، ونقله السفير الفرنسي إلى بلاده من عدة قرون ، وبعدها انتشر الدخان في العالم ولاسيما في العالم الإسلامي ، هذا نبذة عن تاريخ الدخان .

العلماء المسلمون السابقون لضعف معرفتهم في مضار التدخين وقعوا في فتاوى متضاربة ، فالعلامة ابن عابدين صاحب حاشية ابن عابدين الشهيرة وهي أوسع مرجع في الفقه الحنفي ، يقول هذا العالم في حديثه عن التتن ، يقول : منهم من قال بحرمته ، ومنهم من قال بكراهته ، ومنهم من قال بإباحته لأن أضراره لم تكن واضحة ، والأصل في الأشياء الإباحة ، فإذا كان عالم قديم أباح الدخان ، وغيره أيضاً أباح الدخان لا ينبغي أن تلوموه كثيراً ، لم يكن عنده حقائق عن الدخان كهذه التي بين أيدينا اليوم .

الشيء الثاني هناك قاعدة أساسية ، أن الأصل في الأشياء الإباحة والتحريم يحتاج إلى نص ، أما في العبادات الأصل فيها الحظر والإيجاب يحتاج إلى نص .

لم يكن هناك حقائق دقيقة جداً بين أيدي العلماء لذلك وقعوا في هذا الاضطراب ، أما بعد أن استعرض هذا الكم الكبير من أخطار التدخين فلا مجال أبداً للحديث عن إباحته ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام أسله الله لأمته ليحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث .

هل من عاقل واحد يمسك دخينة ويشربها بمصطلح المدخنين وقبل أن يشربها يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعد أن يشربها يقول : الحمد لله ، اللهم زدنا من هذه النعم ، هذا مستحيل ، هذا دليل فطري ، الدخان خبيث.



يقول الله عز وجل :

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

[سورة آل عمران]

ثمة حقيقة خطيرة هي : إن مائة شخص يشربون الخمر ، خمسة عشر مهم يدمنون على الخمر طوال حياتهم ، نسبة الإدمان بين شراب الخمر خمسة عشر بالمائة ، أما لو أن مئة رجل يشربون الدخان ، خمسة وثمانون بالمئة ممن يشربون الدخان يصابون بالإدمان على الدخان طوال حياتهم ، فنسبة الإدمان في الدخان أعلى من نسبة الإدمان في الخمر .

أيها الإخوة الكرام ، إحصائية دقيقة في أمريكا أن ضحايا التدخين في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ثلاثمئة وخمسون ألف شخص سنويا ، هؤلاء كل ألف يموتون في اليوم الواحد ، ثلاثمئة وخمسون ألف إنسان يموتون بسبب التدخين كل عام ، وخمسون ألفاً من هؤلاء من المدخنين السلبيين الذين لا يدخنون ، لكن آباؤهم يدخنون ، أو أن أمهاتهم يدخنَّ ، أو أن زملائهم بالعمل يدخنون .

مجموع الذين يموتون بسبب التدخين في دولة واحدة بالغرب أربعمئة ألف إنسان ، بواقع ألف وزيادة كل يوم .

قبل عام كان هناك أسبوع في بلدنا الطيب في مكافحة التدخين ، ذكر وزير الصحة أنه تلقى اتصالاً هاتفياً من عالم صديق له في أمريكا يؤكد له أن كل الدخان المستورد أو المهرب من أمريكا فيه عشرة أضعاف السموم التي تصنع هناك لشعوب الغرب ، يعني أنه دخان رديء جداً ، نسب سموم الدخان عالية جداً إلى درجة عشرة أضعاف ، أذاع وزير الصحة هذا الكلام في جهاز الإعلام رسمياً ، قال تلقيت اتصالاً هاتفياً من صديق لي أخبرني بهذه الحقيقة ،



العلبة نفسها ، والعلامة التجارية نفسها السعر نفسه ، إلا أن الدخان الذي يُصدر إلى بلاد الشرق الأوسط دخان من الدرجة العاشرة .

رجل حدثني هذه القصة ، أضعها بين أيديكم ، له قريب يعمل في معمل أدوية كبير جداً في بلد غربي ، طبخة غالية جداً كان فيها خطأ في تركيب الطبخة ، فالدواء لا يصلح للاستعمال البشري ، ماذا قال المدير التجاري لهذا المعمل ؟ قال : نبيع هذه الطبخة لبلاد أخرى ، فيجب أن نكون صاحين أيها الإخوة ، يجب أن نهتم بصحتنا ، صحتنا قوام حياتنا بعد إيماننا طبعاً .

أيها الإخوة هناك عالم من علماء مصر ذهب بنفسه إلى أمريكا ، قبل أن يكتب أراد أن يكون شاهد عيان ، بلغه أن أوراق التبغ تُنقع في الخمر فإذا قيل في إعلانات هذا الدخان تعال إلى حيث النكهة ، هي نكهة الخمر الذي نقع فيها الدخان ، هذا العالم ذهب إلى أمريكان ورأى بأم عينه كيف أن أوراق التبغ تُنقع في الخمر ، وعاد وألف كتاباً عرض في مكتبة الأسد ، واشتريته ، واقتنيته ، وقرأته ، والكتاب عندي ، عالم إسلامي موثوق ، شاهد عيان رأى بأم عينه كيف أن أوراق التبغ تُنقع في الخمر هناك .

أيها الإخوة الكرام ، دراسة في بريطانيا ، أجريت على ثلاثة وثمانين رجلا تؤكد أن ثلاثة أشخاص من كل عشرة أشخاص سيلاقون حتفهم بسبب أمراض ناتجة عن التدخين ، أما الباقون فسيعانون من أمراض مزمنة لها علاقة بالتدخين .

إنّ الحرائق الناتجة من أعقاب السجائر يفوق كل أرباح الشركات والضرائب التي تُحصل من هذه الصناعة .

مرة في بلادنا الجميلة في غاباتها الجميلة ، إنسان ألقى عقب سيجارة فأحرق مئتين وخمسين هكتارًا من الغابات الخضراء بسبب عقب سيجارة واحد .

أيها الإخوة ، الآن هذا الوهم عند بعض المدخنين ، أنا ما فيني شيء ، أجري وأركض وأتمتع بصحة وفيرة وأدخن ، في شيء دقيق جداً هو أن أخطار الدخان تتراكم في البدن ، دون أن تظهر إلا بعد إجراء فحوص دقيقة ، فالإنسان يتوهم أنه خالٍ من كل مرض ، لكن آثار الدخان تتراكم ، هناك خط أحمر ، فإذا بلغ هذا التراكم الخط الأحمر ظهرت هذه الأعراض فجأةً .

أيها الإخوة ، هذا يُسمى انكسار خط المقاومة ، خط المقاومة خط أحمر ، حينما تتراكم أخطار الدخان ، وتصل إليه ينكسر هذا الخط فتظهر الأعراض فجأةً ، يعني أنت أحياناً في الميزان تضع في الكفة عشر يكلوا ، وفي الكفة الثانية تضع كيلو ، أو اثنين ، أو ثلاثة ، أو



أربعة ، والكفة راجحة ، فجأة عندما يصبح الوزن المقابل عشرة كيلو تتحرك الكفة ، ما الذي حركها ؟ هذه القشة الأخيرة ، آخر غرام ، لا الذي حركها التراكم السابق مضاف إليه هذه القشة الأخيرة ، هذه القشة التي وقع منها البعير .

يقول أحد العلماء الأجانب : شركات التبغ هي شركات القتل ، أو شركات تتجر بالموت ، هناك رجل وسيم جداً ، تتخذه شركات الإعلان للإعلان عن الدخان ، يرتدي ثياب رعاة البقر ويضع قبعةً على رأسه ويدعوك إلى الدخان ، هذا وهو على فراش الموت مات في سن الشباب قال كنت أكذب عليكم ، الدخان قتلني ، لا تكن ضحية الكذب ، لا تكن ضحية إعلان رخيص ، لا تكن ضحية شركة تبحث عن الربح ، ولا تعبأ بصحة الآخرين ، ربنا عز وجل يقول :

وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

الذي يدخن يلقي بنفسه إلى التهلكة :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا

[سورة النساء آية 29]

الإسلام حرم الانتحار ، والتدخين يصفه العلماء بأنه انتحار بطيء هناك انتحار سريع ، أن تطعن نفسك بسكين في مكان قاتل ، هذا انتحار مفاجئ ، والانتحار البطيء أن تدخن : ولا تقتلوا أنفسكم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : **((مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا))** .

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي]



بل إن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن كل مسكر ومفتر ، فعَنْ أُمِّ سَلَمَ ةَ قَالَتْ : **((نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ))** .

[رواه الإمام أحمد وأبو داود بإسناد حسن]

المدخن الفقير إذا دخن اسمه سفيه ، والغني إذا دخن اسمه مبذر قال تعالى :

إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا

[سورة الإسراء آية 27]

الأراضي الشاسعة التي تُشغل بزراعة الدخان والتبغ لو أنها زرعت بالخضراوات والفواكه أليس هذا أجدى للناس .

كبير علماء الدولة العثمانية أصدر فتوى في تحريم الدخان .

العلامة إبراهيم اللقاني أصدر فتوى في تحريمه .

الشيخ سالم السنبوري أصدر فتوى في تحريمه .

مفتي المملكة العربية السعودية أصدر فتوى في تحريمه .

الشيخ بدر الدين الحسني شيخ الشام أصدر فتوى في تحريمه .

الشيخ علي الدقر أصدر فتوى في تحريمه .

الشيخ محمد الحامد أصدر فتوى في تحريمه .

علماء كبار أصدروا فتاوى تلو الفتاوى في تحريم الدخان .

شيخ الأزهر الذي توفي رحمه الله ، الشيخ جاد الحق أيضا أصدر فتوى هذا نصها : **(أصبح واضحاً جلياً أن شرب الدخان وإن اختلفت أنواعه وطرق استعماله يلحق بالإنسان ضرراً بالغاً ، إن عاجلاً أو آجلاً في نفسه وماله ويصيبه بأمراض كثيرة ومتنوعة ، وبالتالي يكون استعماله حراماً بمقتضى النصوص التي سبق إيرادها ، ومن ثم فلا يجوز لمسلم استعماله بأي وجه من الوجوه حفاظاً على الأنفس والأموال ، وحرصاً على اجتناب الأضرار التي أوضح الطب حدوثها)** .

هذه فتوى حديثة لشيخ الأزهر وكان صالحاً فيما أعلم ولا أزكي على الله أحداً ، حينما مات مشى في جنازته مليون إنسان .

هذه الحقائق كلها مأخوذة من منظمات صحة عالمية ، أو من جامعات راقية جداً ، أو من بحوث متقدمة ، وهذه هي الحقيقة .



أيها الإخوة الكرام ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى خيرنا إلينا ، فلنتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين .

الخطبة الثانية :

أيها الإخوة الكرام ، لجنة من كبار علماء الطب في العالم الغربي قدمت تقريراً من ثلاثمائة وسبع وثمانين صفحة كبيرة ، من القطع الكبير عنوان هذا البحث الدخان والصحة ، وهذا البحث يؤكد أن هناك أخطار مدمرة وخطيرة من جراء التدخين .

مجلة صدرت في سويسرا تقول بعد إحصاء دقيق : إن شركات التبغ في العالم تُنتج دخينتين يومياً لكل إنسان على وجه الأرض ، يعني مجموع إنتاج هذه الشركات عشر بلايين دخينة كل يوم ، إن هذه الكمية التي تنتجها شركات الدخان ، فيها مواد سامة لو أخذت دفعة واحدة في الدم مباشرة لاستطاعت أن تبيد الجنس البشري ، بل إن أثرها أشد من أثر أكبر قنبلة ذرية ، لو أن المواد السامة في إنتاج المعامل ليوم واحد حُقنت في البشرية جمعاء لأبادت الجنس البشري كله .

نشرت منظمة الصحة العالمية تقريراً مطولاً في عام ألف وتسعمئة وخمسة وسبعين تقول : إن عدد الذين يلاقون حتفهم أو يعيشون حياةً تعيسة من جراء التدخين ، يفوقون عدد الذين يلاقون حتفهم نتيجة الطاعون والكولرا والجدري والسل والجذام والتيفويد والتيفوس مجتمعين والوفيات الناجمة عن التدخين هي أكثر بكثير من جميع الوفيات في العالم.

إن مجموع الدخل التي تحققه الدول الكبرى من جراء الضرائب الباهظة على إنتاج التدخين هو أقل بكثير من الأموال التي تُنفق لمعالجة الأمراض الناتجة عن التدخين مهما بلغ حجم الضرائب التي تجنيها الدول الكبرى ، إنها أقل بكثير من التي تُنفقها على الأمراض الناجمة عن التدخين .

هناك ظاهرة جديدة ، قديماً أمراض القلب وأمراض الدم والجلطة والأوعية والدسامات تصيب أناس في الستين فما فوق ، هذا السن بدأ يهبط ، الآن في حالات كثيرة أسبوعية ، جلطة في الخامسة والعشرين في الثلاثين ، في الثانية والعشرين ، مات .. بسبب الدخان ، هذه ملاحظة جديدة لم تكن من قبل ، كل مرض له سن تقريبي ، أمراض القلب والأوعية من فوق



الستين ، خمسين أربعين ثلاثين ، الآن في حالات كثيرة جداً في هذه البلدة جلطة بالخامسة والعشرين ، بالثانية والعشرين بالسابعة والعشرين كلها بسبب التدخين .

أيها الإخوة الكرم ، لا أعتقد أن مؤمناً يحرص على صحته ، لأن أشياء ثلاثة هي في الأوليات ، الهداية رقم واحد ، والصحة ثانياً ، والكفاية ثالثاً ، لا معنى للكفاية من دون صحة ، ولا معنى للصحة من دون إيمان ، فالصحة جزء أساسي من حياة المؤمن ، فإذا ثبت لدى المؤمن أن الدخان يدمر صحته ويدخن ، دعك من الحكم الشرعي أولاً ، ليس الدخان محرماً بنص خاص الدخان محرم بنص عام :

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

[سورة آل عمران]

فإذا ثبت بالدليل القطعي أن الدخان يؤذي صحة الإنسان ويدمره فكيف بمؤمن عاقل يدخن بعد هذا الحديث .

أيها الإخوة الكرام ، كل ما أرجوه وقد جعلت كل الخطبة عن الدخان ، واعذروني هناك من يتمنى أن أعالج موضوعًا إسلاميًا ، أو موضوعًا في العقيدة ، أو موضوعًا دقيقًا في الفقه ، لكنني آثرت أن أجعل هذا الموضوع كله عن الدخان كي يترك أثراً إيجابياً في نفوس المدخنين ، لا أقبل ولا أرضى أن يرتاد إنسان بيت الله وهو يدخن ، لا أرضى ولا يُعقل أن يكون إنسان مسلم مؤمن عقيدته صحيحة ، يحرص على طول حياته وعمله الصالح يحرص على كل ذلك ويدخن



الباب التاسع: موضوعات تاريخية



01 – القدس



01 – القدس

القُدس قبل الإسلام :

تُعد مدينة القدس الشريفة ، من أقدم مدن الأرض ، فقد كانت تدعى بمدينة السلام ، التي ترجع نشأتها إلى 3000ق.م ، فهي أقدم من بابل ونينوى ، سكنها اليبوسيون ، الذين نزحوا من الجزيرة العربية ، وبنوا فيها قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية ، وهي أقدم بناء في مدينة القدس ، وقد بقيت المدينة بيد (اليبوسيين) قرابة ثلاثة قرون ، بعد مجيئهم ، حتى تولَّى الحكم ملكهم (داود) واحتلها قائد جيشه (يوآب) واتخذ (أروشليم) عاصمة له ، وأطلق على الحصن (مدينة داود) التي أزدهرت في عهد خليفته سليمان ، حيث شيد الهيكل بمساعدة المعماريين الفينيقيين .

وفي سنة 576 ق.م ، فتح نبوخذ نصر المدينة ، ودمَّرها ، ونقل السكان اليهود إلى بابل، وذلك ما يُسمى بـــ (السبي البابلي) .

وعند ما استولى الفرس على سورية وفلسطين ، سمح الملك قورش لمن أراد من الأسرى اليهود بالعودة إلى (أورشليم) كما أمر بإعادة الهيكل على ما كان عليه .

وفي عام 332ق.م ، فتحها الإسكندر المقدوني ، وتأرجحت السيطرة على أروشليم في عهد خلفائه بين البطالمة ، والسلوقيين .

وفي سنة 165ق.م ، قام الملك السلوقي انطيوخوس الرابع بتدمير الهيكل ، وبإرغام اليهود على اعتناق الوثنية اليونانية ، فاندلعت ثورة المكابيين ، ونجح اليهود في نيل الاستقلال بأورشليم تحت حكم الحاسموئيين من عام 135ق.م وحتى سنة 76ق.م .

وفي عام 63ق.م دخل القائد الروماني (بومبي) أورشليم ، ومنح اليهود شيئاً من الحكم الذاتي ، ثم نصَّب هيرودس الآدومي 37ق.م ملكاً على الجليل ، وبلاد يهوذا ، حتى عام 4م، وكان قد اعتنق اليهودية .



راجع كتاب بلادنا فلسطين ، مصطفى مراد الدباغ ــ دار الطليعة ط1979/1 ــ الجزء التاسع ــ القسم الثاني .

وفي سنة 70م قام تيتوس باحتلال أورشليم ، وفتك بأهلها ، وحرق هيكلهم وبعد ذلك بنحو ستين سنة ، قامت ثورة اليهود بقيادة (باركوخبا) التي أخمدها الإمبراطور (هادريالوس) سنة 135م وخرَّب أورشليم ، وأسس مكانها مستعمرة رومانية ، وحرَّم على اليهود دخولها ، وكانت تحت اسم (إيليا كابتو لوتيا) .

ولما اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين المسيحية ، أعاد اسم أورشليم إلى المدينة ، وقامت والدته هيلانة ببناء الكنائس فيها ..

وهكذا بقيت أورشليم متمتعة بسلام طويل طيلة خمسة قرون ، منذ طرد اليهود منها عام 135م إلى سنة 614م حينما احتل الفرس بلاد الشام ودخلوا القدس .. ودخل معهم 25000ألف يهودي ، وأشعلت النيران في كنيسة القيامة ، وهدمت الأديرة ، والكنائس ، وقتل أكثر من 60ألف مسيحي

1ــ المرجع السابق

القدس في الإسلام :

القدس : أو بيت المقدس : أي المكان المُطهَّر من الذنوب ، واشتقاقه من القدس ، وهي الطهارة والبركة .

قال الله تعالى في كتابه العزيز :

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ

[سورة الإسراء آية 1]



القدس هي أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ... والمدينة المباركة الشريفة ، التي اجتمع فيها رسول الله ــ محمد صلى الله عليه وسلم بالأنبياء وصلى فيهم إماماً .
نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري 325/1 ــ وزارة الثقافة القاهرة

وكان النبي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ يستقبل القبلة نحو بيت المقدس ، ويصلي إليها حتى بلغه أن اليهود تقول : والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم ، حتى هديناهم ، فكان صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء أن تنزل آية في أمر القبلة ، فأنزل الله تعالى قوله :

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

[سورة البقرة]

وللقدس مكانة عظيمة في الإسلام ، فإليها أُسري برسول الله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومنها عرج إلى السماء .

وقد قال ــ صلى الله عليه وسلم :
" **لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، ومسجد الأقصى** . "
[رواه البخاري وغيره]

القدس بعد الفتح الإسلامي :
في السنة الحادية عشرة للهجرة ، جهز النبي ــ صلى الله عليه وسلم جيشاً ، بقيادة أسامة بن زيد ، ووافت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ المنية قبل إنفاذه ، فتولى أبو بكر



الصديق رضي الله عنه الخلافة ، وأنفذ الجيش الذي جهزه الرسول الأكرم ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأوصى الجيش بهذه الوصية الرائعة ، التي تفيض بمعان الإنسانية ، وتصور حقيقة الجهاد الإسلامي ، قال لهم :

" لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ، ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم بالصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ... اندفعوا باسم الله " .

والتقى أسامة ــ رضي الله عنه ــ بالروم في جنوبي الشام وهزمهم ثم أرسل أبو بكر جيوشه الأخرى لفتح الشام ، وكان أحدها بقيادة عمرو بن العاص ، الذي كُلف بفتح فلسطين.

وبعد ذلك بسنتين ، أي في 13للهجرة ، سقطت غزة ، وغيرها من مدن فلسطين ، وبقيت القدس صامدة في وجه عمرو بن العاص ، فتولى حصارها أبو عبيدة الجرَّاح .. ثم وافق سكان القدس على تسليمها للمسلمين على يد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. فسار عمر رضي الله عنه ومعه غلامه يعاقبه الركوب على جمله .. حتى وصل إلى بيت المقدس ، وكتب لهم وثيقة الأمان التي ننقلها كما هي لأهميتها وفائدتها ؛

وثيقة الأمان التي كتبها عمر رضي الله عنه عند تسلمه بيت المقدس :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبدُ الله عمر أميرُ المؤمنين ، أهلَ إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم ، وسقيمها ، وبريئها وسائر ملِّتها أن لا تُسكن كنائسهم ، ولا تُهدم ، ولا يُنقص منها ، ولا من حَيِّزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضارَّ أحد منهم ، ولا يُسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية ، كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم ، واللصوص (السارقين ــ النشالين) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه ، وما له ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية .



ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله من الروم ويخلي بيعتهم وصليبهم فإنهم آمنون على أنفسهم ، وعلى بيعتهم ، وصليبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادُهم ، وعلى م ا في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المسلمين ، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية ، شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس عشرة " .

تاريخ الرسل والملوك للطبري 609/3 ــ دار المعارف ــ مصر ــ بلادنا فلسطين ص90-91مصدر سابق

وهذه الوثيقة صارخة بمعاني المسامحة الإسلامية ، مع أصحاب الأديان الأخرى ، ولا تحتاج إلى تعليق كي ندرك حقيقة هذا الدين الحنيف ، في هذا المجال الإنساني العظيم .

وبعد ذلك زار سيدنا عمر ــ رضي الله عنه ــ كنيسة القيامة ولما حان وقت الصلاة ، قال له البطريرك (مكانك صل) فأبى عمر رضي الله عنه وخرج يصلي خارج الكنيسة ، وبعد أن أتمها قال :

"يا شيخ إنني لو أقمت الصلاة في كنيسة القيامة ، لوضع المسلمون عليها أيديهم ، في حجة إقامتي الصلاة فيها ، وإني لآبى أن أمهد السبيل لحرمانكم منها وأنتم بها أحق وأولى ".

تاريخ القدس ودليلها من كتاب الأباء الفرنسيسكان ــ انظر بلادنا فلسطين ــ ص 91-94 ــ مصدر سابق

وبعد ذلك سكن القدس جماعة من الصحابة ، وغيرهم من أعلام المسلمين ، كعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، ووائلة بن الأسقع وبلال الحبشي .

وفي عام 40للهجرة ، بعد أن استتب الأمر للأمويين ، بدؤوا بتشييد المساجد ، ومن أهم ما قاموا به في بيت المقدس بناء **حرم القدس الشريف** الذي يتألف من مسجد الصخرة،والمسجد الأقصى ، وما حولهما من أبنية ، وبعد ذلك بستة عشر عاماً ، قام عبد



الملك بن مروان بتوسيع هذين المسجدين ، وأوقف على نفقاتها خراج مصر ، لمدة سبع سنين حتى جعل من ذلك آية من أبدع الآثار في تاريخ العمارة الإسلامية.

كما أمر عبدُ الملك نفُسُهُ بتعبيد الطرق التي تصل بيت المقدس بدمشق ، وأريحا الساحل...

وفي عام 216للهجرة ، زار الخليفة المأمون العباسي بيت المقدس وأمر بترميم ما يجب ترميمه من الحرم الشريف .

وفي سنة 465للهجرة سقطت القدس بأيدي السلاجقة ، وتمكن الفاطميون من استردادها بعد 17سنة ..

وفي عام 1099ميلادي زحف الإفرنج الصليبيون عليها ، واحتلوها.

القدس تحت حكم الإفرنج (الصليبيين) :

تحركت الحملة الأوربية (**الصليبية**) الأولى سنة 489للهجرة المؤلفة من 19جنسية مختلفة، ضمت سبعين ألف مقاتل ، وكان بينها كما يقول (ادوارد غيبون) : (أحط الطبقات وأجهلها . إما لتحقيق مكاسب مادية أو للتخلص من حياة الفقر الشاقة المليئة بالذل والهوان) .

وبعد حصار أنطاكية ، تمكن المغيرون من الاستيلاء عليها وقتل وأسر من تمكنوا منهم من الرجال والنساء والأطفال .

ففي 1099م تحركت الحملة نحو بيت المقدس ، وابتدأ الحصار حول المدينة ، ونصبوا أبراجاً ضخمة على أسوار القدس .. وقد أحرق المسلمون برجاً منها ، أما البرج الثاني فقد تمكن رجاله بقيادة غود فري من اقتحام السور ، والاستيلاء على جزء منه ، مما سهّل للجيش التوغل داخل المدينة .



يقول رينسمان : (انطلق الصليبيون في شوارع المدينة ، وإلى الدور والمساجد ، يقتلون كل من يصادفونهم من الرجال ، والنساء ، والأطفال دون تمييز ، واستمرت المذبحة ط ول مساء ذلك اليوم ، وطوال الليل ولم يكن علم تانكرد عاصما للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل ، ففي صباح الباكر من اليوم التالي 15تموز 1099ميلادية الموافق 23شعبان 492هجرية : اقتحم المسجد ثلة من الصليبيين ، فأجهزت على جميع اللاجئين وقتلوهم عن بكرة أبيهم ، وقد قدر عددهم بسبعين ألف شخص.

وحينما توجه ريموند آجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد ، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه) .

وقال ابن الأثير وهو يصف المذبحة : (وركب الناس السيف ، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون في المسلمين ، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود ، فاعتصموا به ، ثم قاتلوا فيه ثلاثة أيام .. وقتل الفرنج في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين ، وعلمائهم ، وعبَّادهم ، وزهَّادهم ، ممن فارق الأوطان ، وجاور في ذلك الموضع الشريف) .

وقال الدكتور غوستاف لوبون : (وكان سلوك الفرنجة (الصليبيين) حين دخلوا القدس ، غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ نحو النصارى ، قال كاهن مدينة لوبوي : عندما استولى قومنا على أسوار القدس ، وبروجها ، فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم ، وبُقرت بطون بعضهم ، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم على الأسوار ، وحُرِّقَ بعضهم في النار ، فكان يموت بعد ذلك بعذاب طويل ، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب ، وأيديهم ، وأرجلهم ، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا منهم..) .

انظر حضارة العرب ــ غوستاف لوبون ــ ص326

ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمراً اجمعوا فيه على إبادة جميع السكان الباقين ، الذين كان عددهم نحو ستين ألفاً فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ، ولا ولد ولا شيخاً).



وفي 22تموز 1099م أمروا عليهم (غود فري دوبويون) الذي سمى نفسه بـــ (حامي القبر المقدس) .

وبعد ذلك بسنة ، مات الأمير السابق ، فاختير أخون (بلدوين) خليفة له ، فكان أول ملوك مملكة بيت المقدس الإفرنجية ، التي حكمت من عام 1100م إلى 1187م .

وفي سنة 1131م ، تسلم فولك أوف انجو المملكة فشيد القلاع في أنحائها ، فبنى في بيت المقدس ثلاثة حصون ، هي : يبنا ــ وتل الصافي ــ وبيت جبريل .

وفي سنة 1143م توج بلدوين الثالث ملكاً للمملكة ، الذي توفي عن عمر يناهز 33 عاماً في عام 1162م ، فعرض بعض أصدقاء نور الدين الشهيد عليه ؛ ليقوم بهجوم على أعدائهم في بيت المقدس ويكتسبوا فرصة موت بلدوين الثالث ، لكنه رفض أن يزعج قوماً يندبون فقدان أميرهم .

رنسيمان 584/2/ نقلاً من بلادنا فلسطين ــ ص180

وتولى الحكم من بعده أخوه عموري الأول (املريك) ... فأغار على مصر بمعارك دامية، امتدت بضع سنوات ، حتى جاء المدد من نور الدين الشهيد ، الذي أرسل جيشاً بقيادة أسد الدين (شيركوه) ومعه صلاح الدين ، فأجبرا (عموري) على الرجوع إلى بيت المقدس .

خلف صلاح الدين عمَّه شيركوه في الوزارة ، فاستولى صلاح الدين على مصر تحت إمرة الخليفة العباسي أولاً ، وتحت إمرة نور الدين الشهيد ثانياً .

وفي عام 1174م توفي نور الدين الشهيد ، وكان حاكماً عظيماً صالحاً يحب العدل ، والبر ، والإحسان ، وفي هذه الأثناء توفي الملك عموري أيضاً ، الذي خلفه ابنه بلدوين الرابع ، وحدث في عهده أن انقض السلطان صلاح الدين الأيوبي عام 1177م على مواقع الإفرنج في دير البلح ، وغزة ، وعسقلان ، واسترسل في غاراته حتى وصل إلى القريب من نابلس ... وعندما وصل صلاح الدين إلى تل الصافي وكان واديها قد امتلأ بمياه المطار ،



وعندما ازدحم الجند للعبور .. فاجأهم الإفرنج بهجوم عنيف وقد كان جنود صلاح الدين متفرقين في طلب الغنائم، فانهزم جيشه ورجع البقية إلى مصر .

وفي سنة 1180م ، قام الأسطول المصري بغارة موفقة ، على سفن الإفرنج الراسية في عكا ، وتتابعت انتصارات صلاح الدين ، مما أجبر بلدوين الرابع على أن يطلب الهدنة لمدة سنتين ، وتم له ذلك ، ولكن (رينالد دو شايتون) نقض الهدنة .

وفي عام 1182م غادر صلاح الدين مصر متوجها إلى دمشق ؛ ليعد العدة للمعركة الفاصلة ، بينه وبين الإفرنج ، وبينما هو يعد الجيش ويناوش أعداءه الإفرنج ، مات ملكهم بلدوين الرابع ، وأخذ مكانه بلدوين الخامس ، وقد كان صغيراً لم يتجاوز التاسعة من عمره ، وما لبث أن مات سنة 1186م فتوجت الملكة (سيبل) أخت بلدوين الرابع التي كان زوجها جاي لوز جنان .

وفي نهاية هذا العام ، هاجم رينالد سايتون قافلة ضخمة من قوافل المسلمين تتجه من مصر إلى شرق الأردن ، فقتل حماتها ، وسلب جميع م ا فيها ظلماً وعدواناً ، فطلب صلاح الدين منه إطلاق الأسرى وتعويضه عن الخسائر الحاصلة ، فرفض رينالد ذلك فكان لابد من تعجيل الحرب ، وكان لابد من الضربة القاضية ، من صلاح الدين .. فكانت معركة حطين المشهورة سنة 583هجرية ، الموافق 1187م .

تحت حكم المسلمين ثانية :

غدتْ فلسطين بعد حطين تحت سيطرة صلاح الدين ، ولم يبق أمامه سوى بيت المقدس (فنزل غربي بيت المقدس سنة 583هــ فوجد البلد قد حصنت غاية التحصين ، فتحول السلطان صلاح الدين إلى ناحية الشام؛ لأنه رآها أوسع للمجال والجلاد ، وقاتل الفرنج دون البلد قتالاً هائلاً وبذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرة دينهم ، وكنيستهم ... فبادر السلطان بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور ، فنقبها ، وعلقها وحشاها وأحرقها .. فسقط ذلك الجانب ، وخر البرج برمته ، فإذا هو واجب ، فلما شاهد الفرنج ذلك الحادث الفظيع ،



والخطب المؤلم الوجيع قصد أكابرهم السلطان ، وتشفعوا إليه أن يعطيهم الأمان ، فامتنع عن ذلك) .

البداية والنهاية لابن كثير 12/ص344-345

(وذكرهم بما ارتكبه الصليبيون من المجازر الوحشية ، عندما فتحوا القدس ،وكان السلطان قد استقبل وفدا من أجل بيت المقدس لما كان في عسقلان ، لمناقشة الشروط التي بمقتضاها تسلم المدينة المقدسة ، بأن يؤمنهم على أرواحهم ، ونسائهم ، وأولادهم وأموالهم ، ويسمح لمن يشاء منهم بالخروج من المدينة سالماً ، ولكن أهل بيت المقدس كانوا قد رفضوا ذلك العرض ، ورأوا أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون بيت المقدس)

الحركة الصليبية لعاشور 819/2

معاملة المسلمين للمسيحيين :

وقابل صاحب القدس (بالبان بن بازران) السلطان صلاح الدين واتفقا على الصلح ... ودخل صلاح الدين الأيوبي القدس صلحاً ، وسمح للفرنجة بمغادرتها بعد جزية بسيطة عن كل شخص ، وامتازت معاملة صلاح الدين بالإنسانية ، فأعفى كثيرين من دفع الجزية ، وسمح للمسيحيين الشرقيين بالبقاء في المدينة .

قصة مدينة القدس ــ يحيى الفرحان ص11/24

يقول الإمام الحافظ (ابن كثير) موضحاً لنا عفو السلطان ورحمته بالمسيحيين بعد فتح المدينة المقدسة :

" وأطلق السلطان خلقاً كثيرين منهم بنات الملوك بمن معهم من النساء والصبيان والرجال ،ووقعت المسامحة في كثير منهم وشفع في أناس كثيرين فعفا عنهم ، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب في العسكر ، ولم يأخذ منه شيئاً مما يُقنى ويُدَّخر وكان رحِمه الله حليماً، مقداماً ، شجاعاً ، رحيماً " .

البداية والنهاية لابن كثير 12/ص 345-346

لقد اشتهر المسلمون الظافرون في الواقع بالاستقامة ، والإنسانية فبينما كان الفرنج منذ سنوات ، يخوضون في دماء ضحاياهم المسلمين ، يقتلون كل من يصادفونهم من الرجال والنساء والأطفال ، سواء في بيوتهم ، أو في مساجدهم ، ولم يسلم منهم أحد ، حتى اللاجئون إلى المسجد الأقصى وامتلأت الشوارع بجثث القتلى ... وسالت أنهار الدم فيها .



بينما الفرنج يفعلون تلك الأعمال الوحشية ، لم تتعرض أي دار من دور بيت المقدس للنهب من قبل جنود المسلمين ، ولم يحلَّ بأحد من الأشخاص مكروه ، بل صار رجال الشرطة المسلمون يطوفون الشوارع والأبواب ، تنفيذاً لأوامر السلطان صلاح الدين ، لمنع كل اعتداء يحتمل وقوعه على المسيحيين ، وقد تأثر الملك العادل لمنظر بؤس الأسرى فطلب إلى أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير ، فوهبهم له فأطلق العادل سراحهم على الفور ، وأعلن صلاح الدين : أنه سوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز .

صلاح الدين الأيوبي ــ بسام العلي ــ دار النفائس ــ ط7/ص170-171

وأقبل نساء الفرنج ، وقد امتلأت عيونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أوآباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر ؟ فأجاب صلاح الدين بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن وبذَلَ للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كلٍ بحسب حالته ، فكانت رحمته وعطفه على نقيض أفعال الغزاة الفرنج .

المصدر السابق

كيف عامل السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى سبايا المسيحيين :

لقد شهد المؤرخون المسيحيون ــ المعاصرون وغير المعاصرين ــ بكرم أخلاق صلاح الدين ، وسماحته ، وبأن صلاح الدين عامل النساء الصليبيين معاملة حميدة ، وسمح لهن بالخروج من بيت المقدس معزَّزات مكرمات ، ومعهن أموالهن ، وأتباعهن وحشمهن .

وكانت زوجة الملك جاي لوز جنان الأسير موجودة في بيت المقدس فطلبت من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها في الأسر في نابلس فأذن لها .

كذلك طلبت الأميرة (أتينت) أرملة أرناط من صلاح الدين الخروج كما طلبت إطلاق سراح ابنها من زوجها الأول ، فأكرمها السلطان ، وسمح لها بالسفر (وهي بنوابها محوطة وبرأيها منوطة) ثم أطلق سراح ابنها بعد استيلاء العادل على الكرك سنة 1188م والشوبك في سنة 1189م .



أما اليتامى والشيوخ والأرامل من الفرنجة ، فإن صلاح الدين لم يكتف بإطلاق سراحهم دون فداء ، بل منحهم أيضاً مساعدات مالية من ماله الخاص .

وهكذا بدا الفارق عظيماً بين سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة 1187م وبين ما فعله الفرنجة بالمدينة وأهلها المسلمين عندما سقطت في أيديهم سنة 1099 ، فذبحوا من صادفوه فيها من المسلمين وكتب المؤرخ المسيحي ابن العبري يقول :

" ولبث الفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً " .

تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص197

في حين كتب مؤرخ صليبي شاهد عيان يفخر بأن **(جنودنا وخيولنا كانوا يخوضون حتى ركبهم في دماء المسلمين)** .

الناصر صلاح الدين ، د.سعيد عبد الفتاح عاشور 5ـــ2ـــ20 .

وبعد أن تسلم صلاح الدين الفدية المتفق عليها من المسيحيين في بيت المقدس ، أخذ يعد الترتيبات لترحيلهم إلى الأراضي الصليبية ، في صُوْر وطرابلس ، ولذلك جمعهم تحت حراسة شديدة ، وقسمهم إلى ثلاث مجموعات : مجموعة قادها الدادية ، ومجموعة قادها الإستبارية والمجموعة الثالثة قادها باليان نفسه ، ثم أرسلهم مخفورين ، خوفاً عليهم من أن يتعرضوا لاعتداءات البدو على الطريق .

على أن الخطر الذي هدد أولئك الفرنجة من بيت المقدس ، لم يأت من جانب المسلمين ، وإنما أتى من جانب إخوانهم الفرنجة أنفسهم ، إذ لم يكادوا يدخلون حدود إمارة طرابلس الصليبية حتى انقض عليهم بعض أفراد الصليبيين واعتدوا عليهم ، وعندئذ اتجه أولئك المشردون شمالاً صوب مدينة طرابلس ذاتها ، ولكن أهل طرابلس خشوا على أنفسهم وعلى مدينتهم من تلك الجموع الخاوية الوفاض ، فأغلقوا أبواب مدينتهم في وجوههم ورفضوا أن يستضيفوا إخوانهم في محنتهم ؛ ليخففوا عنهم بعض آلامهم ، بل إن أهل طرابلس نهبوا ما بقي مع بعضهم من أموال تركها لهم صلاح الدين ، وهكذا لم يجد أهل بيت المقدس من إخوانهم



الفرنجة جزءاً من المعاملة الرحيمة التي لقوها من صلاح الدين ، فذهب بعضهم إلى أنطاكية ، حيث وجدوا مقرًّا ومقاماً إلى حين .

المصدر السابق ــ ص206 وانظر الحركة الصليبية للمؤلف نفسه2/824-825

ومع ذلك فإن السلطان صلاح الدين ، سمح للمسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة بالبقاء في القدس ، بشرط دفع الجزية ... مع إعفاء الفقراء وغير القادرين على دفعها .

ولاشك في أن الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها هم الذين استفادوا من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس ، إذ أتيحت لهم الفرصة من جديد لاستعادة نفوذهم ، وهيمنتهم على الأماكن المسيحية المقدسة .

وماذا عن كنيسة القيامة :

من المعلوم أن الصليبيين عندما دخلوا القدس سنة 1099م فتكوا بالمسلمين ودمروا مساجدهم وبيوتهم .. كما سنذكر طرفاً من مجازرهم لذلك طلب بعض المسلمين من صلاح الدين ، عندما فتح القدس بمعاملة المسيحيين بمثل ما عاملوا به المسلمين ، وبهدم كنيسة القيامة ، لأنها معقل من معاقل المسيحية ، فبهدمها تُشلُّ حركة المسيحيين في بيت المقدس .

ولكن السلطان المـــــؤمن صلاح الدين الأيوبي نهرهم ، ورفض طلبهم وأمر باحترام الأماكن المقدسة المسيحية ، وأعلمهم أن هذا هو الإسلام وهكذا وصَّى أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه حينما ودَّع جيش أسامة وهكذا فعل عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ حينما رفض أن يصلي في كنيسة القيامـــة ؛ كي لا يتخذ من يأتي بعده ذلك ذريعة للاستيلاء عليها .

وهكذا نادى صلاح الدين بالتزام روح التسامح ، والعفو تجاه المسيحيين ، إنطلاقاً من مبادئه الإسلامية الرائعة .

ففتحت كنيسة القيامة أبوابها لاستقبال قاصديها من الحجاج والزوار المسيحيين ، في ظل الدولة الإسلامية .



وبمقابل هذه المسامحة من قبل المسلمين ، تجاه الصليبيين ... يجدر بنا كي نوضح حقيقة هذه المسامحة ، أن نذكِّر ببعض ما فعله الصليبيون بسكان القدس المسلمين ، عندما دخلوها سنة 1099م . فقد أورد الدكتور أحمد شلبي ، في كتابه **موسوعة التاريخ الإسلامي** الفصل التالي الذي يعطينا صورة عن أعمال الصليبيين الوحشية ، كتب تحت عنوان المجازر والتنكيل :

بعد سقوط بيت المقدس حدثت مجزرة وحشية أليمة ، ذُبح فيها الرجال والنساء والأطفال من المسلمين ، واليهود ، والمسيحيين الذين لم ينضموا للصليبيين ، ويصف غوستاف لوبون هذه المجزرة بقوله : لقد أفرط قومنا في سفك الدماء ، وبخاصة في هيكل سليمان ، حيث لجأ كثير من المسلمين والنصارى واليهود ، وكانت جثث القتلى تسبح في محيط من الدماء ، ولم يكتف قومنا الصليبيون (الأتقياء) بضروب العسف والتدمير والتنكيل التي اتبعوها ، بل عقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود ، وخوارج النصارى الذين كان عددهم ستين ألفاً ، فأفنوهم عن آخرهم ، في ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً .

ويقول ابن خلدون : " استباح الفرنجة بيت المقدس ، وأقاموا في المدينة أسبوعاً ، ينهبون ويدمرون ، وأحصي القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعباد ، والزهاد ، والمجاورين، فكانوا سبعين ألفاً ، أو يزيدون " .

ويقول wells : حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة ، وكان دم المقهورين يجري في الشوارع حتى لقد كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم وهم راكبون ، وعندما أرخى الليل ، جاء الصليبيون ، وهم يبكون من فرط الفرح وخاضوا الدماء التي كانت تسيل كالخمر في معصرة العنب ، واتجهوا إلى الناقوس ، ورفعوا أيديهم المضرجة بالدماء ، يصلون لله شكراً " .

ويقول الأستاذ نيقولا زيادة :



" والحملة الصليبية الأولى والفظائع التي ارتكبتها في طريقها في احتلال القدس ، ليست مما تشرِّف ، وقد تظهر لنا اتجاهات الصليبيين من خلال تصرفهم السيئ ، مع مسيحيي فلسطين أنفسهم فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس ، والبيوت ، فتبعثر المسيحيون في جهات فلسطين وشرق الأردن ، وسار البطريرك إلى القاهرة ؛ ليعيش في حماية الفاطميين ".

وبجوار القتل قام الصليبيون بعمليات سلب ، ونهب كثيرة شملت ما في البيوت من ذهب أو فضة أو متاع أو حيوان ، كما أخذوا قناديل الذهب من المسجد ، وكانت 150قنديلاً ، وغنموا من المساجد ما لا يقع عليه الإحصاء .

طهَّر السلطان صلاح الدين بيت المقدس من الصلبان ، والنواقيس والأوساخ ، ودخله أهل الإيمان ، وأقيمت أول جمعة ببيت المقدس بعد الفتح بثمانية أيام ، وخطب في ذلك القاضي محي الدين بن زالزكي خطبةً بليغة ، ذكر فيها شرف بيت المقدس ، وما ورد فيها من الفضائل والترغيبات ، وكان أول ما قال :

فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين *

وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن علي على كرسي الوعظ ، وبعد ذلك أرسل السلطان صلاح الدين إلى حلب ، فاستحضر المنبر الذي كان قد أعدَّه الملك العادل نور الدين الشهيد ، وقد كان يؤمل أن يكون فتحها على يديه ، فما كان إلا على يدي بعض أتباعه وهو السلطان صلاح الدين بعد وفاته .

البداية والنهاية 12/346–347 بتصرف يسير .

وأما الصخرة المعظمة ، فإن السلطان أزال ما حولها من المنكرات والصور ، والصلبان ، وطهرها بعدما كانت جيفة قذرة .

ووضع في بيت المقدس المصاحف ، وأجزاء القرآن ليقرأ فيها المقيمون والزائرون ، وتنافس بنو أيوب فيما يفعلونه في بيت المقدس من الخيرات إلى السكان جميعهم .



ثم أنشأ السلطان مدارس عديدة ، أهمها : مدرسة للشافعية يُقال لها (الصلاحية) أو الناصرية ، ووقف على الصوفية رباطاً كان للتبرك بجنب كنيسة القيامة ، وأجري على الفقهاء والفقراء الجوامكة (الأرزاق)

المرجع السابق

وأنشأ زوايا عديدة ، ومستشفى كبير (بيمارستان)

راجع المفصل في تاريخ القدس ص178-179

وقد أشرف بنفسه على تلك الإنشاءات ، بل كان يعمل بنفسه في بناء الأسوار ، وغير ذلك من الأعمال .

وبعد وفاة السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى ، تولى ابنه الملك الأفضل حكم القدس ، الذي وقف المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من الحرم على المغاربة ، حماية لمنطقة البراق المقدسة ، وأنشأ فيها مدرسة شهيرة .

وممن حكم القدس من الأيوبيين الملك المعظم ، الذي أجرى تعميرات في كل من المسجد الأقصى ، والصخرة ، وأنشأ ثلاث مدارس للمذهب الحنفي ، ولكنه عاد فدمر بعض إنشاءاته مثل سور القدس خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها .

وفي عام 626 للهجرة ، حكم القدس أخو الملك المعظم ، وكان يدعى بالملك الكامل ، وهو الذي عقد اتفاقا سلم بموجبه القدس للإمبراطور فريدريك الثاني ، ملك الفرنجة عدا الحرم الشريف .

ولم يدم ذلك طويلاً حتى استردها الملك الناصر من الفرنجة ، وذلك عام 637 للهجرة ، ثم استردها الخوارزمية للملك نجم الدين أيوب ملك مصر سنة 642للهجرة .

بعد ذلك دخلت القدس في حوزة المماليك ، وقد حظيت باهتمامهم فقط كان سلاطينهم يزورونها ، وقد أقاموا فيها منشآت كثيرة منها ما يزيد عن خمسين مدرسة ، وعشرات من الزوايا .



وفي عام 777 للهجرة ، جعل المماليك القدس نيابة مستقلة ، تابعة للسلطان في القاهرة ، بعد أن كانت تابعة لنيابة دمشق ، وغدت القدس من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي، يفد إليها طلبة العلم والعلماء من مختلف الأقطار .

وهكذا بقيت القدس في حوزة المماليك ، حتى ز من السلطان سليم الذي احتل القدس سنة 922 للهجرة ، بعد انتصاره عليهم في معركة مرج دابق .

وبعد أن توفي السلطان سليم ، خلف ابنه سليمان القانوني ، الذي اهتم بالقدس اهتماماً خاصاً ، وأقام فيها أسواراً أستمر العمل فيها طيلة خمس سنوات ، كما بنى فيها مساجد وتكايا ... وعمَّر قبة الصخرة وغيرها من العمارات الهندسية الرائعة .

قصة مدينة القدس ــ يحيى فرحان ص25

دامت القدس تحت خلافة الثمانيين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى حين دخلت القوات البريطانية المدينة .

المصدر السابق ص26ــ راجع بلادنا فلسطين ص257-300وما بعدها .

الانتداب البريطاني :

دخلت القوات البريطانية فلسطين سنة 1917م لتمهد الطريق لدخول الجنرال اللنبي مدينة القدس .

وفي الوقت نفسه كانت المفاوضات جارية بين الحركة الصهيونية والزعماء البريطانيين ، بشأن تسليم القدس لليهود ، وصدر نتيجة ذلك في العام ذاته ، ما يُسمى بوعد بلفور ، الذي ينص على تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين ؛ لتكون الصهيونية أداة لخدمة أهداف ومصالح بريطانيا في الشرق .

وبقيت بريطانيا محافظة على أداتها تلك حتى عام 1948م حين رحل الإنكليز عن القدس وفلسطين ، وفي نفس اليوم تمكن اليهود من احتلال المسكوبية .



وغدت القدس تحت السيطرة الإسرائيلية ... فلندرس هذا الأمر بشيء من التفصيل .

تُعدُّ القدس من أهم الرموز الزاخرة بالإيحاءات التي تثير في النفسية اليهودية نوازع التعصب الديني ، لذلك عملت الصهيونية على استغلال هذا الرمز ، تمهيداً لتجنيدهم في خدمة الأهداف المشتركة لها ولأسيادها المستعمرين ، وكان من نتائج هذا التركيز على هذه المدينة أن الاستيطان قد بدأ فيها مبكراً منذ مطلع هذا القرن .

وكان الهدف من الاستيطان فيها ، طمس الطابع العربي الإسلامي للمدينة ، مما أحدث ردة فعل لدى سكان القدس .

ففي عام 1948م وقع الصدام المسلح بين اليهود وسكان القدس وكانت نتيجتها اتفاقية الهدنة التي وقعت بين الأردن والكيان الصهيوني والتي نصت على تقسيم القدس وفق ما يلي:

1ــ القطاع اليهودي : ومساحته (4065فداناً) أي ما يعادل 84.13 بالمائة من مساحة القدس .

2ــ القطاع العربي : ومساحته (555فداناً) أي ما يعادل 11.48بالمائة من مساحة القدس.

3ــ قطاع هيئة الأمم والأراضي الحرام : مساحته (214فداناً) أي ما يعادل 3.49بالمائة من مساحة القدس .

فأخذت إسرائيل الجزء الأكبر من القدس ، في جولتها الأولى ، وما هي إلا سنوات حتى احتلت الجزء الآخر .

وفي سنة 1967م كان العدوان الإسرائيلي على الجزء المتبقي من القدس .

ومنذ ذلك التاريخ تبذل الصهيونية جهوداً كبيرة ، لتهويد مدينة القدس معالماً وسكاناً ، وتتخذ في سبيل ذلك العديد من الأشكال والصور .



ملخص من مقال نشر في مجلة الأرض التي تصدر عن مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية ــ العدد8–السنة 12–1985م

ففي مجال عملية تهويد القدس ، لجأت السلطات الإسرائيلية إلى سلسلة من الإجراءات ، والممارسات الرامية إلى تحقيق أهدافها العدوانية التوسعية ، وضرب جذورها في الأراضي المحتلة ، فأصدروا العديد من القوانين التي تسمح للإسرائيليين بتملك الأرض ، ومصادرة أملاك السكان الأصليين ، ومن تلك القوانين :

1ــ تدخل المادة التالية بعد البند 8 في إدارة البلديات 8/آ (1) يحق للوزير بناءً على رأيه الخاص ، ودون إجراء وبموجب المادة الثامنة توسيع حدود بلدية ما ، بإعلامه إدخال المنطقة المحدد بالقرار 11/آ في قانون القضاء لعام 5708عبري /1948/ .

2ــ قانون أملاك الغائبين ، وهو يسمح للسلطات الإسرائيلية وضع يدها على أموال وأراضي من لم يكن موجوداً وقت الإحصاء من العرب في تلك المناطق ، ومنعه من العودة إلى بلاده .

واعتماداً على هذا القانون ، قامت سلطات الاحتلال الصهيوني بتاريخ 1967/7/25م بإجراء إحصاء عام لعرب القدس الشرقية المحتلة سجلت من خلاله أسماء جميع الموجودين، وغير الموجودين ــ سواء كان عدم وجوده ؛ بسبب طلب العلم ، أو بسبب العمل ، أو الزيارة ــ عدتهم غائبين ، وقررت حرمانهم من العودة إلى بلادهم ، ووضعت يدها على أموالهم ، ومصادرة أملاكهم ، وأراضيهم ، وقد كان عددهم لا يقل عن 100ألف عربي غائب .

وبعد ذلك بدأت السلطات الإسرائيلية بحملة مصادرة الأراضي كخطوة أولى لعملية الاستيطان ، ثم بدأت بالاستيطان الفعلي .



كما قامت السلطات الإسرائيلية بمحاولات عديدة ، وما تزال لتغيير معالم المدينة المقدسة، مثل إزالة الأحياء العربية القديمة ، وتهديم المساجد ، والمدارس الإسلامية ، كتهديم المدرسة الأفضلية ، والمدرسة الفخرية ، وزاوية المغاربة .

وتبقى الجريمة الكبرى في إطار تغيير معالم القدس ، المحاولات الصهيونية المتكررة لإزالة المسجد الأقصى ، سواء بتعريضه للحرق أو بواسطة الحفريات التي تتم تحت جدرانه، بدعوى أنها حفريات أثرية وما هدفها الحقيقي إلا أن ينهار أعظم الآثار الإسلامية في القدس الشريفة .

أما في مجال الاقتصاد فقد استبدلت السلطات الإسرائيلية العملة الأردنية المتداولة هناك بالعملة الإسرائيلية ، وأغلقت المصارف العربية في القدس وصادرت أموالها .

كما قررت منع دخول الإنتاج العربي الزراعي والصناعي ، إلا بضرائب عالية فشُلَّ بذلك الاقتصاد العربي .

وفي مجال القضاء : تم إلغاء العمل بالقوانين الأردنية المحلية واستبدالها با لقوانين الإسرائيلية ، وذلك في 1967/6/30م وهكذا بات لزاماً على المقيمين هناك مراجعة المحاكم الإسرائيلية .

وفي مجال التعليم ، فقد وجهت البرامج لإيهام الجيل الناشئ بأن فلسطين هي أرض اليهود ، فصممت على نحو يهيئ نفسية الطلاب العرب للقبول بنوايا إسرائيل التوسع ية ، من ذلك فرض مادتي (اللغة العبرية ، ومدينات إسرائيل) في مراحل التدريس الثلاث .

وهكذا تستخدم الصهيونية موضوع القدس ، كطعم يساعد على اجتذاب المهاجرين الذين ضللتهم الدعاية الصهيونية ، وصورت لهم عودة القدس بمثابة تحريرهم من الآثام ، وبالمقابل فإن (تحرير القدس) بهذا المعنى يعمق عندهم الأوهام ، حول تفوقهم ، واستعادة أمجادهم التاريخية الكاذبة .



ومن جهة أخرى فإن الصهيونية تحاول إقناع العرب ، وغيرهم بأن القدس قد تحولت إلى عاصمة أبدية لإسرائيل ، ولا مجال للتفاوض بشأنها .

أهم المراجع والمصادر :

1ــ البداية والنهاية ــ الإمام ابن كثير ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .
2ــ بلادنا فلسطين ــ مصطفى مراد الدباغ ــ دار الطليعة ــ ط1979/1.
3ــ تاريخ الرسل والملوك ــ الإمام الطبري ــ دار المعارف ــ مصر .
4ــ الحركة الصليبية ــ الدكتور عبد الفتاح عاشور .
5ــ قصة مدينة القدس ــ يحيى الفرحان .
6ــ صلاح الدين الأيوبي ــ بسام العسلي .
7ــ الأنس الجليل في تاريخ بيت المقدس والخليل ــ مجير الدين الحنبلي .
8ــ مجلة الأرض الصادرة عن مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية.
9ــ تهويد القدس ــ روحي الخطيب ــ الكتاب الأول .
بالإضافة إلى العديد من المصادر والمراجع التي أثبتنا أهمها في هامش البحث .



الباب العاشر: موضوعات أدبية



01 - المقدمة

02 – فن المقالة

03 - تعريف المقالة

04 - المقالة فن عصري

05 - عناصر المقالة

06 – أنواع المقالة

07 - البطولة في تاريخ الأدب العربي



01 - المقدمة

الكائنات البحرية تعد الحياة في البحر مسرفة إسرافاً أبعد من كل خيال ، سواء في وفرتها أو في تنوعها أو في قدمها أو غرابتها أو جمالها أو شراستها بغير تعقل و بما ليس له نظير آخر في الطبيعة ، و تتراوح الكائنات البحرية من ملايين بلايين الكائنات الميكروئية التي تجوب البحر في المياه الزرقاء إلى حيتان المحيط المتجمد الجنوبي الذي يبلغ طول الواحد منها ثلاثين متراً ، و يزن مائة و ثلاثين طناً ، و تشتمل هذه الكائنات على أجمل الأنواع التي لم تَجُد الطبيعة بمثلها كتلك الأسماك الرائعة الفضية و كتلك الحيوانات التي تتفتح كالزهور ، و كتلك الشعب المرجانية المتلألئة ، و كتلك الديدان التي يبلغ طول الواحد منها سبعة و عشرين متراً ، و كتلك الأسماك التي تتلون بأحد ثمانية ألوان ، فإذا وقفنا عند الحوت و هو أكبر الكائنات البحرية و أكبر الكائنات البرية أيضاً ، فيحتاج الحوت الواحد إلى أربعة أطنان م ن السمك تدخل معدته حتى يشعر بالشبع ، و يحتاج وليده إلى ثلاثمائة كيلو من الحليب في الرضعة الواحدة ، و يتدفق من جسم الحوت في أثناء صيده ثمانية أطنان من الدم و فيه خمسة و عشرون طناً من الدهن ، و خمسون طناً من اللحم ، و عشرون طناً من العظام ، و تزن أعضاؤه الداخلية ثلاثة أطنان و لسانه طنين و نصف ، و يستخرج من الحوت ما يزيد عن مائة و عشرين برميلاً من الزيت ، وقد استطاع حوت واحد أن يجر سفينة ثمانية ساعات و نصف بسرعة تزيد عن خمس عقد في الساعة و السفينة تُعمل محركاتها بأقصى سرعة باتجاه معاكس لسيره .

02 – فن المقالة

أخوتي المشاهدين :

استمعتم قبل قليل إلى مقالة علمية عن الكائنات البحرية مأخوذة من مجموعة علمية عنوانها " لايف " أردت أن أستهل بها هذا اللقاء عن فن المقالة ، موضوع اللقاء فن المقالة، لتكون تجسيداً و متكئاً للأفكار النظرية المتعلقة بهذا الموضوع .

بادئ ذي بدء سأعرض عليكم مخططاً للموضوع و بعدها ننتقل إلى الحديث عن فقراته فقرة فقرة .



03 - تعريف المقالة

المخطط هو كما يلي :

المقالة : أولاً سوف نتحدث عن تعريفها و بعدها ننتقل إلى أهميتها و كيف أنها فن عصري ، بعدها نتحدث عن عناصرها و عناصر المقالة تتألف من المادة و الأسلوب و الخطة .

فالمادة هناك تعريف لها و هناك حديث عن شروطها ، و بعض الشواهد .

و الأسلوب فيه عناصر ثلاثة : الوضوح و القوة و الجمال .

و في الخطة مقدمة و عرض و خاتمة .

يا إخوتنا الطلاب و يا أعزاءنا المشاهدين :

جواب سؤال التعبير الأدبي في امتحان الشهادة ا لثانوية يشبه أن يكون مقالة أدبية متواضعة لشاب مغمور هو أنت أيها الطالب ، لذلك فقرات هذا الدرس و هذا اللقاء هي نفسها فقرات أصول كتابة موضوع في التعبير الأدبي ، الحديث عن فن المقالة عن تعريفها و عن مقوماتها هو حديث يشبه الحديث عن أصول كتابة مقالة أدبية أي جواب سؤال التعبير في الامتحان .

فالمقالة كما يعرفها إدموند جونسون و لنخرج قليلاً عن تعريف الكتاب : المقالة كما يعرفها إدموند جونسون فن من الفنون الأدبية و هي قطعة إنشائية ذات طول معتدل تكتب نثراً و تلم بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة و لا تعنى إلا بالناحية التي تمس الكاتب عن قرب .

هذا التعريف تعريف إدموند جونسون فماذا عن تعريف الكتاب المقرر؟

تعريف الكتاب المقرر المقالة قطعة من النثر معتدلة الطول تعالج موضوعاً ما معالجة سريعة من وجهة نظر كاتبها ، سوف أشرح لكم هذا التعريف بالتفصيل و سوف أقف عند الكلمات التي تحتها خط في هذا التعريف .

فكلمة تعالج موضوعاً ما هنا جاءت عامة هي موضوعاً ما ، في التعريف تعني أن المقالة من أكثر الفنون الأدبية استيعاباً و شمولاً لشتى الموضوعات ، فموضوعات كالتضخم النقدي و أساليب الإعلان و التخدير بالإبر لا يمكن أن تحملها أج نحة الشعر ، و لا حوادث القصة ، و لا حوار المسرحية ، و المقالة وحدها تتقبل مثل هذه الموضوعات و أية موضوعات أخرى ، و تجيد توضيحها و تحسن عرضها ، إذاً الفن الأدبي الذي يتسع لأي موضوع يخطر في خاطر كاتبه هو فن المقالة ، إذاً تعالج موضوعاً ما ، و لكن هذه المعالج ة ليست معالجة متأنية



كالبحث العلمي إنها معالجة سريعة ، فكلمة معالجة سريعة في التعريف تعني أن كاتب المقالة ما زاد عن أنه شجّر تأملات أو تصورات أو مشاهدات تغلب عليها العفوية و السرعة ، فلو كانت المعالجة متأنية إذ جُمعت الحقائق و محصت و صنفت و اعتمد على الإحصاء و التجربة و المتابعة لعدَّ هذا العمل بحثاً علمياً و ليس مقالة أدبية ، فلو قرأت في مجلة علمية أن طيور البلاكبورد تطير في الخريف إلى شاطئ المحيط الأطلسي و من هناك تقوم برحلة جوية لا تصدق ، ما هي هذه الرحلة ؟ تقوم برحلة جوية لا تصدق فوق البحار في اتجاه أمر يكا الجنوبية مجتازة مسافة أربعة آلاف كيلو متر بلا توقف خلال ست و ثمانين ساعة على ارتفاع يزيد عن ستة آلاف متر ، لو قرأت هذه الفقرة في مجلة علمية لعرفت أن هذه الأسطر قد كلفت العلماء سنوات طويلة من الملاحظة و المتابعة ، إذاً هذه الفقرة هي جزء من بحث علمي و ليس مقالة أدبية .

و أما كلمة من وجهة نظر كاتبها تعني أن المقالة تعبر عن ذات كاتبها أكثر مما تعبر عن موضوعها لأن كاتب المقالة يرى الأشياء من خلال ذاته و ما يعتمل فيها من مشاعر و انفعالات ، استمعوا معي إلى مي زيادة تتحدث عن طائرها :

"طائر صغير أحببته شهوراً طوالا ، غرد لكآبتي فأطربها ، ناجى وحشتي فآنسها ، غنى لقلبي فأرقصه ، نادم وحدتي فملأها ألحانا"

04 - المقالة فن عصري

و الآن ننتقل إلى الفقرة الثانية من المخطط و هي أهمية المقالة ، و إذا شئت أن ألخص لكم كل ما سوف أقوله عن أهمية المقالة فالمقالة فن عصري .

يا إخوتنا المشاهدين و يا طلابنا الأعزاء :

كتب على غلاف إحدى المجلات ذات الطبعات الدولية كُتب هكذا : أكثر من مائة مليون يقرؤون هذه المجلة في مائة و ثمانين بلداً في العالم و بخمسة عشر لغة ، فما سر هذا الإقبال الشديد على مطالعة المقالات المنوعة في الصحف و المجلات ، في كل أقطار العالم ؟

إن السر يكمن في طبيعة العصر و طبيعة حياة الإنسان في هذا العصر، في هذا العصر التي طغت فيه المادة على القيم ، و نما العقل على حساب القلب ، و تعقدت أنماط الحياة ، و كثرت متطلباتها ، و استهلك كسب الرزق معظم الوقت ، و اختصر كل شيء حتى ا ختصرت الشهور في ساعات ، و السنون في أيام ، و ظهرت الحاجة ملحة إلى مطالعات سريعة خفيفة ،



فتطلع الناس إلى الصحف و المجلات و استهوتهم الكتيبات و الدوريات و كأن الناس أرادوا أن يختصروا البحر في قارورة و البستان في باقة و ضياء الشمس في بارقة و هزيم الرعد في أغرودة ، و بحثوا عن فن أدبي يدور معهم أينما داروا و يرافقهم حيثما ساروا ، و يكون معهم في حلهم و ترحالهم و أحزانهم و أفراحهم ، في لهوهم و جدهم ، يعبر عن نشاطهم العقلي و عن اضطرابهم النفسي ، لذلك اختصرت الكتب في مقالات فجاءت بلسماً شافياً لمرض العصر و دواء لضيق الوقت فكانت المقالة من أوسع الفنون الأدبية انتشاراً لأنها أقلها تعقيداً و أشدها وضوحاً و أكثرها استيعاباً لشتى الموضوعات و أيسرها مؤونة على الكاتب و أسهلها هضماً على القارئ ، هذه هي الأسباب التي جعلت من المقالة من أوسع الفنون الأدبية انتشاراً و من أكثرها تلبية لحاجات العصر و لحاجات الإنسان العصري الذي يعيشها .

05 - عناصر المقالة

و الآن ننتقل إلى العنصر الثالث من عناصر الخطة و هي عناصر المقالة ، و عناصر المقالة كما شاهدتم قبل قليل هي المادة و الأسلوب و الخطة .

فالمادة هي مجموعة الأفكار ــ الآن تعريفها ــ و الآراء و الحقائق و المعارف و النظريات و التأملات و التصورات و المشاهدات و التجارب و الأحاسيس و المشاعر و الخبرات التي تنطوي عليها المقالة ، تنوع التعريف بتنوع الموضوعات ، و هذا عن تعريف مادة المقالة فماذا عن شروطها ؟

الآن شروط المقالة : يجب أن تكون المادة واضحة لا لبس فيها و لا غموض ، و أن تكون بعيدة عن التناقض بين المقدمات و النتائج ، فيها من العمق ما يجتذب القارئ و فيها من التركيز ما لا يجعل من قراءتها هدراً للوقت ، و فيها وفاء بالغرض بحيث لا يصاب قارئها بخيبة أمل ، و أن يكون فيها من الطرافة و الجدة بحيث تبتعد عن الهزيل من الرأي، و الشائع من المعرفة ، و السوقي من الفكر ، و فيها من الإمتاع بحيث تكون مطالعتها ترويحاً للنفس أكثر مما تكون عبئاً عليها ، أن تكون المادة واضحة و صحيحة و عميقة و مركزة و وافية للغرض طريفة و ممتعة هذه شروط المادة في المقالة حتى تكون مادة قيمة يقبل عليها القارئ بنهم و شغف .

يقول أحد الكتاب إن مهمة الكاتب ليست في إضعاف النفوس بل في تحريك الرؤوس و كل



كاتب لا يثير في الناس رأياً أو فكراً أو مغزى يدفعهم إلى التطور أو النهوض أو السمو على أنفسهم و لا يحرك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة و لا يقر فيهم غير الاطمئنان الرخيص و لا يوحي إلا بالإحساس المبتذل و لا يمنحهم غير الراحة الفارغة و لا يغمرهم إلا في التسلية و الملذات السخيفة التي لا تكون فيهم شخصية و لا تثقف فيهم ذهناً و لا تربي فيهم رأياً لهو كاتب يقضي على نمو الشعب و تطور المجتمع هذه الكلمة لأحد الكتّاب يتحدث فيها عن مهمة الكاتب في مضمون المقالة أي في مادتها ، يجب أن تحرك الرؤوس لا أن تضعف النفوس ، يجب أن تثير المثل العليا لا الغرائز السفلى .

و العنصر الثاني في فن المقالة هو الأسلوب : و الأسلوب قبل أن نتحدث عن شروط الأسلوب ، الأسلوب في ال تعريف هو الصياغة اللغوية و الأدبية لمادة المقالة أو هو القالب الأدبي الذي تصب فيه أفكارها ، و مع أن الكتّاب تختلف أساليبهم بحسب تنوع ثقافتهم و تباين أمزجتهم و تعدد طرائق تفكيرهم و تفاوتهم في قدراتهم التعبيرية و أساليبهم التصويرية و مع ذلك فلا بد من حد أدنى من الخصائص الأسلوبية حتى يصح انتماء المقالة إلى فنون الأدب .

لابد في أسلوب المقالة من الوضوح ، الوضوح كما شاهدتم في المخطط ، الوضوح لقصد الإفهام ، و القوة لقصد التأثير ، و الجمال لقصد الإمتاع ، لابد من الفهم ، و لابد من التأثر ، و لابد من الاستمتاع، فكل شرط من شروط الأسلوب يحقق غرضاً من أغراض الأسلوب ، الوضوح للفهم ، و القوة للتأثير ، و الجمال للإمتاع ، فماذا عن الوضوح وضوح الأسلوب في المقالة ؟ لابد في أسلوب المقالة من الوضوح بقصد الإفهام ، فالوضوح في التفكير أساس الوضوح في التعبير هذه حقيقة مسلم بها ، الو ضوح في التفكير أساس الوضوح في التعبير ، مادامت الأفكار واضحة وضوحاً جداً في ذهن الكاتب فلابد أن تأتي أفكاره و أساليبه واضحة كذلك ، و معرفة الفروق الدقيقة بين المترادفات ثم استعمال الكلمة ذات المعنى الدقيق في مكانها المناسب فكلمة لمح كما تشاهدون و لاح و حدج و حدق و حملق و شخص و رنا و استشف و استشرف كل هذه الكلمات تعني النظر، و لكن لكل كلمة معنى دقيقاً جداً يتحدث عن حالة من حالات النظر ، فلمح شيء ظهر ، إنسان نظر ثم أعرض ، بينما لاح شيء ظهر و اختفى ، و أما حدج فهو الحديث و المستمع ممتلئ بالمحبة ، و أما حدق حين ما تكبر حدقة العين فهذا هو التحديق ، و أما حملق حينما يظهر حملاق العين و هو باطن الجفن فهذا معنى كلمة حملق ، و أما شخص مع الخوف ، و أما رنا نظر مع السرور، بينما استشف نظر مع التفحص بالأصابع ، و استشرف نظر مع التمطي في الأرجل ، فإذا عرف الكاتب المعاني



الدقيقة جداً للكلمات أمكنه أن يستخدمها في مكانها الصحيح و بهذا يسهم استخدام الكلمة بالمعنى الدقيق في توضيح المعنى ، المعنى الواضح يسهم في توضيح الأسلوب و معرفة الفروق الدقيقة بين المترادفات تسهم أيضاً في توضيح الأسلوب و في ذلك معرفة العلاقات في التراكيب و تحديدها تحديداً دقيقاً و عدم الوقوع في اللبس أي احتمال تركيب معنيين في وقت واحد هذا يسهم أيضاً في توضيح أسلوب المقالة .

فالعبارة يسمح مثلاً لو قال أحدهم يسمح ببيع العلف لفلان ، قد يفهم من هذه العبارة أنها سخرية أو استهزاء أو تقريع فكأن فلان حيوان ، بينما يقال يسمح لفلان ببيع العلف فهذه عبارة واضحة محددة ، لا يمكن أن تحتمل معنى آخر ما أراده الكاتب ، فتحديد المعنى من قبل الكاتب عن طريق دقة الصياغة هو الذي يسهم أيضاً في وضوح الأسلوب في المقالة .

كما أن الإكثار من الطباق يزيد المعنى وضوحاً و قديماً قالوا بضدها تتميز الأشياء ، و كذلك المقابلة و المقابلة كما تعرفون تشابك طباقين أو أكثر ، فالمطابقة كالحر و القر ، و الجود و الشح ، و الطيش و الحلم ، إيراد المعاني المتعاكسة في النص من شأنه أن يوضح المعنى توضيحاً جيداً ، أما استخدام الصور بعامة و الصور البيانية بخاصة فهو شي ء أساسي في توضيح أسلوب المقالة ، مثال ذلك ، يقول أحد الكتاب معرفاً الأدب : الأدب اليوم عصا بيد الإنسانية بها تسير لا مروداً تكحل به عينيها شبه الأدب بالعصا التي تستعين الإنسانية بها و ليست مروداً و المرود هو ميل الكحل ، ليست مروداً تكحل به عينيها و هو نور براق يفتح الأبصار ، و ليس حلية بديعة ساكنة فوق الصدور .

و الآن ننتقل إلى العنصر الثاني في الأسلوب و هو القوة ، قوة الأسلوب تعني أن هذا الأسلوب شديد التأثير فإذا كان وضوح الأسلوب يحدث عند القارئ قناعة فإن قوة الأسلوب قد تحدث عند القارئ موقفاً ، و الموقف هو أن تقف باتجاه هدف معين و تتحرك نحوه ، إذا كانت العبارات الواضحة تُحدث قناعة فإن قوة الأسلوب تُحدث موقفاً عند القارئ ، و تأتي قوة الأسلوب من حيوية الأفكار و دقتها ، و متانة الجمل و روعتها ، و كذلك تسهم في قوة الأسلوب الكلمات الموحية و العبارات الغنية و الصور الرائعة و التقديم و التأخير و الإيجاز و الإطناب و الخبر و الإنشاء و التأكيد و الإسناد و الفصل و الوصل و كل هذه الكلمات عنوانات لموضوعات مرت بكم في البلاغة و لاسيما في علم المعاني ، مثال ذلك: إذا أردنا أن نعيش سعداء حقاً فما علينا إلا أن نراقب القمح في نموه و الأزهار في تفتحها و نستنشق النسيم العليل و لنقرأ و لنفكر و لنشارك تايلر في إحساسه إذ يقول سلبني اللصوص ما سلبوا و لكنهم



تركوا لي الشمس مشرقة و القمر منيراً و المياه الفضية الأدين و زوجة مخلصة تسهر على مصالحي و تربية أطفالي و رفقاء يشدون أزري و يأخذون بيدي في كربي فماذا سلبني اللصوص بعد ذلك؟ لاشيء فها هو ثغري باسم و قلبي ضاحك و ضميري نقي طاهر .

و أما الجمال في الأسلوب و هو العنصر الثالث في الأسلوب الجمال من أجل الإمتاع فهو شيء أساسي أيضاً في الأسلوب حينما يملك الكاتب الذوق الأدبي المرهف و الأذن الموسيقيۃ و القدرات البيانية يستطيع عندئذ أن يتحاشى الكلمات الخشنة و الجمل المتنافرة و الجرس الرتيب ، و حينما يواءم بين الألفاظ و المعاني و يستوحي من خياله الصور المعبرة يكون أسلوبه جميلاً ، لأضرب لكم مثالاً : يقول أحد الكتاب البرج العاجي الخلقي هو السمو عن المطام ع المادية و المآرب الشخصية فليس من حق مفكر اليوم أن ينأى بفكره عن معضلات زمانه و لكن من واجبه أن ينأى بخلقه عن مباذل عصره و سقطاته، البرج العاجي عندي هو الصفاء الفكري و النقاء الخلقي و هو الصخرة التي ينبغي أن يعيش فوقها الكاتب ، مرتفعاً عن بحر الدنايا الذي يغمر أهل عصره لا خير عندي من المفكر الذي لا يعطي من شخصه مثلاً أعلى لكل شيء نبيل رفيع جميل .

و أما العنصر الأخير في المقالة فهو الخطة ، و الخطة كما سوف تعرفون مقدمة و عرض و خاتمة ، و يسميها بعضهم الأسلوب الخفيف و هي المنهج العقلي الذي تسير عليه المقالة ، فإذا اجتمعت للكاتب أفكار و آراء يريد بثها للقراء و كان له من الأسلوب ما يستطيع أن تشرق فيه معانيه وجب ألا يهجم على الموضوع من غير أن يهيء له الخطة التي يدفع في سبلها موضوعه ، و الخطة تتألف من مقدمة و عرض و خاتمة . فالمقدمة هي المدخل إلى الموضوع ، و تمهيد لعرض آراء الكاتب ، و يجب أن تكون أفكار مقدمته بديهية مسلماً بها و لا تحتاج إلى برهان و أن تكون شديدة الاتصال بالموضوع ، و أن تكون موجزة و مركزة و مشرقة ، و أما العرض فهو صلب الموضوع و هو الأصل في المقالة و فيه تعرض أفكار الكاتب عرضاً صحيحاً ، وافياً متوازناً مترابطاً متسلسلاً و يستحسن أن يمثل الكاتب لكل فكرة و يربطها بسابقتها و يذكر أهميتها و يشرحها و يعللها و يوازنها مع غيرها و يذكر أصلها و تطورها و يدعمها بشاهد أدبي أو تاريخي .

هذه طريقة عرض الأفكار و يفضل أن تعرض كل فكرة رئيسة في فقرة خاصة ، و في الخاتمة تلخص النتائج التي توصل إليها الكاتب في العرض و يجب أن تكون واضحة صريحة حازمة .



06 – أنواع المقالة :

المقالة العلمية:

موضوعاتها علمية، وأهدافها تبسيط الحقائق العلمية وتيسير نقلها إلى الجمهور، يقول قدري طوقان : ((الشمس أقرب نجم إلينا، وتقدر المسافةبثلاثة و تسعين مليوناً من الأميال ، فلو سار قطار إليها بسرعة 50 ميلاً في الساعة لوصلها في مئتين و عشرين سنة ، و الأمواج اللاسلكية ، التي تدور حول الأرض سبع مرات في ثانية واحدة ، هذه الأمواج لو أرسلت إلى الشمس ، لوصلها في ثمان دقائق و ربع ، و لو أرسلت إلى أقرب نجم إلينا بعد الشمس لوصلته في أربع سنين و نصف)) .

أسلوب المقالة العلمية المباشر الذي يعتمد على الدقة في استخدام الألفاظ ، و السهولة في صوغ العبارات ، و البعد عن التأنق و الزينة ، و لا تلبس المقالة العلمية من الأدب إلا أرق ثوب .

المقالة الأدبية :

و هي قطعة من الشعر المنثور تشف عن ذات الأديب و تعبر عن مشاعره ، و تنطلق مع خياله و ترسم ملامح شخصيته أسلوبها أدبي محض ، ففيها ما شئت من عواطف جياشة ، و خيال عريض ، و صور مترفة ، و أسلوب رشيق ، يقول عبد العزيز البشري متحدثاً عن سيد درويش :

((فما إن لحن سيد درويش فكان المعنى شديداً إلا قوي لحنه ، و دعم ركنه و شد بالصنعة متنه ، فسمعت له مثل قعقعة النبال ، إذا استعر القتال ، أو مثل زئير الآساد ، إذا تحفزت للصياد ، و إذا جنح الكلام إلى اللين ، كان لحنه أرق من نسج الطيف ، و ألطف من النسمة في سحرة الصيف)) .

الخاطرة :

مقالة قصيرة جداً ، تحتل بعض الزوايا في الصحف ، و المجلات ، و تعتمد على أسلوب الخطف في معالجة الموضوعات ، و تتميز بالطابع الذاتي ، و تشيع فيها السخرية ، و لها مذاق عذب في نفس القارئ ، و هي أشبه شيء بالرسم الكاريكاتوري .

07 - البطولة في تاريخ الأدب العربي

قال أحد النقاد لقد واكب الأدب العربي بشعره ونثره عبر تاريخه الطويل البطولات العربية في شتى ميادينها فصورها وجعل منها مثلاً يحتذى للأجيال الصاعدة وضح هذا القول وأيد ما تذهب إليه ببعض الشواهد المنتزعة من الأدب العربي .

هناك قول الناقد وهناك نص السؤال ، وإذا أردنا أن نكتب مقالة أدبية أو موضوعاً تعبيرياً توضيحاً لقول الناقد وجواباً لنص السؤال علينا أن نتبع المراحل التالية :

أولاً : استنباط العناصر ووضع خطةً تفصيلية .

ثانياً : اختيار الشواهد المناسبة وتحديد الأبيات والمقاطع منها .

ثالثاً : صياغة الموضوع صياغةً أدبية .

وها نحن نفصل في هذه المراحل الثلاثة مرحلةً مرحلة ، المرحلة الأولى من خلال القراءة المتأنية الواعية والدقيقة لقول الناقد يقول الناقد لقد واكب الأدب العربي بشعره ونثره عبر تاريخه الطويل البطولات العربية في شتى ميادينها فصورها وجعل منها مثلاً يحتذى للأجيال الصاعدة ، هذا قول الناقد أما نص السؤال وضح هذا القول وأيد ما تذهب إليه ببعض الشواهد المنتزعة من الأدب العربي .

من خلال القراءة المتأنية والواعية والدقيقة لنص السؤال ولقول الناقد تتضح وتستنبط العناصر التالية :

أولاً : محور الموضوع البطولات العربية والأدب الذي صورها ، الموضوع كله حول هذين الخطين ، ميادين البطولة التي وردت في قول الناقد يمكن أن تجزأ وتفرع إلى البطولة في القيادة والبطولة في الأخلاق والبطولة في الحرب ، وأما الأدب العربي الذي عبر عن البطولة فيمكن أن نتحدث عن تاريخه في العصر الجاهلي والراشدي والأموي والعباسي وعصر الانحدار وعصر النهضة ، والأدب العربي بشعره ونثره .



وأما الهدف من هذا التصنيف وذاك الرسم فهو تصوير البطولات أولاً وتوجيه الأجيال الصاعدة ثانياً إلى طريق تحررها وتقدمها ، وبعد التأمل في هذه العناصر يمكن أن نضيف إليها عناصر تقتضيها طبيعة الموضوع ومنها تعريف البطولة ، كما أنه ينبغي أن تفرع بعض العناصر الغنية كالبطولة في الحرب هذا عنصر غني يمكن أن يفرع ويشقق فهناك بطولة في الفتوح وهناك بطولة في صد العد وان وهناك بطولة في التحرير وهناك بطولة في الإباء والكرامة وهناك بطولة في الاستشهاد ، هذا العنصر الغني الثالث يمكن أن يفرع ويقسم وقد أضفنا عنصر تقتضيه طبيعة الموضوع وبهذا تصبح خطة الموضوع على الشكل التالي:

أولاً : البطولة كما تصورها الأديب الجاهلي لابد قبل البدء بتفصيلات الخطة من التأكيد أن المقدمة يجب أن تشمل كلمةً عامة عن البطولة وكلمة عامة عن الأدب الذي صورها .

فالبند الأول في الخطة هو البطولة كما صورها الأديب الجاهلي ونقتطف أبياتاً للشاعر لقيط بن يعمر الأيادي.

والفقرة الثانية في الموضوع البطولة القيادي ة في العصر الراشدي نقتطف مقطعاً من مسرحية الإزار الجريح للشاعر سليمان العيسى .

وفي الفقرة الثالثة نتحدث عن البطولة الأخلاقية في العصر الأموي نتحدث عن مقطع من مقالة لأحمد أمين تتحدث عن الأحنفي .

وفي الفقرة الرابعة نتحدث عن بطولة الفتوح في العصر العباسي نتحد ث عن سيف الدولة الحمداني من خلال أبيات قالها المتنبي .

الفقرة الخامسة نتحدث فيها عن البطولة التي من نوع صد العدوان في عصر الانحدار البطل صلاح الدين الأيوبي والنص لعباس محمود العقاد.

وفي الفقرة السادسة نتحدث عن بطولة التحرير من الاستعمار في عصر النهضة البط ل عمر المختار والشاعر أحمد شوقي .

وفي الفقرة السابعة نتحدث عن بطولة الإباء والكرامة في عصر النهضة البطل يوسف العظمة والشاعر إيليا أبو ماضي .

وفي الفقرة الأخيرة نتحدث عن بطولة الاستشهاد في عصر النهضة للشاعر عبد الرحيم محمود والبطل عبد الرحيم محمود .

والآن إلى تنفيذ فقرات الموضوع فقرة فقرة ، المقدمة تعريف البطولة ، ليس هناك تعريف جامع مانع للبطولة وإذا اختلف الدارسون في تعريفها فإنهم يتفقون على أن البطل إنسان متميز



يرى ما لا يراه الآخرون ويشعر بما لا يشعرون ويتمتع بوعي عميق وإدراك دقيق له قلب كبير وعزم متين وإرادة صلبة ، هدفه أكبر من حاجاته ورسالته أسمى من رغباته ، يملك نفسه ولا تملكه ويقود هواه ولا ينقاد له ، تحكمه القيم ويحتكم إليها من دون أن يسخرها أو يسخر منها ، أعطى ولم يأخذ ، هيأه تفوقه ليكون سيداً فوق الجميع فعاش واحداً بين الجميع ، سما حتى اشرأبت إليه الأعناق وصفا حتى مالت إليه الأفئدة .

والبطولة أيها المشاهدون لا تتعلق لا بعصر ولا مصر ولا جنس ولا بلون ولا بعمر ولا بأصل ولا غنىً ولا بفقر .

أطفال يلعبون في أحد شوارع المدينة يمر بهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان شديد الهيبة فيتفرقون إلا واحداً منهم يلزم مكانه لا يريب فلما حازاه عمر سأله يا غلام لمَ لم تذهب مع من ذهب ؟ فقال الغلام : أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك ولست مذنباً فأخشى عقابك والطريق يسعني ويسعك .

هذا نموذج من من بطولة أبنائنا ، والأدب العربي عبر تاريخه الطويل طافح ببطولات عديدة ، طافح بصو ر من البطولة في شتى ميادينها لقد تصور الأدب العربي البطل المنقذ وصور بطولة القيادة وبطولة السيطرة على الذات والبطولة الحربية بطولة الفتوح وبطولة صد العدوان وبطولة التحرير وبطولة الإباء و الكرامة وبطولة الاستشهاد .

والآن إلى هذه الصور صورةً صورة :

تصور البطولة شيء وتصويرها شيء آخر إن الإنسان قد يجمح به خياله نحو نموذج إنساني يدرء الخطر عن الجماعة ويحقق طموحها الكبير وهذا ما كان من لقيط بن يعمر الأيادي الشاعر الجاهلي الذي رأى قبيلته سائرةً في غفلتها تمزقها المنازعات في حين أن خطر الأعداء محدق بهم فتمنى عليها أن تقلد أمرها رجلاً مطلعاً بأمر الحرب بعيداً عن الترف يحمل إنسانية الإنسان جلداً يتجشم المصاعب متطلعاً لما فيه خير قبيلته يقول :

يا لهف نفسي إن كانت أموركم شتى وأحكم أمر الناس فاجتمـــع
مالي أراكم نياماً في ملهلــةٍ وقد ترون شهاب الحرب قد سطع
قوموا قيام على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قبل من فـــــــــزع
وقلدوا أمركم لله دركــــــــم رحب الذراع بأمر الحرب مطلــع
لا مترفاً أو رخي العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعــــا
وليس يشغله مالٌ يثمره عنكم ولا ولد يبغي له الرفعـــــــــا



هذه صور من البطولة في العصر الجاهلي كما تصورها الشاعر لقيط ابن يعمر الإيادي وإذا انتقلنا إلى المجتمع العربي في العصر الراشدي حيث بدت القيم الجديدة قيم الحق والخير والعدالة في أبهى صورها نجد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب يجسد هذه القيم بمواقفه وأحكامه فكان بحق بطل مبدأ مضى نحو تحقيقه من دون أن ينظر إلى الثمن ففي خلافته جاءه إلى المدينة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة يعلن إسلامه ويرحب به عمر ولكنه في أثناء الطواف في الحج كان بدوي من فزارة قد داس إزار الملك الغساني فيغضب هذا الملك ويلتفت إلى هذا البدوي فيهشم أنفه فيشكوه الفزاري إلى عمر بن الخطاب ويستدعى الملك الغساني إلى مجلس عمر ويجري بين عمر وجبلة حوار صاغه الأستاذ الشاعر سليمان العيسى وهو غني عن التعريف فشعره القومي على ألسنة أبنائنا الصغار والكبار وهذا الحوار فصل من مسرحية شعرية عنوانها الإزار الجريح التي قرأها الكثير :

يقول عمر لجبلة يا بن أيهم جاءني هذا الصباح مشهد يبعث في النفس بدوي من فزارة بدماء تتظلم بجراح تتكلم مقلة غارت وأنف قد تهشم فسألناه فألقى فادح الوزر عليك بيديك أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح .

عندئذ قال جبلة بن الأيهم :

لست من ينكر أو يكتم شيئا أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيدي .

يجيبه عمر : أي حق يا بن أيهم عند غيري يقهر المستضعف العافي ويظلم عند غيري جبهة بالإثم بالباطل تلطم نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها أقمنا فوقها صرحاً جديدا وتساوى الناس أحراراً وعبيدا أرض الفتى لابد من إرضائه مازال ظفرك عال قاً بدمائه أو يهشمن الآن أنفك وتنال ما فعلته كفك .

سمع جبلة هذا الكلام وقد أخذ فقال جبلة :

كيف ذاك يا أمير المؤمنين كيف ذاك ؟ وهو سوقة ، أي من عامة الناس، وأنا عرش وتاج كيف ترضى أن يخر النجم أرضا كان وهماً ما مشى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز أنا مرتد إذا أكرهتني .

يقول عمر :

عنق المرتد بالسيف تحز عالم نبنيه كل صدع فيه بشدى السيف يداوى وأعز الناس بالصعلوك بالعبد تساوى .



يا إخوتنا المشاهدين :

إذا انتقلنا إلى العصر الأموي نجد أن هناك ميادين جديدة للبطولة منها تلك التي تتمثل بالسيطرة على الذات فقد يحمل الإنسان نفسه على مكارم الأخلاق ويدفعها نحو معالي الأمور حتى يسمو بها فتغدو محط الأنظار ومهوى الأفئدة وعندئذ يطغى مخبره على مظهره ويبلغ منزلة تتقطع دون بلوغها أعناق الطامحين ، هذه صورة من صور البطولة الأخلاقية يقدمها الكاتب أحمد أمين من أحنف بن قيس أحد بنات تاريخنا العظيم ، الكاتب أحمد أمين يصف الأحنف بن قيس :

ضئيل الجسم صغير الرأس متراكم الأسنان مائل الذقن ناتئ الوجنة غائر العينين خفيف العارضين أحنف الرجل ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بحظ تنبو عن مرآه الأحداق وتتفادى من شخصه الأبصار وهو مع ذلك سيد قومه إن غ ضب غضب لغضبته مائة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب ، تتركز عظمته في خصلتين تتصل إحداهما بالأخرى اتصالاً وثيقاً إنه منح نظراً صائباً يتعرف به المحاسن والمساوئ ومعالي الأمور وسفاسفها ثم منح إلى ذلك إرادةً يحمل بها نفسه على ما أدرك من معال ومحاسن مهما كلفه من مشق ة وحمله من جهد فلو علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

فعندما كان معاوية يأخذ البيعة لابنه يزيد أخذ الناس بالثناء على يزيد والأحنف ساكت فقال له معاوية ما لك لا تتكلم يا أبا بحر ؟ فقال قولته الشهيرة أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت فكأن كنايته أبلغ من التصريح .

وفي العصر العباسي من منا لا يعجب بتلك الصورة الرائعة التي رسمها المتنبي لسيف الدولة الحمداني ذلك البطل الفذ الذي قاد أمته إلى النصر في معارك مؤزرة ضد الروم كتب فيها أروع صفحات الفخار وذلك ميدان آخر من ميادين البطولة وهي البطولة الحربية يقول الشاعر المتنبي :

يكلف سيف الدولة الجيش همه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك ما لا تدعيه الضراغـــــم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائـــم
تمر بك الأبطال كلمى هزيلـــةً ووجهك وضاح وثغرك باســـــم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

في عصر الانحدار حيث انطوت الأعلام العربية وكبت الخيول بأشبال النضال سطعت



وسط هذه الظلمة القاتمة بطولة فذة نادرة بددت الظلام وانتزعت اليأس من النفوس إنها بطولة صلاح الدين الأيوبي وقد وصف عباس محمود العقاد جا نباً من بطولته وهي من نوع صد العدوان وردع المحتلين وقد أقبلت جيوش الغزو الفرنجي الثالثة يقودها سبعةً وعشرين ملكاً وأميراً يتقدمهم ريكاردس ملك إنكلترا وقد قال لصلاح الدين قبل التحام الجيوش إني أنا ريكاردس والقوة عندنا هي كل شيء وسأريك البرهان ثم دعا بقضيب م ن حديد ثم سل سيفه وأهوى به عليه فاخترقه نصفين فضحك صلاح الدين وقال لريكاردس : ليس الحرب صلابة سيف وقوة ساعد إنما هي مضاء حد وسداد يد ثم قذف بمنديل من الحرير الشفاف إلى أعلى وتلقاه بسيفه فشطره شطرين وقال لريكاردس بمثل هذا السيف سنلقاكم غداً . وتعلمون أيها الإخوة المشاهدون من كان المنتصر .

وفي مطلع عصر النهضة شهد الوطن العربي معارك طاحنة مع الاستعمار وقد برز من خلال هذه المعارك أبطال عظام ومقاتلون أشداء سجل لهم التاريخ بطولاتهم وتضحياتهم وكان عمر المختار أحد هؤلاء الذين انتزعوا إعجاب الأجيال من بعدهم فكانوا مشعلاً وضاءً للأجيال الصاعدة في طريق كفاحها ونضالها وكانوا قدوةً ومثالاً يحتذى لأبناء أمتنا في معركة تحررها وتقدمها ، وهذا الشاعر أحمد شوقي يؤكد أن البطولة لها دور كبير في بث روح التضحية والفداء لدى المناضلين يقول:

ركزوا رفـــاتك في الرمـــال لواء　　يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم نصبوا منــــــاراً من دم　　يوحي إلى جيل الغـد البغضاء
جرح يصيح على المــدى و ضحية　　تتلمـــس الحـــرية الحمراء
فالصحارى غمـــــد كل مـــهند　　أبلى فأحســــن في العدو بلاء
خيرت فاخترت المبيت على الطــوى　　لم تبن جاهــاً أو تلـــــم ثراء
إن البطولة أن تموت من الظمـــا　　ليس البطولـــــة أن تعب الماء

وحينما يكون الأمل في تحقيق النصر ضئيلاً بسبب التفوق الكبير للمعتدي في العدة والعتاد ، وحينما يكون الاستسلام والخضوع لقوة القهر أمراً مهيناً تبرز بطولة من نوع خاص وهي بطولة الكرامة والإباء وهذا ما بدا واضحاً في البطل الشهيد يوسف العظمة الذي آثر الموت من أن يرى عدواً مغتصباً يدنس بأقدامه ثرى وطنه ويقدم إيليا أبو ماضي صورةً لهذا النوع من البطولة :



بأبي وأمي في العزائم والسـد بعث الحياة مطامحاً ورغابا
لما ثوى في ميسلون ترنحـت هضبـاتها وتنفست أطيابا
هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى كي لا يرى في جلق الأغرابا
وإذا نبى العيش الكريم بماجـد حر رأى الموت الكريم صوابا

والآن يا إخوتنا المشاهدين وفي خاتمة المطاف جاء دور الشعراء الأبطال الذين رفضوا الالتزام شعراً يملأ الأذن حديثاً عن البطولة والتضحية والفداء بل رأوه موقفاً نضالياً قد يكون الاستشهاد ثمنه فهذا الشاعر عبد الرحيم محمود الذي روى ثرى فلسطين بدمه الطاهر يقول عن نفسه قبل أن يستشهد :

سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهب الردى
فإما حياة تسر الصديـق وإما ممات يغيظ العـدى
ونفس الشريف لها غايتان ورود المنايا ونيل المنى
وما العيش لا عشت إلم أكن مخوف الجناد حرام الحمى
إذا قلت أصغى لي العالمون ودوى مقالي بين الورى
أرى مقتلي دون حقي السليب ودون بلادي هو المبتغى
وأحمي حياضي بحد الحسام فيعلم قومي بأني الفتى

وبعد أن استشهد أبنه إسحاق الحسيني فقال :

أيها الشاعر الشهيد أطأطأ رأسي مرةً أمام شعرك ومائة مرة أمام دمك الذكي الذي بذلته في سبيل الوطن الغالي وهكذا ترون يا أيها ا لإخوة المشاهدون أن الأدب العربي قد واكب البطولات بشعره ونثره عبر تاريخه الطويل ، واكب هذه البطولات في شتى ميادينها فصورها وجعل منها مثلاً يحتذى للأجيال الصاعدة .

أيها الإخوة :

هذه الصور المشرقة من تاريخنا من البطولة ليس لأخذ العلم بل لتكون حافزاً لنا ومرمى لأبصارنا وإلى لقاء آخر والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

